رواية

ثُبرا

نعيم صبرى

شُبـــرا

رواية

نعيم صبري

كن باش الوجه مادمت حيا

من تعاليم بتاح حتب

أقم العدل لتوطد مكانتك فوق الأرض،

وواس الحزين ولا تعذبن الأرملة،

ولا تحرمن رجلاً من ميراث والده،

ولا تضرن الأشراف في مراكزهم،

ولا تتول العقاب بنفسك،

فإن ذلك لا يرفعك

من تعاليم ملك من الأسرة العاشرة
لم يعف اسمه على وجه التحقيق
إلى ابنه المسمى مريكا رع

لا تدينوا لكي لا تُدانوا

السيد المسيح

من كان مؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذِ جاره،

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليكرم ضيفه،

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر

فليقل خيرا أو ليسكت.

حديث شريف رواه مسلم بهذا اللفظ

وروى البخاري بعضه.

رسم كروكي لحي شبرا

(١)

ما أرحب هذا العالم الذي نعيش فيه، وما أدقه. اتساع لا نهائي من المجرات والأنجم، التي تتراقص الكواكب حولها وهي تدور حول نفسها، بإيقاعات مهيبة محسوبة لا تحيد.

عالم دقيق، في مستوياته اللامتناهية، والمتناهية. في مجراته وذراته، كياناته وخلاياه. دقيق... ورحب.

في هذا العالم الرحب، يقع حي شبرا، بمدينة القاهرة، بمصر المحروسة، بأقصى الشمال من القارة الإفريقية المترامية، عند لقاءها مع قارة آسيا، والبحرين، الأبيض والأحمر.

حي محدود في مدنية تاريخية عريقة، لكنه يمتلك رحابة متميزة، من نوع خاص. رحابة الصدر. حي ذو صدر رحب يتسع للجميع كما سوف نرى. يتسع لي ولك... وللآخرين جميعاً.

يتحدثون الآن عن الآخر، وقبول الآخر... أي آخر؟!... لم يكن الآخر ذا وجود من الأساس، لم يكن معنى مدركاً في الوعي الجمعي. يتحدثون عن قبول الآخر، وكأنه طلب عزيز المنال في أيامنا هذه. لكن ذلك حدث ببساطة فيما مضى، وكان يحدث كل يوم بتلقائية وسلاسة.

لا يهم من تكون؟... من أي الأعراق؟... من أي الأديان؟... بأي لغة تتكلم؟. المهم... أنك موجود... تعيش في حي

شبرا آمنا مطمئنًا... تولد وتشـب. تحـب وتتـزوج... تنجـب الذرية... تربي الأبناء... يشب الأبناء ويعاودون الدورة، ثم ترحل في الأجل المحتوم.

(٢)

كلما شعرت بالحنين، ذهبت إلى حي شبرا. كلما شـعرت بالأسى، ذهبت إلى حي شبرا. كلما شعرت بالمرارة، ذهبت إلـى حي شبرا.

لنبدأ بوصف سريع لحي شبرا. يقع حـي شـبرا بجـوار محطة مصر. محطة القطارات التي تصل وتسـافر، مـن وإلـى أطراف مصر المحروسة. حي شبرا أول من يستقبل، وآخر مـن يودع. يلقاك حي شبرا أول ما تصل، فينطبع فـي ذاكرتـك، ثـم يودعك قبل الرحيل، فتتذكره دائما.

يبدأ حي شبرا بكوبري شبرا وينفق شبرا. تشاهد عليهمـا الباعة السريحة يدفعون عرباتهم، وحلاقي الفقراء، يعملون جنبـا إلى جبن مع ماسحي الأحذية.

لحي شبرا شريانان طوليان. شارع شبرا وشارع الترعـة البولاقية. يقال إنه كان ترعة فيما مضى. حدثني جدي فقـال، إن شبرا كانت أرضا زراعية في معظمها، لذلك فمـن الطبيعـي أن تكون بها ترع، وأصل كلمة شبرا في اللغـة القبطيـة، جبـروا، وتعني العزبة، والعزبة هي الخلية الأولى في مجتمـع الزراعـة، والتي تنمو فيما بعد إلى القرية.

يتفرع من شارع شبرا عدة شوارع رئيسـية. بعـد نفـق شبرا، وعند نقطة التقائه مع كوبري شبرا، يتفرع من ناحية اليسار شارع جزيرة بدران، الذي كان يطلق عليه فيما مضى، قصـورة الشوام، لكثرة ما به من قصور للشوام الذي يعيشون بحي شـبرا. إذا تقدمت قليلاً في شارع شبرا، يقابلك شارع بديع إلى اليمـين، حيث يصل شارع شبرا بشارع الترعة البولاقية ثـم يوجـد إلـى منطقة الشرابية. نسير قليلاً في شارع شبرا بعده، نلتقـي يسـارا بشارع مسرة، والذي يقودك إلى سوق الخضار بروض الفـرج، يليه شارع طوسون فدوران شبرا. يلي شارع بديع ناحية اليمـين، شارع شيكولاني أو شارع المستشفى فشارع يلبغـا. مـن دوران شبرا، إذا اتجهت يسارا فأنت في شـارع روض الفـرج، فحـي روض الفرج الشهير بملاهيه فيما مضى، ثم المبيضـة وسـاحل الغلال. إذا اتجهت يمينًا من دوران شـبرا فأنـت فـي شـارع خلوصي، الذي يأخذك أيضا إلى شارع الترعة البولاقية.

تستقبلك شبرا البلد بعد دوران شبرا ثم الخلفـاوي فشـبرا المظلات التي تودعك إلى شبرا الخيمة.

هذا وصف عام سريع للمحاور بحي شبرا.

لحي شبرا معالم لابد أن الكثيرين منكم قد سمعوا بها ولو بشكل عابر. سينما دوللي. سينما شـبرا بـالاس. سـينما أميـر

بخلوصي. سينما الجندول الصيفية. مدرسة التوفيقية. مدرسة شبرا الثانوية. مستشفى كتشنر. جمعية المحبة القبطيـة الأرثوذكسـية وملجؤها للأيتام. هذه يعرفها كل أقباط مصر، حيث إنهـا تقـوم بطباعة التقويم السنوي الشهير، الذي يحتوي على نتيجـة العـام، وجميع الأعياد والصيامات القبطية. تجد هذه النتيجة فـي جميـع البيوت القبطية. وقد رأيتها في بعض بيوت المسلمين بشبرا.

من معالم شبرا الشهيرة أيضا، سانت تريز، بعـد دوران شبرا، والتي يشعل لها الجميع الشموع تبركًا ورجاءا. هناك أيضا البوظة بأول شبرا، وعلى رصاص صاحب ثلاجة البيرة المثلجـة كالرصاص بالشارع الصغير المتفرع من شارع خلوصي ناحيـة الدوران.

يمتلئ حي شبرا بمحلات يدير بعضـها الأجانـب مـن اليونانيين والإيطاليين والأرمن، ويدير المصريون من أهل البلـد بعضها الآخر. محلات بقالة وأفران إفرنجية وبلدية و خمـارات. محلات جزارة ومحلات خضار وفاكهة. محلات عصير قصـب ومحلات فراشة. محلات كشري ومحلات فول وطعمية. مقـالي لب. هذا إلى جانب العديد من المقاهي البلدية.

حي لا هو بالحي الأرستقراطي، ولا هو بالحي الشـعبي في مجمله. هو حي بين بين. تجد فيه الأسر الموسـرة، والأسـر محدودة الدخل، لكن ما يميزه هو رؤوس أبنائه، أقصـد عقلياتهـا

طبعا. هي عقلية الطبقة الوسطى التي كانـت، العقليـة المتفتحـة للتواصل والتعلم والتفهم والتطور، وقبل ذلك جميعا، المحبة وقبول الاختلاف، مما يجعل الحياة مع الآخرين متعة وهنـاء وعشـرة طيبة.

(٣)

والله العظيم دي مسخرة وقلة أدب... عشنا وشُفنا. دا بيت ناس محترمين... افتح الباب أحسن لك يا قليل الأدب أنت وهو... على آخر الزمن في بيت الحاجـة فريـدة والمرحـوم محمود صدقي سويلم.

أخذت الست بطة تبرطم بملء فمها وهي تخبط بكفها بقوة وعناد على باب شقة المرحوم محمود صدقي سويلم، بعدما أخبرها علي، ابن عم سيد البواب ذو الثلاثة عشر عاما، أن سالم وصالح، أبناء الحاجة فريدة، قد اصطحبا معهما إلى الشقة فتـاة غريبـة، مستغلين غياب والدتهما وابنتها نادية والخادمـة العجـوز صـف صف العبيطة عن الشقة.

توالت دقاتها المتتالية برطمتها الثائرة، وهي تقف مهتاجة، أمام باب شقة الحاجة فريدة. عندما يئست من فتح الأولاد للبـاب، أحضرت أحد كراسي السفرة وجلست متحفزة أمام بـاب شـقتها المقابل لباب الحاجة فريدة جارتها، وقد التم الجيـران يتفرجـون على هذا المشهد الصاخب.

انفتح باب الحجة فريدة فجأة وخرج منه صالح في حالـة هستيرية صارخًا وهو يمسك بأحد سكاكين المطبخ في يده:

- من يقترب منكم سأفتح بطنه بالسكين.

بهت الجميع لمنظر صالح وهو يصيح صارخًا في الجميع وملوحا بالسكين في يده. كانت مظاهر الجنون تبدو على سـيماه، بينما مرق أخوه سالم كالبرق وهو يمسك بيد الفتاة ويقفز الـدرج كالسهم ساحبا إياها خلفه، و الفتاة تولول في فزع عظيم.

دخل صالح إلى الشقة بعد الاطمئنان على نـزول سـالم والفتاة وتخلصهما من تلك الورطة، ثم صفق الباب بشـدة خلفـه، مغلقًا إياه في وجه الست بطة وبقية الجيران.

(٤)

كانت الحاجة فريدة قد أزمعت على زيارة ابنتها الكبـرى أماني بحي منيل الروضة وقضاء النهار معها. اصطحبت معهـا ابنتها الصغرى نادية الطالبة بالتعليم الثانوي وأنصـاف خادمتهـا العجوز، والتي يطلقون عليها صف صـف تـدليلاً لهـا وإثـارة لحفيظتها. صف صف على درجة لا بأس بها من العبط المسـالم. نحيفة وقليلة الحجم. تحكي أنها سقطت من فـوق سـطح بيـتهم الريفي بقريتها في محافظة الشرقية عندما كانت طفلـة صـغيرة تلعب مع أقرانها. زلت قدمها وسقطت. تسببت صدمة رأسها مـن جراء سقوطها في إصابتها بنوع من التخاف العقلي مع درجة من التشوه في شكل جمجتها. ليست تامة الاستدارة. اكتسبت الجمجـة رجة من الانبعاج. لا يمكنك أن تحدد لهـا عمـرا بدقـة، لكنهـا جاوزت الخمسين. قد تكون جاوزت الستين أيضا، لكن ذلك بعيـد الاحتمال.

انتهز صالح فرصة وجود البيت خاليا في ذلـك النهـار، أوعز إلى سالم أخيه أن يحضرا البنت سميحة التي تسـكن فـي شارع سمعان والتي تعرف عليها صالح منذ مدة، بعد أن غازلهـا وهي في طريق عودتها إلي بيتها. قطرها من محطة البوظة حتى بيتها في آخر شارع سمعان و تواعد معها على اللقاء فـي اليـوم

التالي. اعتادا على اللقاء من آن لآخر. كان يأخذها إلـى سـينما دوللي. يحجز مقعدين آخر البلكون في أحد الأركان وينزل فيهـا تقفيشًا حتى تسيح في يديه. أخذها ذات مرة إلى شقة حمزة صاحبه عندما سافر أهل للبلد. نام معها أولاً. عندما أراد حمـزة أن ينـام معها تمنعت في البداية، لكن حمزة عاملهـا بـذوق ورقـة بعـد انسحاب صالح بهدوء ومغادرته الشقة فاستسلمت له.

سميحة تعمل بالبيوت وعلى قدر لا بأس به من الجمـال والدلال. تهتم بملابسها وهندامها في حدود إمكانياتها. تكحل عينيها قبل الخروج وتتعطر بكولونيا الشبراويشي. كان صالح قد علم منذ اليوم السابق بعزم والدته على زيارة أخته أماني وقضـاء النهـار عندها. لُبد لها على ناصية شارع سمعان في موعد عودتها ورتب معها الأمر.

(٥)

اغتمت الحجة فريدة عندما عملت بالمصيبة من جارتهـا الست بطة بعد عودتها من المنيل. أقسمت ألا يبيت صـالح فـي البيت. عنّفَت سالم بشدة، لكنها تعرف في قرارة نفسها أن صـالح هو سبب البلاء، العقل المدبر الذي ينقاد له سالم دائما. انتظـرت حضور صالح دون جدوى. هام صالح على وجهه بقيـة النهـار وردحا من الليل. لا يجرؤ على الاقتراب من البيت. عزم على أن ينتظر توغل الليل قبل أن يتسلل عائدا إلى البيت. تعبت الحاجـة فريدة من الانتظار وغلبها النعاس. يعلم أنها لا تقوى على السهر. بعد منتصف الليل، تسحب صالح متلصصا. لم يجـد عـم سـيد البواب مكانه بمدخل البيت بجوار ثلاجة الكازوزة في ذلك الوقت من الليل. دلف من الباب سريعا وقفز درجات السلم مسرعا إلـى شقتهم. كان الظلام والنعاس ينبعثان من شقق البيت. دس المفتـاح بهدوء في الباب و فتحه ببطء. تسلل إلى داخل الشقة على أطراف أصابعه وأغلق الباب وراءه بحذر. توجه إلى غرفته التي يقتسمها مع سالم. خلع ملابسه بهدوء واندس في فراشه. راح بعدها فـي نوم عميق بعد عناء اليوم العصيب.

هو يعرف ما سيحدث في اليوم التالي. ستجيء الحاجة في الصباح لتوقظه وهي ثائرة. قم يا كلب يا مكسور الرقبة... انهض

يا شيطان... لك عين تعود إلى هذا البيت الذي دنسته. لـو كـان المرحوم أبوك موجودا لعرف كيف يؤدبك ويكسر شوكتك. ملعونة البطن التي حملتك...

مضت الحاجة فريدة في غضبتها و صالح لا ينطق بكلمة واحدة. ظل مطأطئ الرأس وهو جـالس علـى حافـة السـرير كالصنم. يحدث هذا مع كل فصل من فصـوله السـخيفة، لكنهـا زادت هذه المرة كثيرا عن سابقاتها.

(٦)

المهندس إميل فرنسيس زوج الست ليزة مالكة بيت شارع الزهور، والتي يناديها الجميع الست بطة. اسم على مسمى. امرأة ممتلئة تتهادى في مشيتها كالبطة وأردافها الضخمة تعلو وتهـبط بانتظام. خرج المندس إميل على المعاش منذ أكثر من عام بعـد خدمة طويلة في نشاط المقاولات. عمل مهندسا مدنيا مع العديـد من المقاولين المصريين والأجانب. يعتز بمهارته الفنية ويـدعي وهو يضحك من قلبه ضحكته الصافية المتقطعة، أنه لـو أسـس شركة مقاولات خاصة منذ بداية عمله، لأصبح الآن مقاولاً كبيرا قد الدنيا. هذا ما يعتقده الباشمهندس إميل. لكنه في الحقيقية مجرد كلام، فهو لا يجيد إلا دور الموظف الذي يقوم بأداء المهام الموكلة إليه بشكل جيد. يحب أن يعود إلى بيته بعد نهايـة يـوم العمـل، فيستريح قليلاً، ثم يستمع إلى الراديو، أو يلعب عشرتين طاولة مع جاره فهمي أفندي عبد الفتاح، الذي يسكن بالطابق الأسفل.

المهندس إميل خفيف الظل ومهزار. يميـل دائمـا إلـى مناوشة زوجته الست بطة، التي يدعي أن تكبـره بعـدة أعـوام، فتثور ثائرتها لتشنيعه عليها. تُقسم أنها أصغر منه فيكذّبها بهـدوء أعصاب يحسد عليه مما يثيرها أكثر فأكثر، كل هذا وهو مسـتمر في ضحكته المتقطعة الصافية. يطيب خاطرها بعد قليـل عنـدما

تشرع في البكاء. هو طيب القلب ومسالم جدا، لكنه يعشق الهزار والمشاكسات السلمية. يعاود دائما مشاكسته بموضوع كبر سـنها عنه، فتعاود الثورة عليه ليأخذ في الضحك من جديـد، وجسـمه الممتلئ يهتز من فرط استغراقه في الضحك ويتكرر السيناريو.

المهندس إميل لا يخرج من البيت إلا للضرورة القصوى، خشية لسان الست بطة السليط. مازالت تشعر بالغيرة علـيهن ولا تكف عن البرطمة إذا ما فكر في الخروج بمفرده. ينتهي الأمـر بأن يقلع عن فكرة الخروج رغم مشاكساتها السلمية، فهـو يعمـل ألف حساب للست بطة، لذلك أقلع تقريبا عن الخروج. الست بطة قوية وأريبة وهو مسالم وينأى بطبيعته عن أي صراع، فيما عـدا الهزار البريء، الذي يبرع في إدارته بعفوية يحسد عليها. ربمـا تكون تلك المناوشات الظريفة الاستفزازية مع زوجته نوعـا مـن تخليص الحق، ولا نقول الثأر منها لهيمنتهـا عليـه وتسـلطها. المهندس إميل قلبه كبير ولا تخله رغبات الثأر مطلقًا.

خرج المهندس إميل من الحمام بالفانلة واللبـاس بعـد أن أخذ دشًا باردا بعد قيظ النهار. يفعل ذلك دائما رغم إقامة إلـين، أخت الست بطة، معهم. إلين تصغر أختها الست بطة بعامين ولم تتزوج. تضع عينًا زجاجية بعد أن فقدت إحدى عينيها في الصغر. لها أنف عظيم يملأ صفحة وجههـا النحيـف فيصـبغه بـبعض الدمامة. تعلمت الخياطة وتقوم بحياكة ملابسها وملابـس السـت

بطة. تجيد الطهي، على العكس من أختهـا، تضـطلع بـالمطبخ بمفردها، بالاستعانة بوهيبة الخادمة، ذات الثمانية عشـر ربيعـا. إلين على قدر من السذاجة، لكنها سذاجة لا تصل إلـى مسـتوى العبط. سذاجة قلة الخبرة. تذهب إلى الكنيسة بانتظام أيـام الأحـد والجمعة وفي الأعياد وتصوم جميع صيامات الأقبـاط، الصـيام الكبير والصيام الصغير وصيام السيدة العذراء وصـيام الرسـل، تصوم حتى صيام يونان الذي ابتلعه الحوت، كمـا تصـوم أيـام الأربعاء والجمعة، حتى أصبحت رائحتها مقترنة برائحة الزيـت. لم تسلم إلين من سخرية الباشمهندس إميل، خاصة فيمـا يتعلـق بحنبليتها في الأمور الدينية. يتلذذ بخروجه من الحمام بـالملابس الداخلية ومشاهدتها إياه. الست بطة يئست من اعتراضـها عليـه ولومه على ذلك التصرف الإباحي. انتهى بها الأمر إلى التسـليم والرضوخ للأمر الواقع نتيجة لمواجهته لبرطمتها دائما بالضـحك المستمر. يفاجئ الباشمهندس إميل إلين والست بطة بنكاته الإباحية الخارجة، مما يثيرهما عليه، فتغادران مكان وجوده اعتراضا.

لم تنجب الست بطة إلا ابنها الوحيد ميشيل، والذي جاءها على كبر. ميشيل يبلغ من العمر عشرين عامـا ويـدرس بكليـة الزراعة.

ارتدى المهندس إميل البيجاما وانتعل شبشبه ثم أبلغ الست بطة أنه سينزل لشراء الدخان من محل نسـيم، بيـاع السـجاير

والحلويات. موضوع نزول الشـارع بالبيجامـا والشبشـب هـو الموضوع الآخر الذي يئست الست بطة من محاولة إثناءه عنـه، فاستسلمت له أيضا. طلبت منه أن يشتري ثلاثة أرطال لحم كندوز من إبراهيم الجزار. أعطته النقود فأخرج بطاقته الشخصـية مـن جيب البيجاما العلوي، وأضافها إلى نقوده التي يحتفظ بها دائما في البطاقة. المهندس إميل تعود على إعطاء معاشه إلى الست بطـة أول كل شهر وأخذ مصروفه الشهري.

ذهب المهندس إميل إلى محل إبراهيم الجزر أولاً. حيـاه وطلب منه اللحم وهو يوصيه باختيار قطعية جيدة، إكراما للسـت بطة وتحاشيا لغضبها. إبراهيم الجزار دبلوماسي ومهذب. يقنعـك بأنه سيعطيك أحسن اللحم، لا يمنع ذلك من تمريره لقطع من اللحم العجوز والذي لا ينضج بسهولة. يسـتطيع بمهـارة امتصـاص غضبك في المرات اللاحقة بابتسامته الودود وصـوته الخفـيض. يقف بين صبيانه في العمل بيده. تراه أحيانًـا يرتـدي القمـيص والبنطلون بدلاً من جلبابه الأبيض المعتاد، رغم ذلك يعمل بهمـة وجدية دائما.

أخذ المهندس إميل اللحم وعرج على نسيم، اشترى علبتين سيجار توسكانيللي الذي يدخنه دائما، مما صبغ أصابع كفه اليمنى باللون البني، حيث إنه يدخن السيجار حتى أخـره، ولا يكـف إلا عندما يلسعه العقب في شفتيه.

عاد المهندس إميل إلى البيت، ووضع اللحـم بـالمطبخ. كانت الست بطة تقف أمام السلم الخشبي النقالي، المستند إلى عتب باب الحمام، والذي تعلوه الصندرة، بينما تقـوم وهيبـة بتخـزين البصل في الصندرة، تحت إشراف الست بطة، وتعليماتهـا بفـرد البصل على أرضية الصندرة لتهويته جيدا.

(٧)

في شبرا، يخزن الناس البصـل والثـوم فـي الصـندرة لاستهلاك العام، كما يجففون الملوخية والبامية للشتاء، يسـمونهما الملوخية الناشفة والبامية الناشـفة. يصـنعون الباميـة عقـودا، مستخدمين الخيوط لتعليقها في الشرفات حتى تنشـف. يجففـون كذلك قُرص الخُضارة المصنوعة من السلق والكزبرة الأخضرين ويعلقونها أيضا على حوائط الشرفات لاستعمالها في طهي القلقاس والبامية بالخُضارة. يخزنون أيضا السمن البلدي من العام للعام في براني بنية اللون مصنوعة من الفخار، كما يصنعون المربات في البيوت في مواسم الفواكه المختلفة ويخزنونهـا فـي برطمانـات زجاجية لاستعمال العام. الخير كتير، لكنهم دائما يصنعونه بأيديهم وفي بيوتهم. لم يكن السوبر ماركت معروفًا في تلك الأوقات.

(٨)

مع حلول الغروب، رن جرس باب شقة الست عائشة. الست عائشة تسكن بالدور الأول في الشقة التي تقع أسفل شقة الست بطة. هرعت صباح الخادمة بنشاطها المعهود إلى الباب لفتحه. كان الطارق هو الخالة فاطمة، زوجة عم سيد البواب. سألت عن الست عائشة قبل أن تهم بالدخول. الخالة فاطمة لا تحتاج إلى إذن للدخول. في الحقيقة، معظم الجيران في شبرا، لا يحتاجون إلى إذن للدخول بالمعنى المعاصر. هم جيران، يعني أهل. على الرحب والسعة في جميع الأوقات.

أهلا وسهلاً يا خالة فاطمة، جاء صوت الست عائشة مرحبا مضيافًا وهي تهل من الطرقة خارجة من المطبخ. كانت منشغلة بتجهيز طبيخ اليوم التالي، فهي تقوم بالطهي مساء نظرا لعملها الصباحي. الست عائشة موظفة بوزارة المالية ولا تكون موجودة بالبيت صباحا. دعتها إلى غرفة القعاد بعد أن صافحتها بحرارة وقبلتها.

تربعت الخالة فاطمة على السجادة قبالة الست عائشة التي جلست على الكنبة. الخالة فاطمة تستريح في قعدة الأرضية كما اعتادت في كوم امبو، بلدتها قبل أن تجيء إلى القاهرة، فلا تعتقد

أن ذلك يشير إلى شبهة فوارق طبقية. ليس ذلك معروفًا في شبرا في الأعم الأغلب.

طلبت الست عائشة الشاي من صباح. واحد شاي مضبوط يا صباح لخالتك فاطمة.

دست الخالة فاطمة يدها في صدرها وأخرجـت منـديلاً ملفوفًا بعناية حلته وأخرجت منه ثلاثة جنيهات أعطتهـا للسـت عائشة. الخالة فاطمة تُحوش طرف الست عائشة. كـذلك صـباح خادمتها ووهيبة خادمة الست بطة. تحتفظ الست عائشة في دولاب ملابسها بظرف كل واحدة تضع فيه ما يخصها وتكتب عليه اسمها من الخارج بخط كبير واضح.

تكتب أيضا على ظهر الظرف المبلغ وتـاريخ تحويشـه هكذا:

				المجموع
١	٢/٥	يوم	جنيه	١
٤	٣/٨	يوم	جنيه	٣
٦	٦/١٥	يوم	جنيه	٢

هذه هي طريقتها في الحساب.

لا صلة لموضوع التحويش بعملها فـي وزارة الماليـة. الجماعة كانت ستستأمنها لو عملت في أي جهة حكومية أخـرى. السر يكمن في شخصية الست عائشة المحبوبـة. تمتلـك السـت

عائشة شخصية قيادية بخلطة متوازنة من الطيبة والحزم، جعلـت الجميع يحبونها ويأتمنونها على مدخراتهم ومشـاكلهم ويطيعـون مشورتها.

كان الصيف قد بدأ. عمر عم سيد البواب ثلاجة الكازوزة التي يضعها في مدخل البيت وبدأ الشغل. الـدنيا حـر والنـاس عطشانة، لا يمر وقت طويل قبل أن تسمع نداء السكان من إحدى الشرفات. عم سيد... يا عم سيد... ثلاثة حاجة ساقعة وحياتـك. عودهم عم سيد ألا يطلبوا شيئًا بعينه، فالموجود يسد. هم أيضـا. تقبلوا ذلك عن طيب خاطر. لا يهم أن تكـون بيبسـي كـولا أو كوكاكولا أو سينالكو. حاجة ساقعة وخلاص.

مشت الأحوال مع عم سيد كما يحدث مع بداية كل صيف. وتجمع هذا المبلغ على جنب. عم سيد يعطي كل مليم يكسبه إلـى الخالة فاطمة فهي الكل في الكل. لا يأخذ إلا ثمن النشوق، الـذي هو مزاجه الوحيد. يخرج العلبة باهتمام من جيب الصديري الذي يرتديه أسفل الجلباب، وهو جالس علـى دكتـه بجـوار ثلاجـة الكازوزة واضعا رجلاً على رجل. يفتحها بتركيز بعـد أن ينقـر على الغطاء بسبابته. يأخذ بالإبهام والسبابة شـمة يمـين وشـمة شمال. يسحب نفسا عميقًا ولا يعطس. يمط بعدها شفته العليا عدة مرات وهو يعاود الاستنشاق، ليتسرب النشوق جيدا في دماغه.

قامت الست عائشة إلى دولابها، بعد مغادرة الخالة فاطمة، لتضع الجنيهات الثلاثة في الظرف الخاص بها.

"بنك شبرا". بادرها مجدي ابنها مداعبا، وهي تستخرج الظرف من دولابها وتدس فيه النقود بعناية بعد فردها. مجدي هو الابن الذكر الوحيد للست عائشة. في الثامنة عشرة من عمره. طالب بكلية الهندسة وتخصص في الهندسة المدنية. اكتفت الست عائشة وفهمي أفندي به وبأختيه نبيلة، التي تكبره بعامين، ونور ذات الثمانية الأعوام. الست عائشة على درجة من الوعي واكتفت بهذا القدر من الأبناء، وخاصة أنها امرأة عاملة. لم تكن حبوب منع الحمل معروفة وقتها، فاستخدمت وسائل منع الحمل المتاحة، وشكرت ربها على ما وهبها من الذرية.

(٩)

"كالوستو كالوستو... تيكانيز... كالا". انطلقت المعزوفـة اليونانية المعتادة منبعثة من بئر السلم. معزوفة صاخبة تصل إلى أسماع البيت كله كلما استقبلت مدام هيلينـا أحـد ضـيوفها مـن اليونانيين. تفتح باب شقتها وتصـدح مرحبـة بصـوتها الفـرح الصداح.

مدام هيلينا هذه حكاية وحدها. يونانية تعيش في شبرا منذ مال لا يتذكره أحد. في منتصف العقد السادس من العمر. امـرأة عجب. مع أنها جدة لجيش من الأحفاد، إلا أنهـا علـى نضـارة تحدسها عليها الصبايا. تتمسك بقدر ملحوظ من جمـال الشـباب ورونقه. ملفوفة القوام، لا هي النحيفة ولا هي بالممتلئة، متماسكة الجسد بلا ترهل. ذوقها بديع في اختيار ملابسها، علـى تواضـع تنوعها، قدر محدود من الثياب لكنه على ذوق رفيع، تفصح عمـا يستحسن من مكامن الجاذبية من قوامها. تهتم بزينتها وتصـفيف شعرها دائما. لم ينطبع الزمن على صفحة وجهها إلا بقدر زهيـد لا يلحظ. يمكن أن تشبهها بنجمات السينما العالميـات، واللائـي يحتفظن برونقهن مع تقدم العمر.

دخل ضيوف مدام هيلينا إلى شقتها المقابلة لشـقة السـت عائشة. اصطفق الباب بنشاط كالعادة، معلنًا عن نهايـة مراسـم الاستقبال وبداية الزيارة.

مدام هيلينا تعيش مع ابنها مسيو أندريا جوانيدس، الـذي يعمل مديرا لمحل جروبي سليمان باشا. لم يتجاوز منتصف العقد الرابع من العمر. يخرج إلى العمل في السابعة صباحا ويعود بعد الواحدة ظهرا بقليل. يأكل لقمة ويستريح قليلاً ثم يعود إلى العمـل مرة أخرى بعد الظهر، لا يعود قبل الحادية عشرة مساء. يواصل أحيانًا العمل طوال النهار ولا يعود إلى البيـت ظهـرا. عطلتـه الأسبوعية يوم الأحد.

ماريا زوجة أندريا تعمل أيضا بمشغل لتفصيل الملابـس. تخرج إلى عملها في التاسعة صباحا وتعود في السادسـة مسـاء. تعتمد على مدام هيلينا في رعاية أنجيلا ابنتها ذات الأعوام السبعة وكوستا الابن الأصغر. أنجيلا تذهب إلى المدرسة اليونانية. تأتي سيارة المدرسة لتأخذها في تمام السابعة فتنزل مع أبيهـا أنـدريا وتعود في الخامسة بعد الظهر فتستقبلها جدتها. كوستا لم يـذهب إلى المدرسة بعد، لكنهم يعدونه للذهاب للمدرسة مع بداية العـام الدراسي الجديد.

فتحت مدام هيلينا باب شقتها بعد قليل لتنادي على ابنتهـا ستاسيا التي تقطن بالدور الأخير. نادت عليها بصـوتها المـنغم

ويبدو أنها أبلغتها بحضور الضيوف لأنها نزلت وانضمت إلـيهم على الفور.

ستاسيا أخت أندريا تصغره بعامين. تسكن مـع زوجهـا نيكوس السكير وأبنائها الثلاثة، جورج وميكيس وبانيس، في الشقة المتواضعة بسطح البيت، والمواجهة لغرف سكن عم سيد البـواب وعائلته. كانت شقتهم عبارة عن مجموعة مـن غـرف السـطح أيضا، مشابهة لغرف عم سيد البواب، لكن نيكوس قام بعمل سقف خفيف للباحة المقابلة للغرف، شكلها كصالة صغيرة وركـب لهـا بابا خشبيا يسترها مع الغرف ومنـافعهم، ليجعـل منهـا شـقة متواضعة للأسرة والأولاد.

خرجت مدام هيلينا إلى الشرفة ونادت على علي ابن عـم سيد البواب. طلبت منه أن يهب سريعا لشراء ربع لوح ثلج مـن حسنين، صاحب محل عصير القصب، الذي يبيع الـثلج أيضـا. أوصته ألا يتأخر حتى تسـتطيع أن٧ تقـدم الليمونـادة المثلجـة للضيوف بعد نهاية ذلك اليوم الحار.

(١٠)

يوم الخميس. استيقظ المهندس إميل فرنسيس بعـد نـوم القيلولة. أحضرت له الست بطة الشاي مع الحليب مـع قطعتـي قراقيش ليغير ريقه. بلل المهندس إميل القـراقيش فـي الشـاي وقضمها بتلذذ وهو يكمل استيقاظه. الله... حلوة قـوي قـراقيش إلين... تمتم وهو يتلمظ القراقيش بلذة واستطابة.

نهض من فراشه بعد أن أجهز على طبق القراقيش. تجشأ بصوت عال وهو يسحب الفوطة من على الشماعة ثم توجه إلـى دورة المياه ليغتسل. غَير جلباب النوم الأبيض وارتـدى بيجامـة مكوية، استبدل بشبشب زنوبة الذي يرتديه بالبيت، الشبشب الجلد الذي يدخره للخروج. اليوم الخميس، موعد لعب الطاولة مع فهمي أفندي عبد الفتاح جاره. فهمي أفندي زوج الست عائشة موظـف بوزارة الصحة. يحب أن يذهب إلى القهوة أحيانًا ليلعب الطاولـة مع الأصدقاء. لا يذهب إلى القهوة يوميا، وخاصة يوم الخمـيس. في الأيام التي لا يخرج فيها، ينادي على المهنـدس إميـل بعـد الاستيقاظ من نوم القيلولة ويقضيان الأمسية في لعـب الطاولـة. يلعبون بقروش قليلة لتحميس اللعب. يوم الخميس هو اليوم المتفق عليه دائما بدون ترتيب.

نزل المهندس إميل في موعده المعتاد إلى شقة جاره فهمي أفندي. رن الجرس ففتحت له صباح الخادمة. ناوشها وهو يـدخل قائلاً "تزدادين حلاوة كل يوم يا بنت الإيه". اعتادت صباح علـى هزار الباشمهندس وما عادت تخجل منه. رحبت السـت عائشـة بالمهندس إميل ودعته للجلوس بغرفة القعاد. قامت لعمل القهوة له ريثما يجيء زوجها فهمي أفندي ليبدءا ماتش الطاولة.

دخل فهمي أفندي مرحبا بجاره وابتسـامة هادئـة علـى وجهه. هو رجل هادئ الطباع على العموم. قليل الكـلام. يظـل المهندس إميل يثرثر طول اللعب وهو يكتفي بالابتسام وبهزيمتـه في معظم الأحوال وهو يقول له مبتسما وبصوت خفيض. عويـل ولسان طويل، العب وبطل دوشة.

تمضي الأمسية هانئة بينهما على صوت توعد المهنـدس إميل بهزيمة فهمي أفندي وسط طرقعات الحجـارة والاتهامـات بِقَرصِ الزهر.

(١١)

في تمام السادسة من مساء الخميس، خرجت كريستينا إلى الشرفة منتظرة مجدي. كريستينا تجيء إلى بيت جدتها هيلنيا قبل خروجها مع مجدي. يوم الخميس هو موعد لقائهما الثابت، أحيانًا يلتقيان في وسط الأسبوع أيضا. يلمحها مجدي تقف في الشـرفة فيشير لها وينزل من فوره. تتبعه كريستينا ويلتقيان على محطـة الأتوبيس بشارع شبرا.

كريستينا حفيدة مدام هيلينا من ابنتها الكبرى إيرين والتي تسكن بشارع جزيرة بدران. تعيش كريستينا مع أمها وزوج أمها عباس الخربوطلي، ابن صاحب محلات الخربوطلي للفراشة. في الحقيقة، ليس مؤكدا إن كانا قـد تزوجـا أم لا. تنتشـر بعـض الشائعات بأنه رفيقها وليس زوجها. في قول آخر إنه تزوجها رغم معارضة الحاج الخربوطلي الكبير لذلك، لكنه رضخ أخيرا أمـام الأمر الواقع. على العموم، إن بعض الظن إثم.

نفد صبر كريستينا عندما لم يطل مجدي مـن نافذتـه أو يظهر في الشرفة. سألت جدتها بصوت جهير وهـي تقـف فـي الشرفة عن أنجيلا، أفادتها جدتها بأنها تلعب مـع نـور، الابنـة الصغرى للست عائشة، كعادتها. نادت كريستينا بصوت مرتفـع "أنجيلا... إلا ذو ". كانت تريد أن تلفت انتباه مجـدي لوجودهـا.

ظهرت أنجيلا ووراءها مجدي. أشار لها أنه سينزل فـي التـو. عرج مجدي على نسيم بائع السجاير لشراء خمس سجاير قبل أن يلتقي بكريستينا على محطة الأتوبيس.

(١٢)

جذبت كريستينا نظر مجدي وتابع زياراتها لجدتها مـدام هيلينا جارتهم. كريستينا في السادسة عشرة من عمرها. لها جاذبية لا تخطئها العين تنبعث من نظراتها الجريئة الصـريحة. تنطبـق عليها أغنية عبد الحليم حافظ "أبو عيون جريئة". عينان واسـعتان يزينهما حاجبان كثيفان مسحوبان. ينسدل شعرها الناعم المسترسل على جيدها الطويل وكتفيها فيضفي عليها سـحرا علـى سـرح. قوامها يميل إلى النحافة الرشيقة.

تعلق مجدي بها. في البداية، كان يسـتدرج أنجـيلا فـي الحديث عنها عندما تأتي إلى شقتهم لتعلب مع نور أخته. يراهـا من شرفتهم المجاورة لشرفة مدام هيلينا. يبادرها التحيـة فتجيبـه بابتسامة عريضة مفعمة بالمعاني. ذات مرة، عـزم أمـره علـى الحديث إليها. انتظر حتى غادرت المنزل بعد زيارة جـدتها ثـم تبعها إلى الطريق. لحق بها عند ناصية شارع جزيرة بدران قبـل أن تنحرف يمينًا متجهة إلى منزلها. حياها بارتباك فردت التحيـة بترحيب أثلج صدره ومنحه الاطمئنان. شجعه رد فعلها الإيجـابي على فتح حديث معها. أكثرت بعدها من زياراتها لجـدتها. كانـت تقضي معظم وقت الزيارة في الشرفة منتظرة ظهـوره. تفتعـل الحديث بصوت يصل إليه. يخرج إليها فور سـماعه لصـوتها.

يتبعها إلى الطريق ويتسامران معا حتى تصل إلى منزلها، إلى أن بدأت لقاءاتهما المنتظمة وقصة حبهما المشترك.

مجدي شخصية متوازنة. يهتم بالدراسة ويقبل على الحياة. ارتباطه الوطيد بخاله شريف مدرس الرياضـيات أفـاده كثيـرا. تعهده منذ الصغر بالرعاية والتوجيه. مجدي محب للاستطلاع منذ صغره. كان يتوجه إلى خاله شريف بأسئلته المتنوعة فيجيبه عليها إجابات تناسب مستوى عمره في كل مرحلة من مراحل طفولتـه. وجهه خاله إلى القراءة والإطلاع مبكرا. كان ينتقي لـه الكتـب المتنوعة من مكتبته العامرة فيلتهمها مجدي ويناقشه فيها. قرأ في الآداب والتاريخ والفلسفة ودربه على الاستماع إلـى الموسـيقى الكلاسيكية منذ صباه المبتكر. كان يصطحبه إلى حفلات الكونسير عندما شب قليلاً. أيقظت فيه كريستينا ولعه بحكايـات الإليـاذة و الأوديسة وأساطير جبل الأوليمب. كان يراها هيلين أحيانًا ويـرى نفسه باريس ابن بريام ملك طروادة. أشعلت بيونايتها في مخيلتـه عبق التاريخ وسحر الشمال الذي يتطلع إلى ارتيـاده والتعـرف عليه. أمنيته أن يسافر إلى أوروبا بعد انتهاء دراسته وأن يعمـل بها ويعيش فيها فترة من حياته ينهل مـن حضـاراتها وفنونهـا ومدنيتها. لا يخل هذا الجانب الخيالي بحال من الأحـوال بأنوثـة كريستينا الطاغية.

(١٣)

حرص صالح على التخفي والانزواء منذ عملته السوداء، يوم شَهر السكني في وجه الجيران جميعا ليتخلص مـن الورطـة التي وضعوا فيها، هو وأخوه سالم مـع البنـت سـميحة. كـان يتلصص أثناء خروجه من شقته. ينظر من ثقب الباب ليتأكد مـن أن باب شقة الست بطة مغلق. إذا كان الباب مفتوحـا كالعـادة، ينتظر مغيظًا حتى يغلق الباب ثم يمرق سريعا علـى الـدرج. لا ينظر يمنة أو يسرة. يكاد يصطدم بمن يلقاه من فرط اللهوجـة. لا يجرؤ على النظر أمامه. يمرق مطأطئ الرأس ويشعر بأن دهـرا قد انقضى قبل أن يغادر البيت ويبتعد عنه في شارع الزهور.

المصيبة كانت في عادة الست بطة المألوفة على فتح باب شقتها معظم الوقت. لأنها صاحبة البيت، فيه تشعر أن البيت كلـه بيته. بالإضافة إلى أن ميولها التسلطية والرقابية، كانت تدفعها إلى ترك باب الشقة مفتوحا معظم الوقت، لتطمئن على أحوال البيـت. السلم نظيف. الأولاد لا يلعبون على السلم. مـن الصـاعد ومـن الهابط ؟. هل يوجد أحد غريب ؟. أي حاجة غلط؟ مكث صـالح ذات مرة أكثر من ساعة قبل أن ينغلق باب الست بطة ليتمكن من النزول. في العودة، كان يحرص على أن يعود متأخرا ما أمكنـه

ذلك ليضمن نوم الست بطة، التي من فضل الله، لا تقـوى علـى السهر وتنام مبكرا.

المهم، مرت الأيام وتباعدت الأحداث. لا يمكن أن يستمر الحال على ذلك، وخاصة أن الناس في شبرا كالأهل ولا يمكن أن يدوم الزعل بينهم إلى ما شاء الله. ولأنه لا يستطيع الإنسـان أن يكون محاذرا على الدوام بكفاءة، فقد وقع المحذور.

في أثناء هرولة صالح على السلم، بعد أن تأكـد مـن أن باب الست بطة مغلق، وعلى بسطة الدور الأول، أمام شقة مـدام هيلينا، فوجئ صالح بالست بطة في موجهته. يادي المصـيبة... اضطرب أيما اضطراب واصطكت ركبتاه ببعضـهما الـبعض. دارت به الدنيا فما لبث أن وجد نفسه ينحني على يد الست بطـة ويقبلها وهو من الاضطراب في غاية. انفجرت الكلمات من فمـه بلا تفكير... سامحيني يا ست بطة... حقك على... أنا في غايـة الخجل والأسف... عيل وغلط... والنبي تسامحيني يا ست بطة...

أخذ يهذي بالكلمات وهو يقبل يدها، بينما تحـاول السـت بطة أن تسحب يدها وهي متأففة في البداية... ما لبثت أن تمتمت بصوت خفيض... أستغفر الله... أستغفر الله... تمكنت من سحب يدها أخيرا... انفجر صالح في البكاء فربتت عليه وهي تقول فـي عتاب :

- أنا قلت ليس هذا هو صالح ابننا.

سحب صالح رأسها وقبلها والدموع تبلل وجهه. قال لهـا في أسى حقيقي:

- المسامح كريم يا ست بطة.

(١٤)

بعد الظهيرة، علا صوت العيال في الشارع وهي تلعـب الكرة الشراب. انفتح شباك شقة مدام أنـوش الأرمنيـة بالـدور الأرضي وأطل منه المسيو هايج أخوهـا الأكبـر وهـو يزعـق ويبرطم لاعنا العيال التي تثير كل هذه الضجة أثناء نوم قيلولتـه. مسيو هايج يعود من عمله لتناول غدائه ثم ينام القيلولة. يعود إلى عمله مرة أخرى بعد الظهر. لا يعرف أحد ماذا يعمل. هو قليـل الكلام ومكفهر دائما. لم يبتسم أبدا، أو للدقة، لم يره أحد مبتسـما منذ سكنوا بالدور الأرضي في عمارة الست بطة.

مدام أنوش أخته ست طيبة. أرملة تقترب مـن السـتين. تصغره ببضعة أعوام وترعى أبناءهـا، زاريـه الطالـب بكليـة الهندسة وأناهيد ابنة السـبعة عشـر عامـا والطالبـة بمـدارس كالوسديان الأرمينة. تجيء إليها سيارة المدرسة الكبيرة والمكتوب عليها مدارس كالوسديان الأرمنية كل صباح أثناء العام الدراسـي وتعود بها متأخرا قبل الغروب. شقة مدام أنوش تقع أسفل مـدام هيلينا وتقابلها شقة أبو مازن الفلسطيني.

ارتدى مسيو هايج ملابسه وغادر البيت قبل موعده بعـد أن أقلقت العيال منامه بلعب الكرة الشراب، والتي شـاطها أحـد العيال شوطة عالية فارتطمت بنافذته الخشبية المغلقة محدثة فرقعة

أيقظته مفزوعا من نومه. أراد مسيو هايج أن يستفيد بالوقت فعرج على دكان عم زين الحلاق ليقص شعره.

عم زين الحلاق رجل بشوش وخفيـف الظـل. تجـاوز الستين من عمره. ممتلئ وله صلعة براقة. يسخر من نفسه ويقول باب النجار مخلع، بسبب صلعته المميزة.

تساءل عم زن بعد أن رحب بمسيو هايج:

- جئت اليوم قبل موعدك يا مسيو هايج.

أجابه مسيو هايج متبرما :

- العيال الشياطين... أيقظوني من النوم بلعب الكرة.

علق عم زين مبتسما:

- روق بالك يا مسيو هايج. فرصة نشـوفك النهـاردا.

ربط عم زين الفوطة حول رقبته وشبكها بالدبوس ثم شرع في قص شعره.

(١٥)

في كل مرة تثور ثائرة مسيو هايج على الأولاد، وبعد أن يخرج من البيت، تنادي مدام أنـوش الصـغار وتعطـيهم مـن البسكويت الذي تصنعه في البيت مع البونبون أو اللبان وتطيـب خاطرهم. مدام أنوش شاطرة في عمل الحلويات بأنواعها.

(١٦)

عند التقاء شارع الزهور بشارع جزيرة بدران، تقف دائما عربة عطية البائع السريح. مرت الحاجة فريدة عليه أثناء عودتها ظهرا من مصلحة الإحصاء والتعـداد بعـد أن قبضـت معـاش المرحوم محمود صدقي سويلم الشهري.

عطية يبيع خضار أو فاكهة الموسم. الخيـار والطمـاطم والبامية والفاصوليا أو البلح الزغلول والبلح الأمهات، كل في وقته وأوانه.

كانت الحاجة فريدة تريد أن تشتري بنفسها البامية التـي سوف تنشفها للشتاء لم تشأ أن ترسل صف صف لشرائها لأنها لن تعرف كيف تنتقي حباية البامية المناسبة للتنشيف. بعد أن اشترت الحاجة فريدة كمية التي تنوي تنشيفها توجهت عائدة إلـى بيتهـا. استبدلت ملابسها وحضرت المائدة للغداء. تناولت الغداء مع سالم ونادية. لم يكن صالح في البيت فهو يتأخر فـي الخـارج عـادة وليست له مواعيد معروفة.

بعد الغداء، أرسلت الحاجة فريدة صف صف إلى محـل إميل الخردواتي لشراء بكرة خيط وإبر. دخلت صف صف إلـى محل إميل الخردواتي الذي كان يطالع الجريدة باهتمـام كعادتـه. قالت له بصوتها الحاد كأنها تتشاجر معه كعادتها في البرطمة :

- ستي تريد بكرة خيط وبر... هيا بسرعة. نظر إليهـا مستاء وهو يضع الجريدة ويـنهض بتـؤدة. سـألها متأففًا :

- ما لون الخيط؟

أجابته بنفاد صبر:

- لا أعرف.

هز رأسه وقال لها وهو يشبك إبهاميه بحمالتي سرواله :

- وكيف أعرف أنا يا فالحة ؟

أسعفها ذكاؤها المحدود أن تجيبه :

- ستي تريدها للبامية الناشفة.

أعطاها إميل بكرة خيط كيفما اتفق وورقة إبر ثم عاد إلى ركنه ليواصل تفلية الجريدة.

عادت صف صف بالخيط والإبرة وجلست بجوار الحجة فريدة تساعدها في تجهيز البامية للتنشيف. أخذت الحاجة فريـدة تُنَضد حبات البامية بالإبرة في الخيط مشكلة حلقات واسعة لتعليقها بالشرفة وتركها حتى تنشف لاستخدامها في الشتاء.

(١٧)

شبرا كغيرها من الأحياء في المدن والبلدان التـي علـى ظهر المعمورة، مليئة بقصص الحب. مررنا بقصة حب مجـدي وكريستينا، وها هي قصة حب أخرى تترعرع مثل نظيراتها.

استعد ميشيل ابن الست بطة الوحيـد للخـروج بحماسـة متألقة. أخذ دشًا سريعا وارتدى ملابسه بعد أن عطر نفسه جيـدا. عرج على محل عم جاد للأحذية لتلميع حذائه. محل عم جاد يقـع بأول شارع جزيرة بدران. يجلس عم جـاد الـذي يقتـرب مـن السبعين من العمر خلف الكيس على يمين المدخل مرتديا جلبابـه النظيف وفوقه الجاكت في الشتاء. يضـع نظارتـه الطبيـة ذات الإطار المعدني ويرتدي طربوشه الأنيق. تنبعـث منـه السـكينة وراحة البال. على يسار المحل، تعلو ثلاثة كراسي للتلميع فـوق منصة يجلس خلفها ثلاثة رجال. تغطي مرآة كبيرة الحائط الأيسر أمام الجالسين لتلميع الأحذية فتعطي المحل اتساعا. ترى في عمق المحل رجلاً يجلس منكبا على تصليح الأحذية للزبائن وهو يحتفظ بالمسامير في فمه لتسعفه في الشغل.

دخل ميشيل إلى المحل وجلس علـى الكرسـي الأوسـط الخالي. استعجل الرجل في تلميع حذائه وهو يراجع مظهره فـي

المرآة أمامه. انطلق بعدها إلى نادي الأرمن بشارع عماد الـدين. موعد لقائه مع أناهيد ابنة مدام أنوش.

فتاة كالنسمة. ناعمة خجول. هادئة الجمال الذي ينبعث من روجها أكثر مما يبعث من ملامحها.

هلت أناهيد في الموعد. عبرت الطريـق لتلقـى ميشـيل المنتظر على الرصيف المقابل. تشابكت الأيدي اشتياقًا وارتسمت البسمة على وجهيهما. يوم لقائهما الأسبوعي، مساء الخميس.

ميشيل منظم في حياته إلى درجة تبعث على الملل. يقابل أناهيد الخميس مساء. يذهب إلى السينما مساء الجمعـة بعـد أن يكون قد أمضى النهار في المذاكرة يتعشى ساندويتشات كبدة ومخ بعد السينما. لا يخرج وسط الأسبوع. تعود علـى النظـام مـن مدارس الفرير التي نشأ بها. يذهب يوم الأحد صباحا إلى الكنيسة ويشعل شمعة للعذراء. يواظب على سماع برنـامج مـا يطلبـه المستمعون بالبرنامج الأوروبي المعروف بالـ Request. يحفظ الأغاني الأجنبية ويرددها في الحمام. ليس مدللاً مع أنـه الابـن الوحيد.

توجها معا إلى محل روي بشارع سليمان باشـا، تنـاولا وجبة سريعة ثم انتقلا إلى كازينو قصر النيل حيث أمضـيا بقيـة اللقاء قبل أن يتوجها عائدين إلى شبرا. يفترقـان عنـد محطـة الأتوبيس. تسبقه أناهيد في العودة للمنزل بينما يتلكأ هـو لـبعض

الوقت يمر على نسيم لشراء السجاير، يقف معه قليلاً حتى يتأكـد من وصول أناهيد قبل أن يعود إلى المنزل، يتناقشان فـي أمـور الدنيا، نسيم يقف بالمحل بمفرده طيلة النهار مما يشعره بالوحـدة والملل. يتشبث بأي حديث مع من يأنسهم من أهل الحـي. كثيـر الكلام، يخرج من موضوع ليدخل في آخر بينما يتحسس شـعره المصفف إلى الخلف بالفازلين من آن لآخر بحركة لا إرادية.

(١٨)

عم قناوي الفكهاني شيخ بلد بصحيح. يقف بقامته الفارهة ملء هدومه وسط دكانه. ترتسم الابتسامة السمحة على صحفة وجهه فتزيده بهاء. نزح من الصعيد منذ مدة طويلة وانتقى من المدينة تمدنها المضيء مع احتفاظه بأصالة صعيديته.

مرت الست عائشة على محل عم قناوي لشراء الفاكهة في طريق عودتها من الوزارة. اليوم هو آخر يوم عمل قبل بداية شهر الإجازة. عليها أن تحزم الليلة حقائب السفر وقُفةَ أدوات المطبخ استعدادا للسفر إلى أبي قير صباح الغد، أول أيام شهر سبتمبر.

اعتادت أسرة فهمي أفندي عبد الفتاح قضاء إجازتها السنوية في شهر سبتمبر من كل عام بمصيف أبي قير. اختارت الأسرة شهر سبتمبر لعدة أسباب لا تنفصل عن بعضها البعض. في مقدمة هذه الأسباب، أن إيجارات الشقق في شهر سبتمبر تكون متهاودة بالمقارنة بمثيلاتها في شهري يوليو وأغسطس، ذروة الموسم. كان شهر سبتمبر هو الشهر المناسب لمصيف الموظفين، أو قل لو شئت، مصيف الطبقة المتوسطة التي كانت. تُحوش الست عائشة خمسة جنيهات كل شهر طوال العام وتضعهم في

ظرف خاص تكتب عليه "مصروفات المصيف" تضعه في دولابها مع ظروف التحويش الأخرى للخالة فاطمة والجيران.

وشهر سبتمبر أيضا هو شهر السمان. تهل أسرابه طائرة منهكة من الشمال، فتتلقفها شباك الصيد بيسر، ويسيل لها لعـاب الأكالة.

وشهر سبتمبر هو شهر السردين، ما قبل بناء السد العالي، يجذب طمي النيل أسراب السردين، فتسعى إليه حيث تنتظرهـا شباك الصيادين، المتلهفة على رزق العيال. يعمر بها سوق السمك فجرا، ويرد المصطافون في الصباح يسعون إلى شروة سـردين يفوزون بها من أحد مزادات البائعين، في سوق السمك القريب من البحر الميت.

شهر عامر بالمزايا، شقق رخيصة وتكـاليف متهـاودة، سمان شهي وسردين لذيذ، بالإضافة إلى جوه السـاحر وانعـدام رطوبة الصيف لهواء مشارف الخريف.

أما مصيف أبي قير، فهو مصيف يجمـع بـين القريـة والمصيف. لم يصله كورنيش إسماعيل باش صدقي، فلا ترى بها مركبات ولا تسمع له ضجيجاً، اللهم إلا صوت الكارتة التي تجره الأحصنة، وفرقعة السوط في الهواء، مع صوت الحـوذي الـذي يزقزقه بمهارة من بين فكيه، ما بين الحا... والشـي، ومناجاتـه

لحصانه الذي يطلق عليه أمساء فنانيه ونجومه المحبوبين، فهـ ذه
شادية والأخرى صباح أو مديحة.

(١٩)

نهضت الست عائشة في الفجر. حضرت الشاي بالحليـب وأيقظت فهمي أفندي والأولاد. عاونتها صباح في تروي المطـبخ سريعاً قبل الرحيل. جهزت ساندويتشات البيض والجـبن لتنـاول الإفطار في القطار.

قطار الساعة الثامنة صباحاً المسافر غـل الإسـكندرية. الاكسبريس، يقطع المسافة من القاهرة إلى الإسكندرية في حوالي أربع ساعات، إذا لم تعوقه إصلاحات في الطريق.

نزلت الأسرة في تمام السابعة ومعهـا الحقائـب والقفـة الكبيرة التي تحتوي على أدوات المطـبخ، الحلـل والكسـرولات والبرطمانات الكبيرة والصغيرة التي تحتوي على السمن البلـدي والمربة، والتي تتفنن الست عائشة في حمايتها من الكسـر أثنـاء النقل بتحويطها جيدا بالفوط والملايات. ذهـب مجـدي ليحضـر سيارة تاكسي بينما انتظرت الأسرة بجوار الحقائب أمام المنـزل. جاء مجدي بالتاكسي فتم تحميل الحقائب وتوجهت الأسـرة إلـى محطة السكك بميدان باب الحديد. انتظم فهمي أفندي في طـابور التذاكر وقام بشراء ست تذاكر بالدرجة الثانية. وقفوا جميعا علـى رصيف قطار الإسكندرية في انتظار وصوله من المخـزن بينمـا ذهب فهمي أفندي لشراء الجريدة أثناء دخول القطار متئـدا إلـى

الرصيف. صعدت الأسرة إلى القطار واختارت ديوانـا شـاغرا. شرعت في وضع الحقائب على الأرفف العلوية، أخرجـت بعـده الست عائشة لفة الساندويتشات وتناولـت الأسـرة ساندويتشـات البيض بالجبن التي تشتهر بها الست عائشة في رحلات السفر.

انطلق القطار في طريقه إلى الإسكندرية بـين الغيطـان والمزارع الممتدة على جانبيه منذ أيام الفالح الفصيح. في محطـة سيدي جابر، نزلت الأسرة لتستقل قطار أبي قير. وصل القطـار إلى محطة أبي قير حوالي الثانية بعد الظهـر. استـقلت الأسـرة كارتة مرسي الذي خف للترحيب بالأسرة عندما لمحها تهل مـن باب المحطة.

"بعودة الأيام... لكِ وحشة يا ست عائشة... كل سنة وأنت طيب يا فهمي أفندي... ما أخبار الدراسة يا سي مجدي... ما شاء الله نور أصبحت عروسة... " انطلقت كلمات الترحيب الفرحة من قلب مرسي وهو يحمل الحقائب ويرصها في الكارتة. انحشـرت الأسرة مع الحقائب في الكارتّة، بينما جلس مجدي بجوار مرسـي وهو يوقد الحصان بنشاط.

- اطلع بنا على شارع الأقصر، بيت مدم اشكنازي يـا مرسي. وجهته الست عائشة وهو منهمك في الحديث مع مجدي.

(٢٠)

كانت الست عائشة قد مرت على مدام راشيل اشـكنازي بشارع البعثة قبل سفرها إلى أبي قير لقضاء فصل الصيف. أكدت لها حضورهم إلى أبي قير في شهر سبتمبر كالمعتاد لحجز الشقة. مدام راشيل تسافر كل عام في أواخر شهر مايو، هـي والأولاد، لتعد البيت الذي تملكه في أبي قيـر للمصـطافين. بيـت مـدام اشكنازي مكون من دور أرضي يحتوي على شقة واحدة لها شرفة كبيرة تطل على البحر مباشرة، يعلوها، طابقان، يحتوي كل طابق على شقتين صغيرتين.

تسافر مدام راشيل قبل بداية موسم الاصـطياف لإجـراء أعمال الصيانة السنوية اللازمة للبيت. تشـرف علـى إصـلاح الشبابيك الخشبية ودهان المفصلات الصـدئة، تراجـع السـباكة المسدودة والإنارة، تستبدل اللمبات المحروقة وتغير جلود الحنفيات التي نشفت بسبب عدم الاستعمال.

مدام اشكنازي تكافح من أجل تربية الأولاد بعـد وفـاة زوجها مسيو حاييم اشكنازي المفاجئة بالسكتة القلبية قبل خمسـة أعوام. تدخر مكافأته التي حصل عليه من محلات شيكوريل، التي كان يعمل بها في وظيفة محترمة وتصرف منها على الأولاد، مع ما يدره لها بيت أبي قير خلال شهور الصيف.

استقبلت مدام راشيل الست عائشة بالقبلات والأحضـان. عشرة عمر. الست عائشة وعائلتها يحبون السـكن ببيـت مـدام اشكنازي كل عام، خاصة بالدور الأرضي ذي الشـرفة الرحبـة المواجهة للبحر، والتي تجلس فيها الست عائشة في بداية النهـار، مترقبة الباعة الجائلين وهم يمرون ببضائعهم أمامهـا. يعرفونهـا وتعرفهم. تشتري الفراخ والبط والحمام وتربيهم في ركن الحمام، لا تبيعهم بمعنى الكلمة، لكنها تُغير مرعاهم كما تقول، قبل الطهو بعدة أيام. تزغط صباح البط والحمام وتلقي بقايا الأكل للفراخ.

دفعت الست عائشة الإيجار لمدام راشيل، ثلاثين جنيهـا، وبدأت هي ونبيلة وصباح في تنظيف البيت وفتح الحقائـب. تـم ترتيب الشقة، بينما انطلقت نور إلى الشـاطئ، بعـد أن ارتـدت المايوه وأخذت الجردل والجاروف معها. لا يصبر الأطفال علـى رؤية شاطئ البحر دون أن ينطلقوا كالسهم، مبتـدئين إجـازتهم الصيفية دون إبطاء.

جلس فهمي أفندي بالشرفة يتصفح الجريدة ريثما تنتهـي الست عائشة من ترتيب البيت وتحضير الغداء، بينما صعد مجدي إلى شقة مدام اشكنازي لتحية جابي صديقه، الابن الأكبـر لمـدام اشكنازي، وأخويه سامي وسونيا.

(٢١)

بعد نوم القيلولة والراحة من عناء السفر. توجهت الأسرة إلى السوق للتبضع وشراء ما يلزمها، كعادتها دائما يوم الوصول إلى أبي قير من كل عام. قامت الست عائشة بشراء طلباتها مـن محل عم محمد البقال، والجبن والبيض والحلاوة الشعر، عرجـت بعد ذلك إلى الفرن لشراء الخبز الطازج. انتهت الجولة بمستودع المعلم يحيى أبو عيادة للثلج والكازوزة. قام المعلم يحيى باستقبال الأسرة التي يعرفها منذ سنوات. استضافهم على شرب الكـازوزة المثلجة بثلاجة الثلج، والتي لا مثيل لبرودتها وإنعاشها. عادوا بعد ذلك إلى المنزل وتناولوا عشاءهم.

أمضى مجدي سهرته على الشـاطئ مـع أبنـاء مـدام اشكنازي، جابي صديقه الطالب بكلية طب الأسنان، والذي نجـح وانتقل إلى السنة النهائية، وسامي الطالب بالفرير والقريـب إلـى قلب مجدي رغم أنه يصغره بعامين. انضمت إليهم أختهما سونيا، سونيا فتاة مكتملة الأنوثة، في السابعة عشرة من عمرها، ملفوفـة القوام في رشاقة. تطلق شعرها الطويل الأشقر الناعم مسترسـلاً على ظهرها في تيه ودلال. لا تخفي إعجابها بمجدي الذي يلاحظ نظراتها المتسللة بين الحين والآخر ترقبه فيشعر بالزهو. مجـدي يحب الشعر الطويل المسترسل مثل شعر كريستينا.

(٢٢)

... سعيد

مضى أسبوع كامل منذ وصولنا إلى أبي قير. لم أسـتطع النجاح في التوقف عن تذكرك في كل لحظة... رغم أنني أحاول ذلك جاهدة... حلوة دي... أسرح بفكري وأتخيلك تجلس بجواري على الشاطئ. أضع رأسي على كتفك وأغفو. أتخيلنا معا ونحـن ننزل إلى البحر للاستحمام، نسبح ونلعب ونحكي. لكم أحتاج إلـى وجودك معي دائما، لا أدري كيف سأحتمل بقية الإجـازة دون أن أراك.

أتشوق لرسالة منك. اكتب لي فورا كما اعتدنا باسم هناء على الظرف. كيف حال آمال وماما. أرجـو أن تكونـوا جميعـا بخير. أقضي الوقت في استجمام تام. أقرأ أحيانًا عندما أسـتطيع التركيز. مجدي أحضر معه الكثير من الكتب والروايات كعادتـه. استعرت منه رواية نانا لإميل زولا.

لا توجد أحداث عندي لأحكيها لك. بعد مساعدة ماما فـي ترتيب البيت والطهي صباحا ننزل إلى البلاج. تنضم إلينـا مـدام إشكنازي وأحيانًا سونيا ابنتها. بابا يلعب الطاولة مـع أصـدقائه ومجدي يقضي وقته بين القراءة والأصدقاء. في المسـاء نـذهب

أحيانًا إلى السوق. حياة هادئة بطيئة الإيقاع. ينقصها فقط وجودك معي. أنتظر خطابك بشوق بالغ. لك مني ألف قبلة وإلى اللقاء.

نبيلة

٩/٨

وضعت نبيلة الخطاب في الظرف وأرسلته على عنـوان عمل سعيد بشركة لوفتهانزا للطيران بشارع سليمان باشا.

(٢٣)

سعيد رمزي، الابن الأكبر للست عايدة رزق الله، والتـي تسكن بالدور الثالث في بيت الست بطة بشارع الزهور، فوق شقة الحاجة فريدة. الست عايدة تعيش مع ابنها الوحيد سعيد، والـذي يعمل بشركة لوفتهانزا في وظيفة محترمة، وابنتها آمال، مدرسـة الموسيقى بمدرسة السيدة حنيفة السلحدار بشارع زنانيري. تـوفي زوجها المرحوم رمزي أفندي بطرس منذ مدة طويلـة. تكفلـت الست عايدة بتنشئة الأولاد وتعليمهم معتمدة على معاش زوجهـا الضئيل وعلى دخلها الإضافي من الخياطة للمعارف والجيـران. الست عايدة خياطة ماهرة وتعلمت يدأيها خياطة فساتين السـهرة لمناسبات الخطوبة والأفراح لزبائنهـا. طبعـا فسـاتين سـهرة متواضعة تناسب احتياجات الأسر المتوسطة وليست مثل فسـاتين سهرة هذه الأيام التي تظهر بها سيدات المجتمع الراقي ونجمـات السينما في المجلات.

تنفست الست عايدة الصعداء عندما أنهى سـعيد تعليمـه العالي بكلية التجارة. توسط له أحد زبائنها المحترمين في العمـل كمحاسب بشركة لوفتهانزا الألمانية، والتي تدفع مرتبات محترمـة لموظفيها. تخرجت آمال ابنتها بعد أخيها بعام من معهد الموسيقى العربية وتم تعيينها بمدرسة السيدة حنيفة مدرسة للموسيقى.

انتعشت أحوال الأسرة وبدأت الست عايدة فـي تخفيـف العمل بالاعتذار لبعض الزبائن الذين لا ترتاح إليهم. كانت فيمـا مضى تضطر لقبول جميع الزبائن للضرورة.

الست عايدة، مع جديتها في الكفاح لتربية أبنائها، صاحبة مزاج. تدخن بشراهة وتهتم بتحميص وطحن وتحويج البن بيديها، مسئولية الأبناء المبكرة صبغت شخصيتها بالقوة والمسئولية. تحب لعب الكونكان مع جارتها الست ماري خوري التي تسكن بالشـقة المقابلة لها. تجتمع شلة الكونكان بشقة الست ماري خوري ويبـدأ اللعب. تحضر سيلفيا أخت الست ماري أولاً ثـم تتبعهـا إيفيـت صديقتهم التي تسكن بشارع جزيرة بدران وأنطوانيت التي تعيش مع أمها المسنة بمفردهما بشارع السالمي.

(٢٤)

نشأت قصة الحب بين نبيلة ابنة الست عائشة وسعيد ابـن الست عايدة رزق الله منذ أكثر من ثلاث سـنوات. قصـة حـب حميمة تمر بأطوار متتابعة من الوصل والافتراق. يتفقـان علـى الافتراق، بسبب الظروف، ثم لا تلبث نبيلة أن تنهار فتتصل بسعيد تليفونيا وتطلب لقاءه فورا. أحيانًا كانت تمر عليه بالشـركة، دون سابق إنذار، وتنتظره حتى نهاية مواعيد العمل، ثم يخرجان معـا ويمضيان الساعات الطوال، اشتياقًا بعد طـول معانـاة الفـراق. يحدث هذا دائما ويتكرر مثل حكاية صخرة سيزيف.

ما العمل؟... نبيلة مسلمة وسعيد قبطي. مأزق لا يحسدان عليه. يدفعهما التعقل ونكران الذات إلى الاتفاق على الافتراق، من أجل أسرتيهما، ثم لا يلبثان أن يضعفا كآدميين يخفق قلبهما بحـب عميق ويتطلعان إلى الارتباط وتكوين أسرة دافئة تقوم على التفهم والالتقاء الوجداني والعقلي والنفسي. المشكلة تملك عليها تفكيرهما وتكدر صفو حياتهما. يتبادلان المواقف دائما بلا حرج بعـد كـل انقطاع في العلاقة، فكما تضعف نبيلة أحيانًا ولا تقوى على تنفيـذ قرارهما بالافتراق، فتتصل به أو تمر عليه بالشركة، كذلك يفعـل سيعد أحيانًا كثيرة، فتنهار مقاومته ويقرر المرور عليها بالكليـة. يعرف جدول محاضراتها بالكلية ويحتفظ بنسخة منه. نبيلة طالبـة

بكلية الآداب وتدرس الأدب الفرنسي. سعيد أيضا يجيد الفرنسية، حيث درس بمدارس الفرير بشارع البعثة.

(٢٥)

- عروستي ؟
- تراقص المياه والهواء.
- عروستي ؟
- صديقة للسندباد.
- عروستي ؟
- تعيش في البحار.
- عروستي ؟
- تجول بالأنهار
- عروستي؟
- تغازل النسيم.
- عروستي؟
- وتمقت الرياح.
- عروستي؟

يتحلق الشباب على شاطئ البحر في ضوء القمر والنجوم ترصع السماء في جلال مهيب. تحرص سـونيا علـى الجلـوس بجوار مجدي تحتويهما ظلمة الليل، تـتلامس الأكـف والجميـع منهمكون في لعبة عروستي. تتشابكان ثم تنفلتان. يتواصل حديث الكفين. يداعب ساقها بأنامله. تستسلم له في دلال هامس. تبدأ في

مداعبته هي أيضا تحت ستار الظلمة. تلهبه أنوثتها فينتفض مارد الرغبة فيه.

يخرج إلى الشرفة في صباح اليوم التالي. ينظـر لأعلـى حيث شرفتها. يراها واقفة كما لو كانت فـي انتظـاره، تـداعب النسمات شعرها الأشقر الناعم فيتطاير حول وجهها. يبعث إليهـا بتحية الصباح. تسأله، ألن تنزل إلى البلاج، يتحقق النداء. هيا بنا. يقولها وهو يستدير مغادرا الشرفة. يلقاها على الدرج. يحتضـنها في قبلة جريئة غجرية مختلسة. تستسلم.

(٢٦)

- ألا تنوي الذهاب إلى إسرائيل بعد التخرج يا جابي؟

كان مجدي يمتلك ذهنًا باحثًا مكتشفًا. نهما إلـى التعـرف على الحياة. تحركه رغبة دءوب في الكشف والاستنارة. ذا عقلية محايدة لا تحدها المسلمات المسبقة.

كان يحلم بالسفر إلى الخارج ورؤية العالم. يتطلع إلى أن يرتبط بكريستينا ثم يسافرا معا ليجوبا العالم. كان يريد أن يسـافر ويرى ويحيا. يريد أن يعب من الدنيا قدر طاقته. يعيش الحضارة والمدنية ويتنفس نفحاتهما.

جلسا يتسامران، هو وجابي إشكنازي على شاطئ البحـر بعد الظهيرة. أجابه جابي:

- لا أفكر في السفر إلى إسرائيل. سأذهب إلى فرنسـا حيث يقيم عمي.
- وهل ستعمل بباريس؟
- أتمنى إكمال دراستي هناك. أنت تعلم أن الدراسـات العليا ضرورية للطبيب.
- وكيف ستدبر مصرفات الدراسة؟
- سأراسل بعض الجامعات هناك للحصول على منحة.
- وإذا لم توفق؟

- المستقبل بيد الله.
- اترك لي عنوان عمك بباريس قبل أن تسـافر، فأنـا أفكر أيضا في السفر للخارج بعد البكالوريوس.
- هل تفكر في الدراسة ؟
- لا، سوف أحاول البحث عن عمل.
- لماذا لا تقدم للهجرة؟
- أنا لا أصلح للهجرة. أريد أن أحيـا بالخـارج لعـدة سنوات ثم أعود إلى مصر .
- العمل صعب بأوروبا.

جلسا يتسامران معا، بينما تلعب أمامها نور وأصـدقاؤها من الأطفال الذين تعرفت عليهم على البلاج. جاءت الست عائشة ومدام إشكنازي بعد قليل وانضمتا إليهما تحت الشمسـية. جلسـتا تتسامران وتتسليان بقزقزة اللب.

(٢٧)

استيقظ فهمي أفندي مبكرا ليذهب إلى سوق السمك لشراء سردين. أوصته مدام راشيل بعمل حسابها معهم في السردين. من عادة الناس في أبي قير أن يشتركوا معا في شراء السردين وتقسيمه بينهم، ذلك لأن الصيادين يبيعون ما جاد عليهم به البحر في مزادات بسوق السمك تكون الكميات عادة أكثر من احتياجات أسرة واحدة، فتشترك الأسر في اقتسام شروة السردين التي يفوزون بها من المزاد. كان الأستاذ إدوار، والذي يسكن بمنزل الست أم حسني المقابل، قد طلب أيضا من فهمي أفندي، أثناء لعبهما الطاولة في المساء، عمل حسابه هو أيضا في السردين.

وفق فهمي أفندي في شروة سردين مناسبة. عرج على الفرن لشواء السردين وعاد ليشارك الأسرة في طعام الإفطار. أعطى السردين للست عائشة لتقسمه على الأسر الثلاث. أوصاها بالعدل وهو يعلم جيدا أنها لا تحتاج إلى توصية.

(٢٨)

قاربت إجازة المصيف على الانتهاء. طالـت السـهرات على شاطئ البحر في الأمسيات. تزايدت مداعبات سونيا ومجدي تحت ستار الليل. تعددت قبلات الدرج. تواعدا على اللقـاء فـي اليوم الأخير لمجدي في أبي قير. تلاقيا أمام مطعم زفريون بآخر المصيف الشرقي. سارا معا على الشاطئ الصخري المهجور في تلك الناحية في اتجاه طابية نابليون. اختليا ببعضهما البعض وراح الجسدان يفوران معا بالرغبة والمتعة. جاهد مجدي في التمسـك بقدر من ضبط النفس أمام استلام سونيا الملتهب.

(٢٩)

كما أن لك شيء نهاية. طوت إجازة المصيف صـفحاتها الأخيرة. شعر الجميع بمزيج من الأسى والشوق. أسـى لنهايـة الإجازة بأيامها الوادعة الهانئة خالية البال، أسى للفراق، وشـوق إلى العودة إلى البيت والأصدقاء وانتظام الحياة. شذ عن الجميـع نبيلة ومجدي اللذين كانا يتعجلان العودة للقاهرة. نبيلـة تتحـرق شوقًا لرؤية سعيد والارتماء في أحضانه، ومجدي يتطلـع للقائـه بكريستينا. رغم الشقاوة مع سونيا، إلا أن عاطفة الحب تظل لهـا خصوصية تنفرد بها عن الغربة العابرة والانفعال الآني. ستتباعد ذكرى سونيا وبهائها، أما شعوره تجاه كريستينا، فهـو المهـيمن المتمكن، هو الذي يسيطر عليه وبأسره بازدياده الدائم.

(٣٠)

اتصلت نبيلة بسعيد بالشركة فـور عودتهـا. تواعـدت أصواتهما المرتجفة على اللقاء بكافتيريا نايـت آنـد داي بفنـدق سميراميس بعد انتهاء موعد العمل. كان سعيد يترقب تلك المكالمة بصبر نافد. هو يعلم تاريخ عودتها. ظل يحسب السـاعات منـذ موعد قيام قطارها من الإسكندرية حتى وصوله للقاهرة. الوقـت الذي ستستغرقه في الوصول من محطة مصر إلى البيت بشبرا... متى ستصله المكالمة بالضبط؟. في الموعد المحدد، بـدأ الـزمن يتوقف عن ناموسه... أخذ ينظر إلى ساعته بعصبية... كان مـن المفروض أن تتصل الآن... ماذا حدث؟... هل تأخر القطـار... هل حدثت حادثة للقطار؟... لا لا... افتكر خير... يارب.

مرت الدقائق عصيبة على سعيد وهو يذرع الغرفة جيئـة وذهابا. لا يستطيع أن يفعل أي شيء. فقد تركيزه. نفد زاد صبره وانفجر حنينه المكبوت طيلة الشهر، والذي أججته رسـائل نبيلـة إليه. مضى نصف ساعة. هو يعرف نبيلة جيدا. ستتصل به لحظة وصولها. تلكأت عقارب الساعة في دورانها مسـتفزة أعصـاب سيعد إلى أقصى حد. جرب الاتصال بمنزلها. سمع رنين التليفون الرتيب. لا أحد بالمنزل. لم تصل بعد. عندما سمع صوتها علـى

الهاتف سألها ملهوفًا بصوت يرتجف عن سبب التأخير. أفادته بأن القطار تعطل قبل بنها بسبب إصلاحات في الخط الحديدي.

(٣١)

دخلت نبيلة إلى كافتيريا نايت آند داي وجالـت المكـان بعيون زائغة لا تركز ولا تستوعب ما ترى. لمحها سعيد وهـي تبحث عنه فرفع يده عاليا ملوحا لها وهو ينهض من مقعده. تبينته بعد لحظات فاندفعت إليه بقوة دون أن تنتبه إلى من حولها فكادت تصدم بالجرسون. تلاقت الأكف والنظرات والبسمات في توحـد آسر. انطلقت الكلمات كالسيل تُعبر عن الاشتياق والافتقاد والحنين والدهشة. لقاء مزلزل بعد طول غياب. قال لها سعيد برجاء، لـن أستطيع الاحتمال بعد ذلك... أرجوك يا نبيلة... لا تفعليهـا مـرة أخرى... لا أدري كيف؟... لا يجب أن نفترق مثل هـذه المـدة الطويلة... سأحضر إلى الإسكندرية ونتقابل هناك... لابد أن نجد حلاً...

جلسا يثرثران في حماسة وسرعة، يسـألان ويسـتمعان ويضحكان في آن واحد... سيل من الحكايات والأخبار والنـوادر والتفاصيل الصغيرة والاستئناس الدافئ.

نهضا للعودة إلى المنزل بعد أن سرقهما الوقت. اسـتقلا سيارة تاكسي عائدين إلى شبرا. نزلا بأول شارع الزهور بعيـدا عن البيت. تمهل سعيد عند نسيم لشراء السجاير حتى تسبقه نبيلة إلى المنزل. تهادى متمهلاً في طريقه عائدا ونسـمات مشـارف

الخريف تلفح وجهه فتنعشه، بينما ينادي عطية البائع السريح على البلح الأمهات بصوته الرنان :

"يا اللي زي اللوز يا بلح"

(٣٢)

صعد مجدي إلى ريمون ابن الست ماري خوري بالـدور الثالث. رورو زميل مجدي بكلية الهندسة. أراد مجدي أن ينـاقش رورو في بعض مسائل علم الإنشـاءات التـي واجهتـه بعـض الصعوبات بها. كان موعد تقديم التقرير قد حان ويجب أن ينتهيـا منه تمهيدا لتنقيحه وتقديمه في اليوم التـالي. مجـدي وريمـون وزاريه ابن مدام أنوش زملاء بقسم الهندسة المدنية، لكن زاريـه يسبقهما بعام في الدراسة.

كانت الشلة الكونكان مجتمعة كالعادة بمنزل الست مـاري خوري، جارتها الست عايدة رزق الله وأختها سيلفيا وأنطوانيـت. يجتمعن يوميا تقريبا للتسلية ولعب الكونكان بعد أن ينتهـين مـن شغل البيت والطهي. يلعبن "كونكان الأربعة عشر كـارت" فـي معظم الأحيان وعندما تكون الأشياء معدن والجيب عامر قليلاً، أو عندما يستبد بإحداهن وجد المقامرة، يتحولن إلى "كونكان العشـرة كارت " بالفلوس. الست ماري ماهرة في "كونكان العشرة كارت". مقامرة حريفة وتكسبهن في معظم الأحيان. زربونة وتصيح فـيهم آمرة أثناء اللعب "خيبتكم تقيلة... تعلموا اللعب في الأول"، تصيح فيها عايدة بعصبية... "آخر بارتيتة عشرة كارت".

مدام ماري خوري مسيحية مارونية من أصـل لبنـاني. نزحت أسرتها من لبنان منذ جيلين. انقطعت صـلتهم بلبنـان ولا تعرف سوى أن أصل العائلة من جونيه. حصـل الآبـاء علـى الجنسية المصرية وتزوجت من المرحوم ألفريد طنوس أنجبت منه ريمون وجيهان ابنة الخمسة عشر ربيعا.

توفي المرحوم ألفريد طنوس بعد ولادة جيهـان بعـامين وترك لها بيتًا صغيرا بالفجالة تعيش من ريعه، بالإضـافة إلـى معاشة الصغير من شركة كفر الزيات للزيوت والصابون والكتان التي كان يعمل بها. تركت كفر الزيات بعد وفاته وانتقلت للإقامة في القاهرة بالقرب من أختها سيلفيا التي تسـكن بشـارع قطـة القريب منها وزوجها بيير شماس، صاحب محل الساعات بشارع شبرا.

دخل مجدي إلى غرفة رورو بعد أن ألقى التحية علـيهم ووقف معهن قليلاً يتابع حماستهن في اللعب. مجدي يعرفهم جميعا ويشاركهن أحيانًا هو ورورو في لعب الكونكان.

قامت ماري لتحضير العشاء لهن أثناء فترة الاستراحة من اللعب. نادت على زينب ابنة عم سيد البواب للذهاب إلـى قلـدس البقال لشراء الجبن والمرتدلة للعشاء أحضرت زجاجـات البيـرة المثلجة والأكواب. صاحت سيلفيا أختها بصوتها المرتفع دائمـا، مما يجعلهن يتهمنها بالصمم، صاحت معترضة بأنا لا تريد البيرة

المثلجة نظار لشعورها باحتقان في حقها. أحضرت لهـا مـاري زجاجة نبيذ أحمر، تحتفظ دائما بزجاجة نبيذ في البيت لمثل تلـك المفاجآت من أختها سيلفيا، والتي اعتادت عليه سـيلفيا عرضـة للإصابة بنزلات البرد، خاصة عندما يقترب فصل الشتاء.

(٣٣)

علا صوت الصراخ الممتزج بالبكاء الصياح والاستغاثات من شقة ستاسيا ابنة مدام هيلينا بسطح البيت. شجار عنيف يتكرر دائم بين ستاسيا وزوجها نيكوس. يتعدى على زوجته كثيرا بالضرب أمام الأولاد وهو يرطم باليونانية. تحكي بعدها أنه شتمها أقذع الشتائم ولم يتحشم في وجود الأولاد.

خرج نيكوس ثائرا وصفق باب الشقة بعنف. انفع نازلاً الدرج وهو يواصل برطمته اليونانية غير المفهومة. عم سيد البواب، والذي يسكن هو أسرته في الغرف المقابلة لشقة ستاسيا، كان يستعد للنزول والمرور على الأسطى عبدالله الترزي العربي لتفصيل جلبابين له. سمع الجلبة والشجار فترك لفة القماش التي بيده وهرع إلى شقة ستاسيا ليفض الاشتباك في أثناء اندفاع نيكوس نازلاً الدرج. لحقته زوجته الخالة فاطمة وهي تلف طرحتها حول رأسها باضطراب ولهوجة.

طرق عم سيد الباب ففتحت له ستاسيا وهي منخرطة في البكاء ومشعشة الشعر. لاحظ وجود سحجات على وجهها وخدوش بيديها. دخل عم سيد يتمتم بصوت خفيض ويخبط كفا بكف متعجبا... لا حول ولا قوة إلا بالله... لمحت ستاسيا الخالة فاطمة بصدرها وهي تربت عليها وتتمتم بصوت خفيض... استغفر الله

العظيم... أستغفر الله العظيم... كفايـة... كفايـة يـا بنتـي... فضفضي... الله يسامحه... يعمل المصايب دي أمام الأطفال.

استجمعت ستاسيا نفسها بصعوبة وقالت بكلمات باكية:

- طلبت منه فلوس للبيت فثار وضربني... شدني مـن شعري وخبط رأسي في السرير قُدام الأولاد.

قالت لها الخالة فاطمة وهي تربت عليها:

- اهدئي يا بنتي لأجل خاطر الأولاد... سامحه الله.

نيكوس يعمل كهربائي سيارات، لكنه عاطل معظم الوقت. لا يستقر في أي ورشة يعمل بها أكثر من أسابيع قليلة. غير قادر على التكيف بيسر مع الظروف المحيطة. يكثر من الشراب ودائم الشجار مع ستاسيا بسبب الفلوس والخَلَف. يتهمها دائما بأنهـا لا تفعل شيئًا في الدنيا سوى أن تنجب العيال. أنجبت له ثلاثة أطفال، رغم أحوالهم المادية المتأزمة. جورج ابن الستة أعوام وميكـيس يصغره بعام واحد ثم يانيس الصغير ذو الأعوام الثلاثة. ضاق بها وبأولادها وكثيرا ما يغادر المنزل ويتغيب عنه لعدة أيام، تعتمـد ستاسيا في إقامة حياتها على أخيها أندريا وأختها إيرين متيسـرة الحال بسبب زواجها من عباس الخربوطلي ابن صاحب محـلات الخربوطلي للفراشة.

ترك عم سيد زوجته الخالة فاطمة مع ستاسـيا لتهـدئتها وتأخذ بخاطرها وذهب لإحضار لفة القماش. كانـت نفسـه قـد

انسدت من البهدلة التي رأى فيها ستاسيا. تحامل على نفسه ومـر على الأسطى عبدالله الترزي لتفصيل الجلبـابين. لاقـاه عبـدالله بوجهه الصبوح المبتسم. جلس عم سيد معتكر المـزاج وأخـرج علبة النشوق. ثم شمتين قبل أن يفضفض للأسطى عبـدالله عـن زعله من ظروف ستاسيا المسكينة.

(٣٤)

ملأت الحاجة فريدة كوبا بزيت الزيتون وطلبت من صالح ابنها أن ينزل به إلى مدام هيلينا ويشكرها. طلبت منه ألا ينسـى الكوب تحت، عند مدام هيلينا. كانت الحاجة فريدة قد استلفت كوب الزيت من مدام هيلينا قبلها بأسبوع عندما احتاجت لزيت الزيتون واكتشفت أنه نفد من عندها. عادي جدا أن يستلف الجيـران مـن بعضهم في شبرا، كوب زيت، كوب سكر، حبة بيكربونات، كوبين أرز أو دقيق... وهكذا.

أخذ صالح الزيت ونزل إلى شقة مدام هيلينا. قرع البـاب وانتظر قليلاً حتى فتحت. يا نهار أسود. هاله ما رأي. مدام هيلينا ترتدي قميص نوم شفاف قصير في كامل زينتها، روج وبارفـان يجنن. تغنى مع الراديو أغنية يونانية راقصة في سلطنة عجيبة... ساغابو... تلعثم قليلاً وهو يعطيها الزيت ويشكرها عليه ماسـحا بنظره جسدها المتلألئ في ثوبه الشفاف. ابتسمت ابتسامة الأنثـى المجربة وهي تأخذ منه كوب الزيت وتعود للدخول ريثما تغسـل الكوب. كان الوقت ظهرا بعد عودة صالح من مدرسة الإيمـان، والمدام هيلينا بمفردها في المنزل بعد دخول كوستا حفيـدها إلـى المدرسة.

دق قلب صالح وهو جالس ينتظر مدام هيلينـا بالصـالة. أحضرت الكوب نظيفًا وسألته إذا كان يمكن أن يشتري لها علبـة سجاير هوليود. رحب صالح بسرور. قالت له مدام هيلينـا إنهـا ستقوم بتحضير الشاي لحين عودته.

صعد صالح الدرج متوثبا وخياله يذهب كل مذهب، الست كبيرة لكنها شهية ومغرية... يا خرابي... رائحة البارفان تجنن... وقميص النوم الشفاف... كل حاجة باينة... حلمة صـدرها تكـاد تخترق قميص النوم... يا سلام لو...

ترك الكوب الفارغ لوالدته وأبلغها أنه سيذهب إلى صبري صديقه ليستذكر ووضعهما في جيب القميص لبقية النهار. صـعد بحذر إلى شقة مدام هيلينا وطرق الباب وهو يتلفت حولـه كمـن يحس بأنه عامل عملة. لقد دق بابها وهو يحمل كوب الزيت بـلا اكتراث. لكنه الآن لا يعلم المجهول. قلبه يحدثه بشيء. ابتسامتها تقول شيئًا، ودعوته على الشاي.

فتحت مدام هيلينا دعته للدخول. قدمت له الشاي وجلست بجواره على الكنبة. طلب منها سيجارة بجرأة وهي تهم بإشـعال سيجارتها. يحاول أن يفتح سكة. ضحكت وقالت له في دلال:

- يا شقي... هل تدخن أيضا.

سمعة صالح بجلاجل في البيت كله منـذ واقعـة البنـت سميحة والسكين. تسبقه سمعته ويعي هو ذلك بوضوح فـي تلـك

اللحظة. قدمت له سيجارة وأشعلتها له. ربت على كفهـا شـاكرا واستبقاه بين كفيه للحظات.

شرب الشاي على عجالة. اقتـرب صـالح منهـا فجـأة واحتضنها. لم يضِع وقتًا. لم تُبدِ مقاومة تذكر. وسدها على الكنبة وأمطرها بالقبلات. نزع قميص نومها الشفاف فساعدته. خلعت له ملابسه بعد أن فككت أزراره بسرعة وهو من الاضـطراب فـي غاية. سحبته إلى غرفة النوم وراحا في عالم آخر. انطلق كالثور الهائج وهي مستسلمة له مبدية استمتاعها بوضوح لم يعهده مـن قبل. ضايقه جفافها الملحوظ لكنه تحايل عليه.

بدأت منذ تلك اللحظة علاقة سرية بين مدام هيلينا وصالح كانت كالكنز بالنسبة إليه وكجزيرة الأمان بالنسبة إليها فـي لجـة الشيخوخة، والتي كادت تبتلع نضارة مدام هيلينا المتبقية، وإقبالها النهم على الحياة.

(٣٥)

حضرت الست بطة السكر والليمون وشرعت في تجهيـز الحلاوة على النار، الحلاوة من الأشياء القليلة التي تجيـد السـت بطة تجهيزها بالمطبخ، فهي تعتمد على أختها إلين في كـل مـا يتعلق بشئون المطبخ والطهي. تعلمت عمل الحلاوة مـن السـت حسنية العايقة، بلديات الخالة فاطمة، والتي كانت تستعين بها فيما مضى ثم استغنت عن خدماتها عنـدما أتقنـت عمـل الحـلاوة واستخدامها.

تقوم الست بطة بعمل الحلاوة لمن يريد من الجيران. مدام هيلينا تعودت على الحلاوة منذ جربتها أول مرة قبل أعوام ولـم تعد تسلوها. الست عايدة رزق الله تستعين بها كـذلك، بالإضـافة إلى أماني وتحية بنات الحاجة فريدة اللتان تحضـران خصيصـا باتفاق مسبق مع الست بطة لعمل الحلاوة.

أخذت الست بطة وعاء الحلاوة وطبـق السـمن البلـدي ونزلت إلى مدام هيلينا التي كانت في انتظارها. تركا أنجيلا تلعب مع نور ابنة الست عائشة وبصحبتهما كوستا ودخلتا إلـى غرفـة مدام هيلينا ثم أغلقتا باب الغرفة بالمفتاح.

أنجيلا بنت عفريتة. شقية وأكبر من سنها. تحب اللعـب بماكياج جدتها وتصبغ وجهها خلسة عندما تسهو جـدتها عنهـا.

تلبس أحذية أمها ذات الكعب العالي وتدور تتمخطر بها في البيت. تتابع الأحداث وتعرف ما سوف يجري خلف الأبواب المغلقة.

انتظرت قليلاً ثم تسللت بهدوء وتلصصت من ثقب البـاب حجب المفتاح الرؤيا عنها بعض الشيء لكنها استطاعت أن تلمـح جدتها عارية، والست بطة تمر بالحلاوة على جسمها، تضـغطها بأصابعها ثم تفردها على أيديها وأرجلها، تنزعها عنـوة بحركـة خاطفة أربية وتعاود الكرة حتى تنزع الشعر كله. تلصـق السـت بطة قطع الحلاوة الجاهزة على ساعدها الأيسر، تأخذ قطعة منهـا كلما احتاجت إلى تغيير قطعة الحلاوة المستعملة. انتقلت إلى وجه مدام هيلينا وقامت بنزع الشعر المنتشر عليه. دهنتها بعدها بالسمن البلدي الذي تستخدمه الستات كمرطب للجلد، بديلاً عن الكريمات العصرية. نادت على نور لترى بدورها، وتبادلتها متابعة المشـهد المثير في هدوء.

(٣٦)

انبعثت أغنيات الدلعونة وزهرة الحنّون من شقة "أبو مازن" بالدور الأرضي. جرت العادة عندما يستقبلون المعارف والأصدقاء في الزيارات المسائية أن تنتهي الزيارة بالمشاركة في غناء الأغنيات الفلكلورية الفلسطينية. تنبعث أصواتهم بغناء شجي مفعم بذكريات الوطن والحنين إلى الأرض. كثيرا ما تغنى أيضا ابنتهم ليلى، ذات الستة عشر ربيعا، بصوتها الناعم العذب أغنيات فيروز. تبدأ بالأغنيات الخفيفة فتستمع إلى أغنية "تك تك تك يا أم سليمان"... وتنتهي بأغنية دسمة من أغاني فيروز، وغالبا ما تكون أغنية زهرة المدائن وتتجلى منتفضة وهي تشدو بغضب "واستشهد السلام في وطن السلام وسقط العدل عن المدائن".

"أبو مازن" يعمل مقاولاً للبياض ويسكن بالدور الأرضي في الشقة المقابلة لمدام أنوش مع زوجته الست أسماء وابنه الأكبر مازن الطالب بكلية الطب البيطري بالإضافة إلى ابنته ليلى.

يحسن الآن أن أرسم لكم رسما كروكيا لبيت الست بطة بشارع الزهور وموقع ساكنيه.

شقة سماسط ونيكوس وأولادهم	السطح	غرف البواب والسائق وأولادهم / سكن عم والخالة / سيد فالحة
شقة هاني خوري وأبنائها	الدور الثالث	شقة عايدة زوجة الله وأبنائها
شقة السابلة وعائلتها (صاحبة البيت)	الدور الثاني	شقة الحاجة فريدة وأبنائها
شقة نهى افندي عبد الفتاح والتعاونية وأبنائهما	الدور الأول	شقة مدام هيلينا وابنها أندريا وأبنائه
شقة سعيد زايد (أبو مازن)	الدور الأرضي: بلاجة الكازوزة، دكة عم سيد البواب، مدخل البيت	شقة مدام أنوسه وأجيال وأبنائها

(٣٧)

- والله العظيم لن أنام معك في سرير واحد... ولا حتى في غرفة واحدة.

صاح المهندس إميل فرنسيس معترضا في وجه زوجتـه الست بطة، وهي تدخل إليه بالغرفة، وقطرات الحناء تتسرب على جبهتها من تحت المنديل الذي تلف به رأسـها، بعـد أن لبخـت شعرها بالحناء.

- إيه يا إميل... الله... بطّل هوسة.
- كله كوم ورائحة الحناء كوم... لم أستطع النـوم فـي المرة الماضية.
- وأين تريدني أن أنام؟!
- نامي بجانب إلين... أو أذهب أنا للنوم بجانبها... ولو أنها كاينة مثلك.

قال الجملة الأخيرة بصوت خفيض مدغم.

- نعم يا سي إميل... بماذا تبرطم؟... خَل الليلة تفـوت على خير وقل يا مِساء.
- سأذهب للنوم بجوار ميشيل.
- اترك ميشيل في حاله. ميشيل مشغول في المذاكرة.
- سأذهب للنوم في لوكاندة.

- قل يا مساء... سأجهز العشاء.

خرجت الست بطة إلى المطبخ وهي تجفف قطرات الحناء التي تخر من المنديل على جبهتها بفوطة في يدها. أرسلت وهيبة لشراء زبادي من الحاج محمد اللبان بينما انهمكت هي في تجهيز العشاء.

عادت لتدعو زوجها للعشاء فوجدته ممددا على السرير وجهه للحائط. نادت عليه، فأجابها بشخير كالنائم ولم يرد عليها. أعادت النداء فرفع صوت الشخير. يئست منه فتركته وذهبت للعشاء بمفردها. يفعل ذلك دائما عندما يريد أن يغيظها.

(٣٨)

زاريه ألطونيان ابن مدام أنوش، شاب هادئ خجول في التاسعة عشرة من العمر. متقدم في دراسته وحاد الذكاء. يعرف ما يريد ويقصد إليه في تؤدة وتصميم. يسعى إلى أن ينتهي من دراسته للهندسة بتفوق، حتى يتمكن من مراسلة الجامعات في أميركا، التي ينتوي الهجرة إليها بمفرده أولاً، ثم استدعاء أسرته بعد أن يرتب أموره.

زاريه مرتب ودقيق. بارع في استغلال وتنظيم الوقت. لا يعرف لوقت الفراغ معنى. أو قل إنه لم يمارسه. هو دائما منشغل بنشاط ما، لذلك فهو لا يعرف الملل أيضا. وقته مبرمج بين الدراسة والقراءة وممارسة هوايته في الاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكية والذهاب إلى حفلات الكونسير والأوبرا كلما تيسر له ذلك. يقرأ كثيرا باللغة الإنجليزية، حتى يقوي درجة إجادته للغة الإنجليزية، تمهيدا لهجرته المخططة إلى أمريكا. الموسيقى والقراءة جمعت ما بين زاريه ومجدي في صداقة حميمة مثمرة. يتبادلان الكتب فيما بينهما، فمجدي يقرأ أيضا باللغة الإنجليزية، إلى جانب اللغة العربية، لزيادة قدرته على الإطلاع، ولتحسين لغته هو أيضا، فهو يخطط للزواج من كريستينا والسفر للعمل بالخارج. لم يخطط مجدي لمستقبله بالدقة التي في ذهن زاريه.

مجدي يريد فقط أن يسافر إلى الخارج، حيث المدنية والتقدم، يرى الدنيا ويعمل بالخارج لبعض الوقت. لم يفكر في الهجرة لنفسه ولا يمانع فيها للآخرين.

حدد زاريه مساء الجمعة للفسحة الأسبوعية. يخرج فيها للتريض وخلو البال. في كثير من الأحيان يخرج بصحبته صديقه مجدي منفردين وأحيانًا يصاحبهما ريمون ومازن ابن الأستاذ سعيد زياد، الذي يدرس الطب البيطري، نادرا ما يصاحبهم ميشيل ابن الست بطة. تصادقوا جميعا منذ الطفولة ولعب الكرة الشراب في شارع الزهور، ثم انتقلوا عندما شبوا للعب في نادي مدرسة الفرير بشارع البعثة، التي تفتح أبوابها لشباب المنطقة صيفًا لممارسة الأنشطة المختلفة من كرة قدم وكرة سلة والبنج بنج إلى جانب الشطرنج والدومينو. يذهبون في أمسيات الصيف أحيانًا لقضاء السهرة بسينما الجندول بشارع شبرا، والتي تعرض الأفلام الأجنبية فقط. زاريه يحب السينما أيضا ويعرف أسماء المخرجين الأجانب والنجوم من الرجال والنساء. نجومه المفضلون إليه هم جون واين وجريجوري بيك وأنتوني كوين. يفضل من النساء مارلين ديتريتش وصوفيا لورين. أسرته مارلين ديتريتش في أفلامها بشخصيته الأخاذة وصوفيا لورين بأنوثتها الطاغية. يعطي زاريه نفسه حرية أكثر في الإجازة الصيفية، فتتعدد مرات خروجه للفسحة أو ذهابه إلى السينما. يلجأ إليه مجدي وريمون

عندما تستعصي عليهما بعـض مسـائل الإنشـاءات أو بعـض صعوبات التصميم فيجدان فيه نعم المعين. لا يدخر وقتًا لمساعدة أصدقائه بصبر وإخلاص.

(٣٩)

" comme c, est simple d,être une petite file heureusel ..."

سرحت نبيلة وهي تشعر بالحسرة في أثناء المحاضرة. ما أبسط أن تكون فتاه صغيرة سعيدة... جملة عفويـة وردت علـى لسان جان دارك في مسرحية جان أنوي، القبرة. راحت نبيلة تردد همسا تلك الجملة البليغة وهي تتذكر حكايتها مع سعيد ومواجهـة المجتمع كله لمهما. لماذا لا يكون من حقها أن تحيا حياة سـعيدة مع من تحب؟. إنها تحب سعيد بكل جوارحها. لا تتصور نفسـها في حضن رجل آخر. هو الرجل التي فتح مسامها للحياة وللحب. عقلها يكاد يصاب بالشلل. لا تستطيع بعضهما البعض. اتفقا على الكف عن اللقاء وعن الاسترسال في الأحلام. سعيد يصر بعنـاد على أن يواصلا ما عزما عليه من قبل، لكنها لا تملك الشجاعة... كيف ستواجه أمها التي تحبها وتقدرها ووالدها الطيب الحنون؟... كيف تسيء إليهما وتجرح شعورهما؟... لن يغير في الأمر شيء أن سعيد سيعتنق الإسلام. بالنسبة إليهما وإلى الجميع، لقـد تـرك دينه، كيف سيواجهان الناس والأقارب والجيران؟. لن تسـعدهما صدمة الست عايدة وأخته آمال. يريدان، ككل الناس، حياة معتادة بسيطة خالية من القلاقل والأزمات، الجميع لن يطمئنوا إلى صدق

اعتناقه للإسلام... سيقولون إنه أشـهر إسـلامه ليحـل مشـكلة زواجه... هذا ما سيقوله الجميع... سيعتبرونه متحايلاً... لن تقبله قلوبهم... سيقولون كيف يضحي بأمه التي عانت في تربيته وحيدة وأخته التي ستنعدم فرصتها في الزواج بعد فعلته تلك؟... مـن ذا الذي سيتقدم إلى فتاة ترك أخوها دينه واعتنق دينًا آخـر؟... وإذا افترضنا التغلب على كل هذه العقبات... كيـف سـيكون الأمـر بالنسبة للأبناء في المستقبل؟... أي ديانة أبيهم الجديـدة... بمـاذا سنجيب على تساؤلاتهم عندما يشبون ويواجهون هذه الاختلافات؟ يجدون عمتهم وجدتهم لأبيهم مسيحيين وخالهم وخالتهم وبقية أهل أمهم مسلمين... هل سيشـاركون أهـل أبـيهم فـي مناسـباتهم وأعيادهم؟... بماذا سنجيبهم؟... إذا سألونا، لماذا نحن مسـلمون وأهل أبينا مسيحيون؟... لماذا غير أبونا دينه؟... كيف سيواجهون أقرانهم عندما يشبون؟... هل سـيرحمهم المجتمـع أم سيسـخر منهم؟...

تساؤلات حائرة عديدة، تتابعت في ذهن نبيلة وهي جالسة في مدرج الكلية أثناء المحاضرة التي توقفت عن متابعتهـا بعـد جملة جان دارك التي لعبت على أوتارها وأثارت أحزانها.

(٤٠)

عرفت زينب ابنة عم سيد البواب أن سينما دوللي تعرض فيلم آخر كدبة لفريد الأطرش، نجمها المفضل الذي تحبـه إلـى درجة الهوس وتحتفظ بصوره في الدولاب بين طيات ملابسـها. قالت لستاسيا واتفقتا مع وهيبة خادمة الست بطة وصباح خادمـة الست عائشة على الذهاب إلى السينما معا، حفلـة ثلاثـة لسـتة. اعتادت ستاسيا أن تذهب معهن إلى السينما. ستاسيا تـأنس إلـى زينب وتدعوها كثيرا للتسلية والدردشة. كثيرا ما تأخـذ ستاسـيا الأولاد وتذهب إلى الخالة فاطمة وزينب لقضاء الوقت والمسامرة. يتناولون جميعا طعام الإفطار المكون من الفول المدمس والمـش والعسل والطحينة، وأحيانًا يرسلون لشراء الطعميـة، يفترشـون الحصيرة حول الطبلية على السطح في شمس الشـتاء الحانيـة، يأكلون بالهناء والشفاء ويتبادلون الحكايا، على راحتهم، بعـد أن تكون الخالة فاطمة قد رتبت الفرش ونظفت الغرف. الخالة فاطمة تصحو من الفجر للوضوء والصلاة ولا تنام بعد ذلك. يتنـاولون إفطارهم بعد أن تكون قد فرغت من شغل البيت ليأخذوا راحـتهم على كيفهم. أحيانًا يستغرق الإفطار ساعات الصباح بأكملها حتى تحل الظهيرة.

ذهبن جميعا إلى سينما دوللي. كانت تعرض أيضا فـيلم" حسن ومرقص ووهين" إلى جانب فيلم"آخر كدبة" لفريد الأطرش. اشترين اللب والسوداني وقطعن أربع تذاكر صـالة مـن شـباك التذاكر. وقفن مترقبات بصبر نافد فتح الأبواب والسـماح لهـن بالدخول.

في طريق عودتهن، مررن على محل الحاج محمد اللبان وأكلن بسبوسة بالقشدة. اشترت ستاسيا أيضا بسبوسـة لتأخـذها للأولاد بالمنزل.

(٤١)

يالسوء حظها، ستاسيا. يومها عاد نيكوس زوجها مبكـرا على غير عادته. عاد في أسوأ أحواله بعد أن ضـرب الخواجـة جوانو، صاحب الورشة الإيطالي. استلقطها لها بحالة جيـدة مـن موظف بالسفارة الإيطالية، قبل سفره عائدا إلـى بـلاده. كانـت السيارة بالورشة لتغيير "الكتاوت"، فانكسـر الزجـاج الأمـامي وتهاوى كحبات الحصى.

دخل نيكوس إلى المنزل فوجد الأولاد بمفردهم، وعنـدما سألهم عن ستاسيا، أخبره جورج الابن الأكبر، أن ماما خرجت مع زينب. هاج نيكوس بالإجريجي فخاف الأولاد وانزووا في غرفتهم تعساء عدا يانيس الصغير ذا الثلاثة الأعوام، والذي سأله ببراءة :

- هل معك شيكولاته ؟

فشتمه أيضا بالإجريجي.

كان نيكوس قد حذرها عـدة مـرات ألا تتـرك الأولاد بمفردهم وتخرج. ستاسيا مقاومتها ضعيفة للفرفشة، " إكفِ القدرة على فمها، تطلع البنت لأمها ". مثال يبدو أنه لا يخيب. ستاسـيا صاحبة مزاج قوي وإيرين مرافقة ابن الخربوطلي، بينما أنـدريا أخوهم يهلك عند الخواجا جروبي طول النهار.

رغم اصطدام نيكوس الدائم بستاسيا وضربه إياها، إلا أنها تحبه. تتألم وتبكي بعد كل علقة وتلعنه بعد أن يترك البيت غاضبا، لكن بلسانها فقط، أما القلب فلا تزوجته بعد قصة حـب عـارم. اختلف مع أخيها أندريا أثناء مباحثات الزواج واصـطدم بمـدام هيلينا فهربت معه. عادت بعدها المياه لمجاريها فاستسحمت مـدام هيلينا الست بطة في تجهيز مطرح صغير لستاسيا بالسطح، وقـد كان.

ستاسيا لا تملي إلى شغل البيت. تحب "الونَسـة" فتقضـي الساعات في الدردشة مع زنيب وتمضي نصف النهر في الإفطار وهي تتشمس مع الجماعة على السطح. تهمل حتى مظهرها فـلا تقوم بغير الاستحمام، وقبل الدخول إلى الفراش تضع قلـيلاً مـن الكولونيا وهي ترتدي قميص النوم العاري. تكتفي بذلك من بـاب التزيين ولا يطلب نيكوس المزيد، فما يلقاه في الفراش منها ينسيه أهله.

ضربها ذلك اليوم ضربا مبرحا. كان قد أفرط في الشراب بعد علقة جوانو. أثاره خروجها وترك الأولاد بمفـردهم فـانفجر فيها. جرت منه ودخلت إلى غرفتها. أغلقتها بالمفتاح وهو يصرخ خارجها ويخبط بكفه بعنف على البـاب. فجـأة احـتقن وجهـه وتقلصت ملامحه. أفرغ كل ما في جوفه في لمح البصـر وتـأوه بصوت عال. فتحت ستاسيا البابا مفزوعة. هالها منظـره وهـو

يستند بيده إلى الحائط ويميل بقامته إلى الأمام وقد أغرق الأرض بتقيوئه. جرت إلى الحمام وأحضرت الجردل والخيشـة. قامـت بتنظيف الأرض سريعا لأنها تدرك أن هذا المشهد يؤلم نيكـوس أيما الألم. لا يطيق أن يرى ضعفه ماثلاً أمامه. انفجر نيكوس في بكاء حار واندفع ناحية غرفته. تركت ستاسيا كل شيء وهرعـت إليه. احتضنته إلى صدرها بقوة وربتت عليه بحنان. انغمس فـي البكاء وارتمى على الفراش. مالت عليه. احتوته بحضنها وهـي تحاول أن تهدئه بكل ما تملك من قوة.

(٤٢)

ذهبت الست إلين إلى الكنيسة صباح الجمعة كعادتها. إلين تواظب على الذهاب إلى الكنيسة يومي الجمعة والأحد مـن كـل أسبوع وتحرص على التناول كما تصوم يومي الأربعاء والجمعة بالإضافة إلى بقية الصيامات.

توجهت إلى كنيسة السيدة العذراء بشارع عياد بك مبكرة كعادتها أشعلت شمعة للعذراء بمجرد دخلوها من بـاب الكنيسـة. غرزتها في الرمال الموضوعة في الإطار المستطيل أما صـورة العذراء وهي تحمل المسيح طفلاً صغيرا وصلت "أبانا الذي فـي السماوات... "توجهت إلى الجانب الأيمن المخصـص للسـيدات وجلست تستمع إلى فصل من الإنجيل كان يقرؤه أحد الشمامسـة. قامت بعدها إلى هيكل النساء وانتظرت قدوم "أبونا جرجس" لأداء طقوس الاعتراف. في الحقيقة، ليس في حياة الست إلين خاطايـا تعترف بها. طيلة حياتها متبتلة، الهم إلا أطرف النكات الخارجـة التي يفاجئها بها زوج أختها المهندس إميل مفلوت العيار، والتـي تستمع إليها مكرهة قبل أن تفر هاربة من أمامه وتترك المكان.

أنهت طقوس الاعتراف وخرجت إلـى باحـة الكنيسـة لتشارك في صلاة القداس. بعد نهاية القداس دخلت مرة أخرى إلى الهيكل للتناول. أنهت تناولها بسعادة روحية بالغة أضاءت كيانهـا

من الداخل ثم خرجت إلى باحة الكنسية وتوجهت إلى مكانها فـي انتظار انتهاء الأب جرجس من إجراء طقـوس التنـاول لبقيـة المصلين، ثم خروجه إلى الشعب ورشهم بالماء المقدس، الذي قام بالصلاة عليه أثناء القداس.

في طريق عودتها إلى المنزل، مرت كعادتها علـى عـم قلدس البقال لشراء لوازم البيت من البقالة. ألقت عليه التحية وهي تفتح حقيبة يدها وتخرج القربانة منها. قطعت قطعة من القربانـة ومدت يدها بها إلى عم قلدس الذي أخذها منها شاكرا وقبلها بفمه قبل أن يلقمها إياه. رسم علامة الصليب بخشوع وهو يلوك قطعة القربان ببطء وتمثل.

عم قلدس في منتصف العقد السابع مـن العمـر. رجـال نحيف، يظهره انحناءة بسيطة. يرتدى الجلباب وفوقـه الجاكتـة صيفًا وشتاء، كأنه ولد بها. يضع طربوشًا كالحا فوق رأسه. لـه نظارات سميكة من النوع الذي يطلق عليه " كعب كباية ". كلماته قليلة يضن، بها لا تدرى بخلاً أم توجسا من انكشاف خصوصياته على غفلة منه. يكلمك دون أن ينظر إليك. كمن يخفى عنك شـيئًا يخشى افتضاحه من ملامح وجهه أو نظرات عينيه.

جهز للست إلين طلباتها ولفها وهو يدعو لهـا ويوصـيها بتوصيل السلام للست بطة والباشمهندس إميل.

(٤٣)

رورو ابن الست مارى خوري ولد خلبوص وشقي. يحب النساء والخمر والبوكر. كلنا طبعا نحب النسـاء فـي الظـروف العادية، لكن بعضنا قد يكون كسولاً أو خجولاً، على العكس مـن ذلك رورو، الذي لا يتكاسل عن النساء ويفـتش عـن الفـرص بمنكاش. خفة ظله تسعفه.

توصل إلى اكتشاف بيت سرى في شبرا البلد، تديره امرأة عجوز تدعى خيرية وتسمى نفسها اللواء خيري للتمويه. اتفق مع مازن على الذهاب معا مساء الخميس.

اللواء خيري تتعامل مع عدد محدود من السـتات. قالـت لرورو إن معظمهن أولاد ناس وبعضـهن زوجـات لمـوظفين محترمين في الدولة. لا تستقبل الواحدة منهن إلا عددا محدودا من الزبائن لتكتمها وحرصها الشديدين. شرحت له أنهن يلجأ إلى ذلك لإكمال مصاريفهن. دخول أزواجهن تكفى بالكاد مصروفات البيت والأولاد، فوجدت تلك الفرصة لإكمال تكاليف الكوافير والبارفـان وأدوات الماكياج. تصطادهن خيرية بمهارة فائقة من المواصلات والأماكن العامة وتدعوهن إلى زيارتها بمنزلها. لها نظـرة فـي الست التي تكون على قدر من الاستعداد. تنصب حولها حبائلهـا ونظرتها في الغالب لا تخيب.

طرق رورو باب اللواء خيري ومعه مازن. فتحت خيرية الباب بعد فترة انتظار، فتحه ضيقة تسمح لها برؤية الطارق قبـل أن تسمح له بالدخول. كان رورو قد حضر إليها من قبل بصـحبة أحد معارفه المتعددين. دعتهما إلى الدخول وأغلقت الباب.

صالة إضاءتها خافتة، تكاد أن تكون مظلمة. جلسا علـى كنبة بالصالة يحيطها مقعدان مريحان من الجانبين. جلست خيرية على أحد المقعدين وهي ترحب بهما. أخرجت من صدرها علبـة سجاير معدنية كان قد أهداها لها أحد زبائنها الدائمين فـي نوبـة كرم، وأثناء لحظة انسجام، عندما أبدت إعجابهـا بهـا، قـدمت سيجارة لرورو واعتذر مازن لعدم تدخينه.

بدأت معالم المكان تتضح عندما اعتادت أعينهمـا علـى الإضاءة الخافتة للصالة. غرفة بالضلع الأيمن تالية لبـاب الشـقة وغرفة مقابلة للكنبة. على يسار طرقة صغيرة تفضي إلى المطبخ والحمام. الغرفة منزوعة الأبواب، والغرفتان مزودتـان بسـرير عريض لكل منهما وكراسي خيزران. تحتوى إحدى الغرفتين على دولاب بمرآة تعكس السرير للجالس في الصالة على المقعد أيسر الكنبة. لم ينتبه رورو لهذه التفاصيل في المرة الأولى. انتبه إلـى أن خيرية أصرت على استخدامه للغرفة ذات الدولاب بـالمرآة... يا بنت الكلب... قالها لنفسه دون أن ينطق... الولية كانت تتفـرج علينا في المرآة... تذكر أنه بمجرد أن انتهى مع المرأة التي كانت

معه، دخلت إليهما خيرية بطبق كفته وأطعمته بيديها وهي تقترب منه بشبق أنثوي، يومها تصوره تمثيلاً لحبـك الـدور... "المـرة كانت هايجة... يخرب بيتك يا خيرية..." تطفئ هياجها بمشـاهدة الزبائن والتودد إليهم بما تيسر من طعام.

أفاق رورو من دهشة على سؤالها له:

- هل تحب فوزية التي نمت معها المرة السـابقة أم تريد التغيير؟ أجابها رورو بسرعة:

- هاتيها لمازن.

والتفت إليه وهو يقول:

- ستعجبك مرة فلة.

ثم استدار إلى خيرية وهو يقول:

- أما أنا فسأجرب لبوة جديدة.

رفعت سماعة التليفون بجوارها واستدعت فوزيـة وفتـاة أخرى تدعى مديحة.

(٤٤)

تن تن تن تن... تن تن تن تن

تمام الثانية عشرة من ليلة الواحد والثلاثين من ديسـمبر. دقت ساعة الحائط المعلقة على جدار صالة الست مارى خـوري. انطفأ النور وتبودلت القبلات. ليلة رأس السنة.. لحظة فاصلة بين يوم ويوم.. بين عام وعام.. بين ما مضى... وما هو آت... عـام دخل إلى خزانة التاريخ... وعام يبزغ من رحم الزمان... لحظـة مفعمة بالأمل، إذا كنت بين الأحباب... مغمورة بالشجن إذا كنـت وحيدا أو غريبا، لكنها شبرا التي لا تسمح للمرء بأن يكون وحيدا ولا يوجد بها أحد غريب... تحيط المرء بالآخر من كـل جـنس ودين. يجد نفسه مستأنسا بمن حوله دون أن ينتبه للأمر... فهكذا وجدت الدنيا وتلك هي الحياة. لا يعرف لها بديلاً. لا يعـاني مـا عرفناه فيما بعد بأمراض العصر الحديث. لا يقضي ليله وحيدا في غرفة مغلقة بصحبة جهاز كمبيوتر، يفتح الإنترنت ويتجول بـين مواقعها، أو يلعب السوليتير وغيرها من ألعاب الكمبيوتر. لم تكن الأمسيات إلا تجمعا وسمرا، حكايا وأنسا، يلي ذلك تثاؤب هـانئ ونوم عميق.

كان يوم الست مارى خوري حافلاً بالعمل والترتيبات منذ طلعة النهار. استيقظت مبكرة لتنظيف المنزل استعدادا لاسـتقبال

الأحباب لقضاء سهرة ليلة رأس السنة كالعادة كـل عـام. يلتـئم الجمع بمنزلها لقضاء السهرة. أخرجت الزينات التي كانـت قـد نزلت إلى الموسكى لشرائها قبل يومين. شرعت في تعليقها بـين الحوائط والأبواب بمعاونة علي ابن عم سيد البواب. اكتسب البيت ألوانًا متألقة وبهاء أخاذًا. نزلت إلى السوق لابتيـاع احتياجاتهـا لعشاء الليلة. عرجت على قادس البقال أولاً لشراء المزات، تشكيلة من الجبن والبسطرمة والمرتدلة والطرشي. ذهبـت بعـدها إلـى إبراهيم الجزار الذي قطع لها قطعية لحم بتلو معتبـرة. اشـترت أيضا الكبد والكلاوي لرورو وبيير زوج أختها سيلفيا.

عادت إلى المنزل ودخلت إلى المطبخ مباشرة، فالنهار قد انتصف والوقت راح. لحقت بها الست عايدة جارتها وشرعتا معا في طهو اللحم والكبد والكلاوي، بالإضافة إلى بقيـة الأصـناف. تصاعدت رائحة الطهو مضمخة بـروائح التوابـل والمشـهيات فاكتسب البيت نضارة وحياة الأعياد والاحتفالات وانبعثت أصوات الطشة والتحمير في أرجاء المكان.

في المساء، بدأ يتوافد الأحباب، كانـت مـاري وعايـدة منهمكتين في وضع اللمسات النهائية للأطباق عندما هلت سـيلفيا أخت الست ماري أولاً بصحبة زوجها بيير وابنتها رولا. أنهـت جيهان مذاكرتها مبكرا وساعدت أمها في ترتيب المنزل لاستقبال الضيوف. استيقظ رورو من نومه وانضم إلـى أسـرة خالتـه.

صعدت أسرة أبو مازن وقد أحضرت الست أسماء طبق المقلوبـة التي تطلبها منها جيهان دائما. جاءت إيفيت ثم تبعتها أنطوانيـت. انضمت إليهم في النهاية آمال ابنة الست عايدة. سعيد يسهر دائما مع أصدقائه ويمر عليهم فقط للتحية والتهنئة بالعام الجديد قبل أن ينطلق لسهرته.

التأم الشمل وبدأت برتيتة الكونكان كعادتهم كل عام قبـل حلول الساعة الثانية عشرة. تبادلوا الأنخاب والتهنئة قبل الثانيـة عشرة بقليل، أطفئت الأنوار وأضيئت. بودلت القـبلات وبعـدها استمرت السهرة حتى ساعة متأخرة من الليل.

تأهب الجميع للرحيل آملين في العام الجديد بعد أن ودعوا العام المنقضي. امتلأت النفوس بالبهجة والرجاء بعد سـهرة رأس السنة. انصرفوا مودعين بعضهم البعض. لا يهتمون بأي شـيء سوى البهجة والأمل والمحبة، لا فرق عند أي منهم بين من هـو الماروني ومن هو المسلم أو القبطـي. لا فـرق بـين اللبنـاني والمصري والفلسطيني. هم جيران وأصـدقاء، عشـرة عمـر. تعايشوا على المودة والتواصل اجتمعوا على البهجة والمرح ثـم انصرفوا بالأمل والرجاء.

(٤٥)

كعك العيد الأسبوع الأخير من الصيام الصغير. ها هـو العيد يقترب وتهل بشائره. بدأت الاستعدادات الحثيثة ببيت السـت بطة لعمل كعك العيد. يبدأ العمل في المساء ويستمر إلـى فجـر اليوم التالي، عندما تحمل وهيبة خادمة الست بعلة وزينب ابنة عم سيد البواب الصاجات إلى فرن بقطر لخبـز الكعـك والغريبـة والبسكويت. في ذلك الوقت من الفجر يكون الفـرن هادئًـا بعـد الفراغ من خبز الخبز ليلاً، لابد أن يكون الفرن هادئًـا حتـى لا يتحمص الكعك وينحرق البسكويت والغريبة. يستمر العمل ليلتـين أو ثلاث ليال حتى ينتهوا منه.

ليالي عمل الكعك ليالي أنس وفرحة. ليالي لمة. تحضـر الحاجة فريدة إلى منزل جارتها الست بطة ثم تنضم إليهن السـت عايدة رزق الله، لتعمل كعكها هي أيضا، والست أسماء أم مازن، التي تحب اللمة. تستمر السهرات حتى مطلع الفجر بمطبخ الست بطة وأختها إلين ويتحول المطبخ إلى خلية نحل. الطبلية المستديرة في منتصف المطبخ وحولها كراسي المطبخ المنخفضـة. تجلـس الستات متحلقات حول الطبلية، ماعدا الست بطة التي تجلس على الكراسي السفرة لأن ركبها توجعها ولا تستطيع الجلـوس علـى الواطية. تتحرك وهيبة وزينب وصف صـف العبيطـة حـولهن

مناولات الأواني والمناقيش ومحضرات الصاجات ثـم خارجـات بالصاجات إلى السفرة لوضعها فـوق بعضـها الـبعض، خلـف خلاف، حتى يكتمل اختمارها قبل حملها على رءوسهن إلى فـرن بقطر.

تبدأ الليلة بات العجين جيدا في الطشت ثم تركـه ليخمـر تحضر العجمية والمكسرات لحشو الكعك فـي انتظـار اختمـار العجين، وسط الدردشة والقفشات والضحكات الصافية النابعة من القلب. عندما يخمر العجين، يبدأن في تقطيعه وحشـوه بالعجميـة والمكسرات ثم نقش سطحه بالمناقيش. تلك النقـوش هـي التـي تحتفظ بالسكر البودرة الذي يرش على سطحه بعد خبزه.

تبدأ وهيبة وزينب في الاستعداد لحمـل الصـاجات إلـى الفرن. تجهزان حوايتين لوضعهما على رأسيهما لتستقر عليهمـا الصاجات بأمان. تضعان الصاجات على رأسـيهما فـي وضـع متخالف، صاج طولي وفوقه صاج عرضي. تنزلان بحذر الدرج في طريقهما إلى فرن بقطر. لا يسمح لصـف صـف العبيطـة بمشاركتهن نظرا لسوابقها الفاضحة. آخر مرة شاركتهن فيها منذ عدة أعوام عملت مصيبة، تعثرت في الرصـيف وهـي تحمـل الصاجات عائدة من الفرن، اندلقت هي والصاجات علـى الأرض المبتلة بفعل المطر ونبعثر الكعك المخبوز كله وسط برك الميـاه

المتجمعة. يومها اضطروا لعمل ملحق للكعك من جديد وامتنعـوا عن الاستعانة بها في حمل الكعك إلى المخبز.

بعد العودة من المخبز، تعاين الستات الكعـك والغريبـة بالذات للاطمئنان على جودة خبزهما، يختبران العجمية خشية أن تكون قد تصلبت وأصبحت تقضم، تذوق الحاجة فريـدة الغريبـة لترى إن كانت ناعمة كما ينبغي، أو أن خلطتهـا غيـر سـليمة فتقضهم هي أيضا في الفم. الست بطة والست عايـدة صـائمتان وكذلك إلين، لا يستطعن تذوق الكعك والغريبة فتقوم بذلك الحاجة فريدة والست أسماء نيابة عنهن. صباح اليوم التالي لنهاية الخبيز. تحضر الست بطة نصيب كل شقة من الجيـران وتهـتم خاصـة بنصيب الخالة فاطمة وأسرة عم سيد البواب.

(٤٦)

استقل الاثنان قطار أبي قير، الذي مر لسبب غير معلوم، أمام بيت الست بطة بشارع الزهور. جلسا بجوار إحدى النوافـذ وهما يشعران بالعطش. انتظرا مرور بائع الكازوزة دون جدوى. مر الكمساري بدلاً منه وتفحص التذاكر. مر كمسارٍ آخر وثالـث ورابع حتى ضاقا بهم جميعا.

نزلا بمحطة أبي قير وتوجها إلى البحر الميت. جلسا على الشاطئ في انتظار عودة الصيادين. مرت أمام أعينهما العديد من المراكب الخاوية. لم يشاهدا أحدا عليها. استقلا إحـدى المراكـب وراحا يفتشان في كل أرجائها عن القبطان. كاد العطش يقتلهمـا. أقلتهما المركب إلى إحدى جزر اليونان. نزل مجدي وكريسـتينا في الجزيرة. كانا من العطش في غاية. صادفهما نزل صـغيرة. أقاما فيه أياما هانئة بمفردهما بعد أن رويـا عطشـهما يقطنـان المنزل بمفردهما. حتى صاحب المنزل اختفى.

ارتج البناء فجأة. تصدعت أركانه. زلزال أم ماذا؟ انتفضا ثم انطلقا محاولين الهروب قبل أن تقع الكارثـة. انهـار المنـزل عليهما قبل أن يتمكنا من الفرار. وجد مجدي نفسه تحت كومة من الحطام. كريستينا هناك تحت الأنقاض. ماذا يفعـل؟ دفـع كتـل الحجارة عنه بكل ما يملك من قوة. دفعها وهو يتصبب عرقًا. بدأ

حجر ثقيل في الحركة ببطء. دفع أكثر. شعر أنه لابد أن ينتصـر حتى يتمكن من إنقاذ كريستينا. لا يريد أن يتـأخر. لـن يأخـذها الموت منه. دفع تحرك الحجر ببطء ثم انزاح من على كاهله. دفع الأحجار الصغيرة الأخرى وسحب نفسه من بين الأنقاض جـرى نحو كريستينا. دفع بعض الركام من فوقها. أمسك بيدها. سحبها. انفصلت عن جسدها. جن جنونه. سحب يدها الأخرى. انفصـلت هي أيضا عن جسدها. دفع بقية الركام وسحبها خارجا. كانت قـد فارقت الحياة. جلس بجوارها وهو يشعر بالضياع والعبث ثم غلبه النوم.

(٤٧)

يا ستر يارب... استيقظ مجدي مفزوعا من النوم... اللهم اجعله خيرا. شعر بجفاف شديد في حلقه. قفز من الفراش وتوجه إلى خارج الغرفة. رفع قلة إلى فمه من صينية القلل وقرقر الماء في حلقه طويلاً حتى ارتوى. نظر إلى ساعته فوجدها قد جاوزت العاشرة. لقد فاتته المحاضرة الأولى. راحت عليه نومة.

من عادة مجدي بعد الانتهاء من مذاكرته، أن يقرأ لبعض الوقت قبل أن ينام. لم يستطع النوم بالأمس قبل أن ينهي روايـة العجوز والبحر لهيمنجواى. ومن ذا الذي يستطيع ؟.. نام متأخرا بعد أن انتهى من قراءة الرواية. مر موعد استيقاظه دون أن ينتبه فراحت عليه المحاضرة الأولى.

ارتدى ملابسه مسرعا وهو يطلب من صباح أن تعد لـه الشاي سريعا. شرب الشاي على عاجلة وتناول منها السـاندوتش الذي حضرته له. سحب كتبه وغادر البيت وهو يلتهم الساندوتش في طريقه إلى الكلية.

بعد أن أنهى محاضـراته، توجـه بصـحبة رورو إلـى الكافيتريا. طلبا زجاجتي كوكاكولا وجلسا يتسامران. دخل زاريه وانضم إليهما. قال مجدي:

- لم أفهم شيئًا من محاضرة الإنشاءات اليوم.

علق رورو ضاحكًا:

- الإنشاءات تحتاج لمخ يا أستاذ.

سأله مجدي مندهشًا:

- وهل فهمت أنت؟ أجابه رورو ببساطة:
- لا ... لم أفهم طبعا.

ابتسم زاريه وهو يطمئنهما:

- دعونا نراجعها معا في المساء.

اعترض رورو قائلاً:

- ليس اليوم... عندي برتيتة بوكر.

سأله مجدي باهتمام:

- من سيلعب؟ أجابه رورو:
- هاني ورمزي وعادل. هل تنضم إلينا؟ رد مجدي على الفور:
- طبعا. طظ في الإنشاءات. أين ستلعبون؟
- في بيت عادل. الساعة الثامنة مساء حتى لا تتأخر.

علق زاريه مبتسما:

- Hopeless Case. لا أمل فيكما أنتما الاثنان.

(٤٨)

- خمسة قروش.
- عشرون قرشاً.
- شايفك... "فول تسعة".
- تكسب.
- فتوحك.. أنت الذي فتحت.
- زوج آس.

قالها مجدي ورمى الورق بعد أن خسر كـل مـا معـه. انسحب مجدي وأكمل رورو لنهاية الكودوجراس.

في طريق عودتهما شعرا بالجوع، كانـت المحـال قـد أغلقت، فالساعة قد جاوزت الثانية عشـرة. دعـا رورو مجـدي للعشاء عنده. صعدا معا إلى شقة رورو وهمـا يدردشـان فـي كوهات البوكر. لاحظا بصيص ضوء ينبعث من زجاج الشراعة. فتح رورو ودخل بهدوء. كانت مدام ماري جالسة بغرفة القاعـدة تقرأ الإنجيل قبل أن تنام. بادرها رورو قائلاً:

- سنموت من الجوع.

نهضت الست مارى خوري إلى المطبخ وأعـدت لهمـا عشاء سريعا. انتظرت حتى فرغا من العشاء ثم دخلت إلى غرفتها وواصلت قراءة الإنجيل.

(٤٩)

ليلة العيد. عيد الميلاد. ارتدت الست بطة فستان العيد الجديد، والذي قامت أختها إلين بتفصيله لها. راجعت هندامها في المرآة جيدا قبل النزول للذهاب إلى الكنيسة بصحبة إلين. المهندس إميل لا يصاحبهما عادة من الذهاب إلى الكنيسة. يفضل البقاء في المنزل ولعب عشرتين طاولة مع فهمي أفندي إذا كان موجودا، بعدها يستمع إلى قداس العيد المذاع بالراديو.

الست عايدة رزق الله تفضل قضاء ليلة العيد مع جارتها الست ماري خوري وصديقاتهما المشتركات. الست ماري تعيد في الكريسماس قبل عيد الأقباط بأسبوعين، لكنها اعتادت على مشاركة الست عايدة في فرحة العيد. تنتهز الفرصة للبهجة والمرح كعادة اللبنانيين، فرفوشة وصاحبة مزاج.

مضت ليلة العيد على الجميع بمرح وسعادة، الست بطة وإلين في الكنيسة، والست عايدة وماري والصديقات يلعبن الكونكان ويشربن النبيذ، أما المهندس إميل، فقد لعب عشرتين طاولة مع فهمي أفندي ثم جلس يستمع إلى القداس من الإذاعة، إلا أنه بدأ يشعر بالملل عندما أطال القسيس القداس. داهمه الجوع واشتاق إلى الفتة واللحم بعد أسبوعي الصيام. البيت كله يصوم

الصوم الصغير كله ما عدا المهندس إميل وميشيل اللذين يكتفيـان بصوم أسبوعين فقط قبل العيد.

قام إلى المطبخ وأحضر زجاجة البراندي التي اشـتراها عصر اليوم من قادس البقال. المهندس إميل لا يشرب الخمر عادة سوى في العيدين الصغير والكبير احتفالاً بهما.

شرب كأسا في انتظار انتهاء قداس ليلة العيـد وحضـور الست بطة وإلين لتجهيز العشاء. بعدها تناولوا جميعا الفتة واللحم والبيض المزعلل وخلدوا إلى النوم هادئي البال لاستقبال صـباح العيد.

(٥٠)

تستيقظ إلين صباح العيد قبل الجميع. تتجه إلـى المطـبخ بعد أن تصلى بغرفتها وتحضـر الشـاي والكعـك والبسـكويت والغريبة وأطباق صغيرة للجميع، طبق لكل فـرد مـن الأسـرة. يستيقظ الجميع على فرحة العيد ويلتهمون الكعك والبسكويت مـع الشاي واللبن. يتحركون بتكاسل إلى أن تطـرق الحاجـة فريـدة جرس الباب وبصحبتها نادية ابنتها لتهنئة الست بطـة وعائلتهـا بالعيد. يتوافد بقية الجيران بعدها، الست عائشـة ونبيلـة ابنتهـا وفهمي أفندي ثم الست أسماء وابنتها ليلى وزوجهـا أبـو مـازن والخالة فاطمة. تقدم إلين الكعك للجميع ويقضون بدايـة النهـار والسمر والفرفشة. تبعث أصوات فرقعات البمـب مـن الشـارع ويتهادى النهار في سعادة ومرح. بعد الظهر، يذهب الشباب إلـى السينما ويعودون في المساء بعد أن يكون التعب قد حل بـالجميع بعد يوم العيد المليء بالبهجة والنشاط.

(٥١)

عزمت الحاجة فريدة على تنجيد الفـرش. بيتـت علـى حسنين المنجد منذ اليوم السابق وأوصته بالحضور مبكرا.

حضرت غرفة القعاد للتنجيد. ركنت الكراسـي والكنبـة بأحد جوانب الغرفة لإخلاء ساحة الغرفة لحسنين، لضرب القطن وحشو الفرش به.

بعد التاسعة صباحا بقليل حضر حسـنين المنجـد ومعـه القوس والمضرب. رجل يميل إلى القصر، في الأربعين من العمر تقريبا، يرتدى جلبابا رماديا نظيفًا ومكويا. يبدو الخجل على وجهه اللامع. يصفف شعره المدهون بالفازلين إلى الخلف، يبـدو مـن شعره، الضارب إلى الصفرة الفوضوية، إنه يصبغه بالأكسـجين. يزين إصبعه الخنصر، ذا الظفر الطويل، بخاتم ذهبي ضخم. ألقى التحية على الحاجة فريدة بصوته المبحوح من كثرة شـم غبـار القطن أثناء ضربه. قادته إلى غرفة القعاد التي سـيقوم بالتنجيـد فيها. دلته على الفرش المراد تنجيده وأغلقت باب الغرفـة عليـه حتى لا يتعفر البيت كله. طلبت من صف صف عمل الشاي لـه وقامت هي بتحضير صينية الإفطار.

انبعث صوت القوس الرتيب من خلف الباب المغلق وهو يقوم بضرب القطـن بنشـاط. زن.. زن.. زن.. زن. أوصـت

الحاجة فريدة صف صف بأن تلبي طلباته قبل أن تغـادر الشـقة مزمعة زيارة الست بطة وشرب القهوة معها هربـا مـن دوشـة التنجيد.

عادة بعد أن انتصف النهار. كان حسنين قد فـرغ مـن ضرب القطن. جهزت له الغداء وجلست تتسلى بسـماع الراديـو ريثما ينتهي حسنين من التنجيد وتستلم منه الفرش.

(٥٢)

غادرت نبيلة المدرج متعجلـة فـور انتهـاء محاضـرة الترجمة. دخلت إلى غرفة الطالبات وراجعت زينتها وهنـدامها. أخرجت إصبع الروج من حقيبتها ومرت به على شفتيها بسـرعة ثم رشت عدة رشات من البارفان خلـف أذنيهـا وعلـى جيـدها وصدرها. انبعثت الفرحة نورا على صفحة وجهها وهـي تغـادر الكلية في طريقها إلى مكتب شركة لوفتهانزا بشارع سليمان باشا.

كانت قد اتفقت مع سعيد على المرور عليه بالمكتب بعـد انتهاء العمل والذهاب معا إلى سينما راديو لمشاهدة فيلم لمـارلين مونرو. مرت على محل الزهور بشارع سليمان باشـا واشـترت باقة صغيرة من الورد البلدي الأحمر. ذائقتهما مشتركة في محبة الورد البلدي بألوانه المختلفة وخاصة الورد الأحمر. عرجت على محل الحلويات وبحثـت بعينيهـا عـن الشـيكولاته الكورونـا بالبسكويت. لمحتها بلونيها الأصفر والبرتقالي في جانب الفيترينة فأشارت للبائع إليها. يشتركان أيضا في تفضيل تلـك الشـيكولاته بالبسكويت، إصبعان مستطيلان في كل قطعة، يقتسـمانهما معـا وهما يتضاحكان.

دخلت بهمة إلى مقر شركة لوفتهانزا وتوجهت إلى مكتب سعيد. فتحت باب الغرفة التي يشاركه فيها زميله وصديقه نـادر.

رحبا بها ونهض سعيد لإحضار مقعد لها. قبل أن تجلس فضـت باقة الورد ووضعتها داخل الفازة الكريستال الصغيرة التي كانـت قد اشترتها له في عيد ميلاده الماضي.

تساءل نادر مستنكرا:

- وأنا... ألم تفتكريني بشيء؟ أجابته نبيلـة وهـي تدس يدها في حقيبتها لتستخرج الشيكولاته:

- شيكولاته بالبندق.. تفضل.

- والورد لكما، أنتما الاثنين... الورد بغرفتكما معا.

سألها نادر متخابثًا:

- وماذا عن الفازة؟... إنها له وليست لي.

أجابته نبيلة بمشاكسة لتضع حدا لاسترساله:

- لا يمكن أن تتساوى مع سعيد في كل شيء... ألا ترى ذلك ؟!

- غلبتني... أرفع الراية البيضاء.

علقت بثقة:

- ليس في الأمر جديد.

أجابها نادر مستسلما:

حرمت يا ستي... حقك علي.

اعتادت نبيلة على مشاكسات نادر، والتي تجيـد قهرهـا بسهولة. جلست تنتظر موعد انتهاء العمل، بينهما نهـض نـادر ليطلب لها مشروبا من البوفيه.

توجها بعد انتهاء العمل إلى سينما راديـو سـيرا علـى الأقدام. حجزا تذكرتين بالبلكون ووفقا بالممر الخارجي ينتظـران موعد الدخول.

خرج رواد حفلة الساعة الثالثة وبدأ جمهور حفلة السـاعة السادسة في الدخول. توجه سعيد ونبيلة إلى البلكون واستقرا فـي مقعديهما. لحظات قليلة ولمحا ميشيل ابن الست بطة ومعه أناهيـد يدخلان من باب البلكون. ارتبكت نبيلة ووجهت نظر سعيد. ارتبك هو الآخر لكنه تمالك نفسه بسرعة وربت على يديـدها مشـجعا إياها. توجه موظف السينما الذي يقود ميشيل وأناهيد فـي اتجـاه سعيد ونبيلة. لمحهما ميشيل فتمتم بكلمات خاطفة في أذن أناهيـد. لم يجدا مفرا من الاتجاه إليهما وتحيتهما. تبادلا كلمات قليلـة ثـم توجها إلى مقعديهما خلف سعيد ونبيلة بعدة صفوف. قـال سـعيد لنبيلة وهو يهدئ من روعها:

لا تقلقي ... نحن شباب وكلانا في الهوا سوا.

تمتمت نبيلة:

مفاجأة غير منتظرة ... لم نكن بحاجة إليها.

علق سعيد :

الموضوع بسيط. لابد أنهما يشعران بنفس الحرج.

بدأت نبيلة في الهدوء مع إظلام السينما وعلقـت وهـي تبتسم:

لم أتوقع أبدا أن تكون أناهيد على علاقة بميشـيل. إنهـا شديدة الخجل والهدوء.

أجابها سعيد:

الإنسان هو الإنسان.. أمام الحب ينتفي كل شيء. انهمكـا في مشاهدة توم وجيري. مع إضاءة الأنوار نهضا للخروج إلـى الكافيتريا في فترة الاستراحة. انتظر سعيد بلباقة حتى لحق بهمـا ميشيل وأناهيد وصاروا معا إلى الكافيتريا يتسامرون جميعا. بعـد نهاية الفيلم ودعوا بعضهم البعض بعد أن زال الحرج تماما وهـم يتبادلون التعليقات حول مارلين مونرو والفيلم.

(٥٣)

وقفت نجاة ابنة عم سيد البواب أمام باب شقة الست عائشة ونادت بصوت عالٍ :

يا نور ... نور ... تعالى نلعب الأولى.

فتحت نور الباب مسرعة وخرجت إلى نجاة. كانـت قـد عادت لتوها من المدرسة. اتجهتا ناحية شقة مدام هيلينا وطرقتـا الباب. كان اليوم هو الأحد، إجازة أنجيلا الأسبوعية. جرى كوستا الصغير وفتح الباب. سألته نور متعجلة:

- أين أنجيلا؟

اندفع كوستا الصغير إلى الداخل وعاد وهو يسحب أنجيلا من يدها عنوة.

بادرتها نور قائلة:

- هيا نلعب الحجلة.

وقفت البنات على بسطة السلم وبصحبتهن كوستا يتابعهن بفضول. سألت نجاة البنات:

- حجلة الصندوق أم حجلة العفريت؟ أجابت أنجيلا بعصبية على الفور:

- حجلة الصندوق، لا أحب حجلـة العفريـت دي.

أخرجت نجاة قطعة طباشير صغيرة من جيب جلبابها وشـرعت

ترسم حجلة الصندوق على أرضية بسطة السـلم الممتـدة بـين الشقتين.

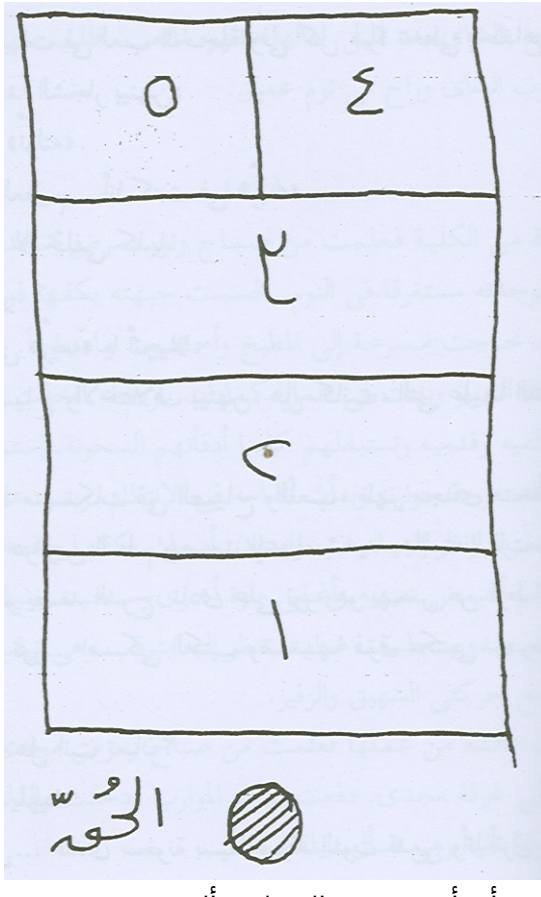

بعد أن أتمت رسم الحجلة سألت مستفسرة:

- أين الحقّ؟ أجابت أنجيلا متذكرة :
- أخذته نور في المرة السابقة.

اندفعت نور إلى داخل شقتهم وعادت بعد قليل ومعها علبة الورنيش المستديرة المملوءة بالرمل، والتي يستخدمونها في لعـب الحجلة ويطلقون عليها الحقّ.

اندمجت البنات في لعب الحجلة وفي كـل مـرة تخطـئ إحداهن وتتخلى عن الدور لزميلتها يبدأ الشجار بينهن:

أنت في "تولته".

لا والله العظيم... أنا كنت في "ربعه".

كذابة... لا تحلفي كذبا.

اسألي نور.

كانت في "ربعه" يا أنجيلا.

ويستمر الصياح والاختلاف بينهن. هل كانت، التي عليها الدور، في "تولته" أم في "ربعه".

بينما البنات منهمكات في الصياح واللعب، ظهر مجـدي متحاملاً على نفسه وهو يستند إلى درابزين السلم ويصعد بإعيـاء شديد. هللت البنات عند مرآه. كان يعرج بقدمـه وهـو يصـعد الدرج. نادى على نور وهو يهمس من فرط الإرهاق:

تعالى يا نور... امسكي الكتب وضـعيها فـوق مكتبـي.

جرت إليه نور وهي تسأله بقلق:

مالك... هل أنت تعبان؟ أجابها وهو يلهث:

لا تخافي... عندي سخونة بسيطة، وقد التوت قدمي وأنـا أنزل من الأتوبيس. أعطاها الكتب وتحايل على نفسه حتى وصل إلى غرفته. جلس على حافة السرير ليستريح قليلاً ونور تقف إلى جواره تراقبه. سألها بإعياء:

من بالبيت؟

صباح.

قولي لها أن تحضر لي كوبا من الشاي.

جرت نور إلى صباح بالمطبخ، بينمـا اسـتبدل مجـدي ملابسه بصعوبة وارتمى في الفراش.

جاءته صباح بالشاي بعد قليل. هالها مظهـره المتعـب. طلب منها قرصي أسبرين وكوب ماء. شرب الشاي وراح في نوم عميق.

(٥٤)

عادت نبيلة من الكلية فعلمت من صباح ونـور بمـرض مجدي. دخلت إلى غرفته ملهوفة فوجدته مسـتغرقًا فـي النـوم. تحسست جبهته بكفها فوجدته يعاني من سخونة شديدة. خرجـت مسرعة إلى المطبخ وأحضرت ماء باردا. عادت وجلست بجواره على حافة السرير وبدأت في عمل كمادات باردة له. أخذت تبـدل الكمادات على جبهته وكفيه وقدميـه وتسـتبدلهم كلمـا أدفـأتهم السخونة. استمرت على تلك الحال حتى هدأت درجـة حرارتـه وبدأت أنفاسه في الانتظام. ربتت على وجهه بحنان ففتح عينيـه بصعوبة ونظر إليها بحب وامتنان. أمسك بكفها ورفعه إلى فمـه. قبله وظل ممسكًا به ثم أغمض عينيه وأغفى مرة أخرى. سـحبت نبيلة كفها برفق وأحكمت غطاءه بهدوء. جلست صامتة تنظر إليه بترقب وهي ترقب تحرك صدره صعودا وهبوطًا مـع حركتـي الشهيق والزفير.

عادت الست عائشة من عملها فعلمت من صباح بمـرض مجدي. رمت حقيبة يدها واندفعت إلى غرفة مجدي. دفعت الباب الموارب ودخلت والقلق يعصف بها. ألقت نظرة ملهوفـة عليـه وهي تسأل نبيلة همسا:

- خير. ماذا به؟ أجابتها نبيلة موشوشة:

- كان محموما. قمت بعمل كمادات باردة له وهـو نائم الآن.

مدت الست عائشة كفها وجست جبهته. وجدت حرارتـه هادئة فاطمأنت بعض الشيء. دعت نبيلة لتناول الغداء، تحججـت نبيلة بفقدان الشهية وظلت مقيمة بجوار مجدي تراقب حالته بقلـق وتوجس.

رمضان جانا وفرحنـا به
بعد غـيابه وبقاله زمان
رمضان جانا أهلاً رمضان

تأخرت الجماعة في شراء ياميش رمضان. الست عائشة والحاجة فريدة والست بطة والست عايدة رزق الله، وأيضا مـدام هيلينا التي اعتادت الانضمام إليهن في شراء ياميش رمضان قبل حلول الشهر المبارك بعدة أيام. هذا العام، حل شهر رمضان قبل أن ينزلن لشراء الياميش. اشترت الحاجة فريدة والسـت عائشـة كمية محدودة من قمر الدين والتمر من عم قلدس البقـال لحـين نزولهن جميعا لتبضع لوازمهن من الياميش والمكسرات.

ثالث أيام شهر رمضان، وبعد الإفطار والراحة وسـماع الفوازير، التأمت الجماعة بشقة الست عائشة حسب الاتفاق، قبـل التوجه إلى محلات قويدر وخطيب بممر الكونتننتال بشارع فـؤاد. نزلن جميعا وسرن في طريقهن لشارع شبرا. استقللن أتوبيس ٢٥ المتجه إلى شارع فؤاد واتخذن مقاعدهن بالدرجة الأولى. لم يكن الأتوبيس مزدحما، فالناس لم تنشط بعد في النزول عقب الإفطار.

كانت محلات قويدر وخطيب مزدحمة كعادتها في شـهر رمضان. أخذت كل واحدة مهن لوازمها من الجوز واللوز والبندق

والتمر وقمر الدين وخلافه، حملن لفائفهن ووقفن بشارع فؤاد في انتظار تاكسي ليقلهن إلى شبرا عائدات محملات بخيرات الشـهر الكريم لا يستطعن العودة بالأتوبيس ومعهن كـل هـذه المؤونـة الوفيرة اشترك الجميع في شراء تشكيلة من المكسـرات للخالـة فاطمة وأسرة عم سيد البواب تبعا للعادة السنوية.

(٥٦)

لأن ميشيل قد تعود على السهر في المذاكرة، لذلك أُوكِلَت إليه مهمة إيقاظ الصائمين للسحور في شهر رمضان. طلبت منـه الخالة فاطمة في البداية إيقاظهم وقت السحور، تبعتها بعـد ذلـك الحاجة فريدة والست عائشة. اعتمد عليه الجميـع فـي إيقـاظهم واستسلموا للنوم مطمئنين إلى عدم فوات السحور عليهم.

في موعد السحور، يغلق ميشيل كتبه ومذاكراته ويـنهض لأداء مهمته. يبدأ من أسفل العمارة أولاً فيوقظ السـت عائشـة، يتبعها بالحاجة فريدة، ينقر الباب حتى تحضر إليه صـف صـف العبيطة وهي نصف نائمة. تصيح فيه بعصبية.

كفاية خبط ... خلاص سمعنا.

يصعد بعد ذلك إلى السطح ليوقظ الخالة فاطمة وعم سـيد البواب. يفضل ميشيل أن ينتهي بالخالة فاطمة حيث يميل إلـى أن يهدأ بالسطح لبعض الوقت منتشيا بنسمة الليل المنعشة وسـكينته الخلابة قبل بزوغ الفجر.

بعد تناول السحور، تحضر له الخالة فاطمة كوب الشـاي الساخن، يتناوله منها بامتنان، يستدفئ به فـي انتعاشـة السـحر، يرشفه باستمتاع قبل أن يـودعهم مغـادرا ... تصـبحون علـى

خير ... وأنت من أهله يا حبيبـي ... تشـيعه الخالـة فاطمـة الدعوات.

(٥٧)

انفطرت الحاجة فريدة بالبكاء بعد إفطار يـوم الجمعـة. مشهد يتكرر كل يوم جمعة بعد تناول الإفطار والحلوى. عنـدما يهم رشدي، الابن الأكبر للحاجة في الاستعداد للرحيل عائدا إلـى مقر عمله بشربين بمحافظة الدقهلية.

رشدي ضابط بوليس تخطى الثلاثين بقليل. يعمل بمحافظة الدقهلية منذ سنوات. يأتي إلى القاهرة لماما في بعض أيام الخميس لرؤية الحاجة والإخوة والأخوات. اندمج في حياته فـي شـربين ويقال إنه رافق ست أرملة جميلة كالقمر في المنصورة. يحضـر إليها من شربين ويقضي معها الوقت، بعد أن أشاعت أنـه ابـن عمها، ضابط المباحث الذي يحضر للاطمئنـان عليهـا وقضـاء مصالحها، بعد أن استقرت إقامتها في المنصورة لرعاية ميراثهـا من زوجها المتوفى. ويقال أيضا إنها تحتكم على فلوس كثيرة من زوجها العجوز، الذي كان يكبرها بأكثر من ثلاثين عاما ومـات دون أن يخلف ذرية. كتب لها كل أملاكه على حياة عينه بعـد أن لحست دماغه. أقوال مرسلة تناثرت مع طول غيابه فـي السـفر وانقطاعه عن الزيارات لفترة طويلة. أولاد الحرام كثيـرون ولا يتركون أحدا في حاله.

الحاجة فريدة قلبها يأكلها على ضناها، لذلك فهي تحـاول أن تتطرق إلى موضوع زواجه كلما واتتها الفرصة، لكنه دائمـا يزوغ عن الحديث بلباقة وبكلمات قليلة.

عن زياراته في رمضان فالأمر يختلف. يحرص رشـدي على الحضور إلى القاهرة كل يوم خميس ويغادر مساء الجمعـة، فيشاركهم بذلك في طعام الإفطار يومين كل أسبوع. إفطار الجمعة يجمع كل الإخوة والأخوات. تحضر أماني أخته الكبيرة من المنيل هي وزوجها يحيى الزيني وبصحبتهما الصغيرتان آمال وناديـة. يستأذن الأستاذ يحيى الزيني من والده الحاج حسنين الزيني، تاجر المانيفاتورة بالأزهر، والذي يعمل معه بدكانه، في عـدم العـودة للمحل بعد إفطار الجمعة طيلة شهر رمضان لزيارة حماته الحاجة فريدة. تحضر أيضا من خلوصي أخته تحية وزوجهـا الأسـتاذ وصفي علام مدرس التاريخ بمدرسة شبرا الثانوية للبنين. تحيـة تأخرت في الإنجاب رغم زواجها قبل أكثر من ثلاث سنوات، مما يضيف هما ثقيلاً إلى هموم الحاجة فريدة.

من مزايا حضور رشدي المتكرر في شـهر رمضـان، انصلاح حال صالح، فرشدي له رهبة خاصة عند صالح، خاصة بعدما ضربه علقة ساخنة ذات مرة تجرأ فيها علـى أمـه ورفـع صوته عليها. حزنت الحاجة فريدة حزنًا شديدا لتجرؤ صالح عليها في الكلام وأضمرت في نفسها أن تشكوه لأخيه الأكبر عنـد أول

زيارة. أخذه يومها رشدي إلى الغرفة، أغلقها بالمفتاح وعينك مـا تشوف إلا النور. سمعت أصوات الضرب والصراخ من صـالح مما أصاب الحاجة فريدة بالندم لإبلاغها رشدي. لم يتوقف رشدي عن ضربه رغم توسل الحاجة ووقوفها بالباب تستعطفه أن يكف.

رشدي قوي البنيان ومتمرس في تحقيقات المباحث. خرج يومها صالح من الغرفة وهو يعرج وبعينه اليسرى ورم وزرقـة من تأثير لكمات رشدي له. أخذ صالح يبكي ويولـول كالنسـوان طيلة الليل ولم يجرؤ بعدها على رفع صوته علـى أمـه. قبـل حضور رشدي، يحرص صالح على الإقلال من السهر والمواظبة على المذاكرة حتى يفَوت على الحاجة أي حجة للشكوى.

(٥٨)

شارف الشهر الكريم على الرحيل وأقبـل العيـد علـى الأبواب. ليلة العيد غنت الست أم كلثوم كالعادة " يا ليلـة العيـد آنستينا وجددت الأمل فينا ... يا ليلة العيد ". وصل رشـدي مـن شربين واستقبلته الحجة فريدة بالأحضان. أحضر معه زوجي بط من المنصورة، قال للحاجة طبعا إنهما من شربين، طلب من سالم وصالح أن ينزلا لإحضار قفص البط الذي تركه بمـدخل البيـت بجوار ثلاجة عم سيد البواب بعد إنزاله من التاكسي. قال لوالدتـه إنه أوصى بشراء البط قبل أسبوع وأمر بتزغيطه قبل إحضـاره معه.

أيقظت الحاجة فريدة رشدي وأخويه سالم وصالح لصـلاة العيد. انهمكت في إعداد مائدة الإفطار بمسـاعدة صـف صـف وتركت نادية نائمة لحين عودة المصلين.

تنامت أصوات صلاة العيد في الخارج منبعثة من جوامع شبرا، بدأت خافتة في البداية ثم ما لبثت أن تصاعدت تدريجيا مع قدوم المصلين وانضمامهم للصلاة. مع نور النهار البازغ جلجلت تكبيرات المصلين حتى ملأت أعطـاف الحـي والنـاس جميعـا وأضاءتها بالسكينة والصفاء.

عاد رشدي وإخوته بعد الصلاة. كانت الحاجة قد جهـزت مائدة الإفطار وأعدت لهم الشاي. تحلقوا مجتمعين حـول المائـدة يتبادلون التهنئة بالعيد ويقبلون على إفطار الحاجة فريدة الشـهي. تصاعدت بالخارج أصوات الصغار في بداية نشاطها صباح العيد وبدأت فرقعات البمب تدوي في بئر السلم.

طرق الباب فنهض صالح ليفتح. دخلت الست بطة وأختها إلين وخلفهما المهد إميل فرنسيس بضجيجه المحبـب وضـحكته المبهجة للتهنئة بالعيد. نهض الجميع لاستقبالهم وتوجهوا جميعـا إلى غرفة القعاد، بينما استأذنت الحاجـة فريـدة لعمـل الشـاي وإحضار الكعك والبسكوت. جلس الجميع يتسـامرون ويتبـادلون التهنئة بالعيد مشفوعة بالأمنيات الطيبة بعودة العيد على الجميـع بخير.

مرت أيام العيد في اللمة والفرحة. استعد رشدي للعـودة إلى شربين وبدأت الحاجة فريدة في البكاء كعادتها. ودع رشـدي الجميع وأعطى صف صف خمسة وعشرين قرشًا قبـل رحيلـه، بالإضافة إلى العيدية التي أعطاها لها أول يوم العيد. اعترضـت صف صف على رشدي وقالت له غاضبة :

لا يا اخويا ... اعطني فلوس فضة أحسن.

تحير رشدي فلم يكن معه فكة. تطوع صالح بأن يفكها لها بعد سفر رشدي. في اليوم التالي، أعطاها ثلاثة قروش تعريفـات

وأخذ في مقابلها الخمسة والعشرين قرشًا وهي من السـعادة فـي غاية.

(٥٩)

زاد الصدام في الفترة الأخيرة بين إيرين ابنة مدام هيلينـا وعباس الخريوطلي. إيرين هي السبب في الحقيقة، فقد أصـبحت عصبية في الفترة الخيرة وتثور على أهون سبب. لا تسـتطيع أن تخمن ما بينهما ... هل هما متزوجان فعـلاً؟ ... هـل تطالبـه بالزواج مثلاً؟ ... هل تغار عليه؟ ... وخاصة أنها تفاجئـه بـين الحين والآخر بالمرور عليه في المحل، مما يتسبب في إحراجـه أمام الصبيان، وأيضا أمام أبيه. إيرين غيورة بطبعها وعلى درجة لا بأس بها من التسلط. مستبدة أحيانًا، ولأن عباس سعيد معهـا، فهو لا يستطيع أن يتجاهلها. يحـاول جاهـدا تهـدئتها وتطييـب خاطرها يتوسل إليها بالهدايا والنقود، لكنها في فورات الهيجان، لا تتأثر بكل هذا، بل يمكن أن تقذفه بالهدية فـي وجهـه أو ترمـي النقود بعزم قوتها. في إحدى المرات رمت الفلوس مـن الشـباك فتطايرت تتهادى إلى الشارع ونزل عباس يلمهـا. تبـدأ الخنـاق بالعربي ثم سرعان ما تحيد إلى الإجريجية تُنفس بها عن غضبها. أصبح عباس يفهم في الشتيمة الإجريجي ويشتمها بها في سره.

اقترح عليها عباس، كمحاولة لاسترضائها، أن يسافرا في إجازة إلى مرسى مطروح، هناك بعيدا عن الدنيا. الـدنيا ربيـع والصيف على الأبواب وسيكون الجو مشجعا في مرسى مطروح

بعيدا عن القاهرة وخماسينها. يستطيعان أن يخلو بعضـهما إلـى بعض في هدوء مرسى مطروح المحبب، فتهدأ الأعصاب وتصفو النفوس. عباس لا يحب الصراعات والزعـل، صـاحب مـزاج ويحب الروقان والملاطفة. قال لنفسه، مطروح هادئة ورائقة قبـل الموسم، فنختلي ببعضنا البعض هناك ونصلح من الأمور ما تأزم.

استطاع بالملاطفة والمسايسة أن يقنعها بإجـازة مرسـى مطروح. استأذن عباس من والده في إجازة لمدة أسـبوع وتأهبـا للسفر.

(٦٠)

ودعت إيرين كريستينا بعد أن تركت لها نقـودا تكفيهـا لفترة الأسبوع التي ستتغيب فيها عن البيت هي وعباس. أوصاها عباس بأن تمر على الحاج الخربوطلي بالدكان في حالة احتياجها لأي شيء أثناء غيابهما. قالت لها إيرين أيضا إنها تستطيع الذهاب إلى جدتها والإقامة هناك إذا أرادت، لكن كريستينا فضلت البقـاء بالمنزل.

استقلا قطار الصباح إلى الإسكندرية ومنها إلـى مرسـى مطروح. وصلا إلى مطروح ليلاً. رحلة طويلة ومتعبة. اسـتقلا الكارتة إلى فندق البوسيت. كان الفندق قد ابتدأ الاستعدادت لموسم الصيف قبل بدايته الوشيكة.

وصلا منهمكين من إرهاق السفر. اغتسلا سريعا وتناولا عشاء خفيفًا ثم أخلدا إلى النوم من فورهما. راحا في نوم عميـق حتى الضحى. استيقظ عباس أولاً، نهض واغتسل ثم عاد لإيقـاظ إيرين. استيقظت بتكاسل وهو يقبلها لتنتبه. احتضنته لتسـكته ثـم نعست مرة أخرى. أخذ في تنبيهها برفق حتى استيقظت ونهضت للاستعداد للنزول إلى المطعم. أمضيا النهار مستلقين على البلاج. نزلت إيرين إلى الماء بنشاط، لكن عباس خشي من برودة المـاء. جلس على الشاطئ يرقبها وهو يشرب كأسا من الزبيب، مستمتعا

بانطلاق إيرين، ومتمنيا أن تكون قد بدأت في استجمام الإجـازة، بعد عصبيتها الزائدة في الفترة الأخيرة، والتـي نغصـت عليـه عيشته.

بصيص أمل على انفراج الأزمة لاح في المساء. بـدأت إيرين في دندنة خافتة أخذت تعلو تـدريجا معلنـة عـن صـفاء مزاجها. استرسلت بعدها في الغناء كعادتها. شجع ذلـك عبـاس على أن يطلب منها أن تغني له أغنيته المفضـلة. هـو لا يميـز معانيها، لكنها شرحتها له قبل ذلك. يحب لحن الأغنيـة وطريقـة غنائها الشجي، رغم جهله لكلماتها بالتفصيل.

جلسا في الشرفة يشربان الزبيب معا في هدأة الليل، البحر يمتد أمامهما على مرمى البصر، يوشوش في آذانهما وشوشـاته الليلية الآسرة على ضوء القمر. كانت البشائر تشي بأن إيرين قـد بدأت في الارتقاء إلى أعلى مراتب الروقان. ارتدت قميص النوم الأبيض الشفاف الذي يفضله عباس، تعطرت، بدأت تدلـله باسمه الذي اختارته له... بيسو... لعب الزبيب برأسها، اقتربت منه في دلال وجلست على ساقيه ثم كمشت في حضنه وهي تغنى بصوت حالم خفيض. شرعت تقبله وتداعبه، فككت أزراره وبـدأت فـي نزع ملابسه. حملها بين زراعيه إلى الفراش ووسدها به. انـدس إلى جوارها وكانت ليلة... عوضته عن صخب الأيام المنصـرمة التي عانى فيها كثيرا.

(٦١)

مشهد آخر لا يقل عذوبة كان يجري بالقاهرة فـي نفـس الوقت في شارع جزيرة بدران بشبرا. في منزل إيرين أيضا.

عندما علمت كريستينا بسفر أمها، أبلغت مجدي بـالخبر، طلبت منه أن يجيء للمبيت معها بعد سفر أمها.

كانت مفاجأة لمجدي... وأية مفاجأة ؟!... لـم يسـتوعبها للوهلة الأولى... تصور... أذهب إلى بيت كريستينا... أن تتحقق هذه الأمنية التي عبرت خيالي كالأحلام بعيـدة المنـال... لا... مستحيلة المنال... أن أرى منزلها من الداخل... والـذي حفظـت معالمه من الخارج عن ظهر قلب... أتجول فيه بحرية... أن أرى غرفتها... أطأها بقدمي... أعاين سريرها... أشياءها الحميمـة... مرآتها... دولاب ملابسها... فرشاة شعرها... زجاجة عطرها... كل تفاصيل حياتها الصغيرة... أي هدية من الدهر... ليس الأمر كذلك فقط... بل يمكنني أن أبيت معها فـي بيتهـا... أشـاركها فراشها... وحدنا... أعود إلى البيت فأجـدها قـد جهـزت لـي الحمام... ترى هـل تجهـز اليونانيـات الحمـام للرجـل مثـل المصريات؟ ... لم لا ... لقد ولدت بمصر... حتى لو لم تجهـز الحمام... سأجهزه أنا... غير معقول... لا أستطيع أن أتوقف عن الاسترسال في الأحلام... سـأطلب منهـا تحضـير العشـاء...

كريستينا... ما رأيك في تدليلها باسم كـريس؟... أو تينـا؟... لا لا... إنني أحب مذاقه علـى لسـاني... جرسـه فـي أذنـي... كريستينا... سآخذ حماما سريعا ريثما تحضرين لنـا العشـاء... تسألني من المطبخ... ماذا تحب أن تأكل؟ عاوز بيض بالبسطرمة وحتة جبنة... آخذ حماما سريعا... حسنًا... لن أرتدي ملابسي... سأستعير روب دوشامبر من زوج أمها... لابد أن الخواجة عباس عنده روب شيك... مجدي... هيـا العشـاء جـاهز... البـيض سيبرد... سأبدأ في الأكل... أنا جوعانة... سأجيء حالاً... أيـن الفوطة...

يستطرد في سيناريو الفيلم الذي تشكل بخيالـه... تكـاد تذهب الفكرة بعقله.

يوم سفر إيرين وعباس، قال مجدي للست عائشـة إنـه سيذهب إلى صديقه بهاء للمذاكرة معه والمبيت طرفه. لـم يكـن مجدي معتادا على المبيت خارج البيت، لكنه ابتكر تلـك الحجـة على وجه السرعة. لم يجد صعوبة في إقناع الست عائشة بمبيتـه طرف بهاء بحجة الاستعداد لامتحان هام، يحتاج مجدي لمشـورة بهاء في بعض تفاصيل مادتـه، والتـي فاتـه حضـور بعـض محاضراتها.

اتفق مجدي مع كريستينا، أنه سيتصل بها تليفونيـا بعـد عودتها من المدرسة، ليتأكد من سفر أمها قبل أن يحضـر إلـى

منزلها. أبلغته بسفر أمها عند اتصاله بها. قال لها بفـرح... أنـا مسافة السكة.

طار مجدي إلى بيت كريستينا. حام حول المنزل قبـل أن يهم بالدخول إليه. لمحته كريستينا من النافذة المواربة التي كانـت تقف خلفها مترقبة وصوله. في لحظة خاطفة، وبعد أن تأكد مـن أن أحدا لا يلحظه، مرق إلـى داخـل البيـت وصـعد الـدرج كالصاروخ، كريستينا تسكن في الدور الثـاني، مـرت لحظـات الصعود عليه كدهر، كان يخشى لقاء أحد من الجيـران. واربـت كريستينا الباب الذي انبعثت من خلفه كلمات أغنية يونانية تخـف لاستقباله. لحظات من المغامرة غير المحسوبة، لأنه من المستحيل حسابها، كما أنه لا يمكن عدم خوضها. لحظات على الحافة بـين السقوط في الهاوية، أو الصعود إلى الجنة. لحظـات لابـد مـن اجتيازها لاقتناص المتعة عنوة. بدونها لا يصبح للحياة طعـم ولا معنى.

دلف مجدي من الباب مقطوع الأنفاس وأحكم إغلاق الباب بسرعة، ربنا ستر، إمعانًا في الاطمئنان، أغلق الباب بالتربـاس. التقط أنفاسه وهو زائغ النظرات. تحرك في اتجاه المائدة. وضـع دوسيه الأوراق الذي في يده على المائدة وسحب كرسيا لـيجلس. اقتربت منه كريستينا وابتسامة ساحرة ترتسم على وجهها. سحبها لتجلس على رجليه واحتضنها بقوة. دس رأسـه فـي صـدرها

وأغمض عينيه. ظل على وضعه هذا لفترة ليست بالقصيرة. كان يشعر أن قدميه لن تقويا على حمله، كمـن أنهـى لتـوه سـباقًا للماراثون. داعبت كريستينا شعره وهي تسأله هامسة:

- ألا تشعر بالجوع؟

رفع مجدي رأسه ونظر إليها بحنان دون أن يجيبها.

قالت له:

الغداء مكرونة سباجيتى ولحم بارد.

أجابها مجدي وهو يدفعها برفق وينهض محتضنًا إياها:

سنأكل فيما بعد.

قبلها قبلة طويلة، سألها بعدها:

- ألن تريني شقتكم؟

سحبته من يده وتوجهت إلى غرفة نوم أمها أولاً. غرفـة مؤثثة ببساطة، من الخشب الأرو الفاتح، لها شباك تزينه سـتارة زرقاء، تحتها ستائر شفافة، أرته بعدها غرفة المعيشـة المؤثثـة بصالون مريح، تجولت به بين المطبخ والحمام ودورة المياه ثـم انتهت بغرفتها. دخل معها إلى غرفتها وهو يفور بالفضول. داف إليها وأخذ يدقق في تفاصيلها. سرير متوسط الحجـم فـي أحـد جوانب الغرفة، بجواره دولاب على الحـائط المجـاور. مكتـب صغير يواجه السرير بجواره تسريحة تعلوها مرآة. صورة ملونة لإلفيس بريسلي على الحائط المجاور للسرير، تحتها رسم يـدوي

ملون لقلب يخترقه سهم. تتوسط الحائط الذي يعلو المكتب صورة لعبد الحليم حافظ.

مكث مجدي برهة يتأمل التفاصيل الدقيقة للغرفـة التـي طالما حاول أن يتخيلها كلما وردت كريستينا إلى خاطره وهو في منزله، أو أثناء مروره ببيتها في شارع جزيرة بدران، عندما يهزه الشوق إليها بين لقاء ولقاء. شعر بالألفة فـي غرفتهـا ووسـط محتوياتها البسيطة. قطعت تأملاته متسائلة:

هل تعجبك غرفتي؟

نظر إليها بابتسامة ودود وأجابها قائلاً:

- لكنني أغار من إلفيس بريسلي.

سألته متخابثة:

ولماذا إلفيس بريسلى بالذات؟. هناك صورة عبد الحلـيم أيضا.

السهم مصوب إلى قلب إلفيس بريسلى وتضـعينه فـوق سريرك.

قهقهت كريستينا وهي ترنو إليه بنظرة ملؤهـا الشـقاوة. سحبها من يدها وتلقاها في حضنه. كانت طيعة بين يديه. صوبت إلى عينيه نظرة مفعمة بالنداء والرغبة والاستسلام. استغرقا فـي قبلة يلهبها الشبق. قادها برق إلى الفراش وارتميا عليه.

لم يتمالك نفسه بمجرد أن استقر فوقها، وصل إلى الذروة وهو مازال بكامل ملابسه، شعر بعدها بالإحباط والارتباك. ابتلت ملابسه فشعر بخجل شديد. استأذنها فجأة في الذهاب إلى الحمـام وقفز مغادرا الغرفة.

نهضت كريستينا قلقة. خرجت إلى الصالة ثم عادت مـرة أخرى إلى الغرفة. مرت اللحظات طويلة عليها أثناء غياب مجدي بالحمام. عاد مجدي بعد أن اغتسل وهو يشعر بـالحرج. اقتـرب منها مترددا وأمسك يدها. احتضنها وقبلها ثم سألها:

ألا تشعرين بالجوع؟

أومأت برأسها علامة الإيجاب.

قاما معا إلى المطبخ واشتركا في تحضير الطعام. مكرونة سباجيتي ولحم بارد مقطع شرائح رقيقة. وضعا الأطباق والأدوات على طاولة صغيرة بالمطبخ، أتضح لمجدي أنهم يستخدمونها فـي تناول وجباتهم لوجود ثلاثة كراسي حولها. جلسا يتناولان الطعام. سألها مجدي:

ألا يوجد شيء للشرب؟

سألته كريستينا بتلقائية:

هل أنت عطشان؟. يوجد ماء وبيبسى كولا.

أجابها مجدي ضاحكًا:

ليس هذا ما أريد. ألا يوجد عندكم أوزو أو براندي؟

قالت كريستينا متداركة وهي تنهض من مقعدها:

- ماما عندها زبيب.

ذهبت كريستينا لإحضار زجاجة الزبيـب بينمـا نهـض مجدي وفتح الثلاجة لإحضار الثلج. أحضر كوبين أيضـا عنـدما عادت كريستينا. صب الكأسين ورفع كأسه في مواجهتها قائلاً:

في صحة أول يوم لنا معا.

كان للكأسين أثرهما المحمود نظرا لعدم تعودهمـا علـى الشراب. عندما أنهيا طعامهما كانا قد دخلا في خدر لذيذ. حمـل مجدي كريستينا على ذراعيه وهو يتذكر الأفلام السينمائية ودخل بها إلى غرفتها. راحا في نشوة عارمة دون أن يشعرا بالوقـت. تخلصا من ملابسهما والتحما ببعضهما البعض في شبق ملتهـب. انتبه مجدي جيدا حتى يحافظ على بكارتها. كان يبذل مجهودا فائقًا للتحكم. هبط الليل عليهما فغرقت الغرفة في ظلام دامس. بمرور الوقت وتنامي الرغبة، كانت مقاومة مجدي تضعف، أخذ يستجمع تعقله وقدرته على التحكم بصعوبة. فجأة انهارت كل قـواه فـي التحفظ والتعقل واعتراه جنون شبقي لا يلوى على شيء، أشـعلته سخونة كريستينا وهياجها الصاخب. التحم بها فندت عنها صرخة ملتاعة بالارتواء.

حدث ما كان يجاهد في تجنبه. حلت به لا مبالاة مفاجئـة وواصلا التحامهما ذائبين في متعة اللحظة. لـيكن مـا يكـون..

استوعبتهما اللحظة تماما وأحكمت هيمنتها فنسيا العـالم حولهمـا وأزاحا عن كاهليهما كل الهواجس والحسابات.

بدأت كريستينا تشكو من إحساس بالألم. نهـض مجـدي وأضاء النور. عاد من فوره ليطمئن عليها. كانت علامات الألـم ترتسم على ملامحها. نظرا إلى الفراش فلمحا بقعة من الدماء.

بدأ الوعي لديهما يستيقظ. جثمت لحظات ثقيلة ثقل الزمن على صدريهما. بدأت كريستينا في أنين خافت، بعـدها تسـاءلت ملتاعة:

كيف حدث ذلك؟

لم يحر مجدي جوابا وألجمه الصمت

كررت كريستينا سؤالها عدة مرات في انزعاج هيستيرى. بدأ مجدي يتمالك نفسه تدريجيا فاحتواها في صدره وربت عليها. قال لها في حنان محاولاً تهدئة روعها:

- ألسنا متفقين على الزواج؟.. لا تخشي شيئًا.

دست رأسها في صدره وراحت في البكاء.

احتواها مجدي طويلاً في حضنه وهو يـداعبها ويربـت عليها. حاول أن يشتت انتباهها فسألها:

ألا تشعرين بالجوع؟

نظرت إليه في ضياع وحيرة، فواصل:

هيا بنا نأكل. إنني أشعر بجوع شديد.

لم تحرك ساكنًا. جذبها من ذراعها فاستسلمت له. قاما إلى المطبخ عاريين كما ولدتهما أمهما.

جلسا يأكلان في هدوء. كريستينا تسرح بأفكارها بعيدا ومجدي يفتش في ذهنه عن حديث يفتحه بلا جدوى. أخيرا فتح الله عليه فسألها:

ما رأيك في كأس من الزبيب حتى نهدأ قليلا؟

لم تجب كريستينا بكلمة وواصلت ذهولها.

كان الزبيب بالمطبخ على الطاولة أمامهما منذ وجبة الغداء. مد يده وسحب الزجاجة ثم ملأ كأسيهما. أحضر الثلج والماء وأعطاها كأسها. تناولته بلا مقاومة. شربا الكأسين أثناء العشاء. أدت الخمر دورها في تهدئتهما وإخراجهما من حالة التوهان والارتباك.

انسحبا إلى غرفة النوم مرة أخرى ودخلا إلى الفراش. احتواها بين ذراعيه. أخذ يربت عليها في حنان ويداعب جسدها. بدأت النشوة تدب في جسديهما وتلهب حواسيهما تدريجيا. اشتعلا مرة أخرى. نسيا الحاضر والماضي والتحما ببعضهما البعض مرة أخرى. ناما على التحامهما حتى الصباح.

(٦٢)

لم تذهب كريستينا صباح اليوم التالي إلى المدرسة. ظـلا معا بالفراش حتى انتصف النهار. التصقت كريستينا بمجدي ولـم تشأ أن تتركه يبتعد عنها ولو للحظة. كلما هم بـالنهوض سـحبته إليها في لهفة ورجاء. هو الملاذ والمرفأ. الحبيـب والأب الـذي افتقدته مبكرا. الراحة والأمان.

بدأ مجدي التفكير فيما سيفعله. يريد أن يتصـل بالبيـت ليبلغهم بأنه سيتأخر في العودة. ترى متى سيعود؟. لو كانت لـه حرية الاختيار لما عاد. ماذا سيقول لهم؟. لا يهم. سيتصـل بهـم ويترك الأمر مفتوحا. سيبلغهم في البداية بأنه سيتأخر في الكلية... ثم... ليحدث بعدها مـا يحـدث. ليـنعم باللحظـة، بالـدفء... بالتلامس... بشحنة الروح والجسد.

اتصل بالمنزل، ردت عليه نبيلة، كان يتمنـى أن يبلغهـا الحقيقة، الحقيقة كاملة، كما هي، بلا تزويق، بعد حـديث مـرح خاطف، أبلغها بأنه سيتأخر بالكلية حتى المساء. ساعتها... يحلها ربنا.

في المساء، لم يستطيع أن يقاوم رغبته في المبيـت مـع كريستينا. لم تكن ستمسح له. اتصل أولاً بصديقه بهاء وأبلغه بأنه سيبيت طرفه تلك الليلة أيضا. أشبعه بهـاء سـخرية ومشاكسـة.

اتصل بعدها بمنزله. ردت عليه الست عائشة والدته. استمعت إليه على مضض وهو يبلغها ببياته لليوم التالي طرف صديقه بهاء. لم يطمئن قلبها.

(٦٣)

اعتادت الجماعة على الذهاب إلى حلوان مرة كـل عـام على الأقل أثناء العام الدراسي لفسحة الأولاد. في الحقيقة، كانـت الفسحة للكبار أيضا. يوم بكامله في الشـمس والهـواء الطلـق. يذهبون يوم الجمعة لكي تشاركهم الست عائشـة فـي إجازتهـا الأسبوعية. يذهبون عادة في الشتاء لكنهم تأخروا هذا العام. مـع ذلك لم يشاءوا أن يقطعوا العادة.

حضرت إلين أخت الست بطة ساندوتشات الكفتـة التـي يحبونها من أيديها. الحاجة فريدة دمست الفول وأرسـلت صـف صف إلى الفرن لشراء الخبز الصابح. قامت بإعداد ساندوتشـات الفول بالزيت والليمون. حضرت أيضا بعض ساندوتشات الفـول بالطماطم التي تحبها ستاسيا وزينب ابنة عم سيد. السـت مـاري خوري عملت حلة محشو ورق العنب الذي تشتهر به. تضعه على نار هادئة طول الليل فيصبح مثل الزبـد. تسـتحلبه بلسـانك ولا تحتاج إلى مضغه بأسنانك. الحلو كان من نصيب الست أسماء أم مازن، فقد قامت بعمل صينية بقلاوة بالبندق والزبيب.

في التاسعة من صباح الجمعة، تجمعوا جميعـا بشـقة أم مازن بالدور الأرضي ومعهم حاجياتهم. الست بطة وإلين أختهـا ووهيبة الخادمة. الست عائشة ونبيلة ونور وصباح. جاءت الحاجة

فريدة ونادية وصف صف ونزلت الخالة فاطمة وأولادهـا علـي وأحمد وزينب ونجاة. لحقت بهم ستاسيا وأولادها جورج وميكيس ويانيس وأخيرا الست ماري خوري وجيهان والست عايـدة رزق الله وابنتها آمال. ما شاء الله.

مظاهرة من الحبايب وأولادهم تحركت في اتجاه شـارع شبرا. الست عائشة نبهت على الكبار بوضع أعينهم جيـدا علـى الصغار. استقل الجميع ترام ٣٠ المتجه إلى باب اللـوق، هنـاك انتظروا قدوم مترو حلوان. صعد الجميع بسرعة عند قدوم المترو ليلحقوا بمكان يكفيهم جميعا. جلس الكبار يتسامرون بينمـا أخـذ الصغار في مناوشة بعضهم البعض وسط نهر وتوبيخ مـن هنـا ومن هناك.

وصل الركب إلى حلوان وتوجهوا إلى الحديقة اليابانيـة. افترشوا ملاءاتهم التي أحضروها معهم وجلسوا جميعـا لتنـاول الطعام. انتشر الأولاد بعدها للعب ور كوب العجل حولهم وجلست النسوة يثرثرن في أمور الدنيا. بعد تناول طعام الغـداء وشـرب الكازوزة، لملموا حوائجهم وتمموا على الصغار قبل أن يتوجهـوا إلى محطة مترو حلوان، عائدين إلى شبرا مع الغروب.

(٦٤)

تنامى صوت شجار الست بطة مع المهندس إميل زوجها بعد دخولهما إلى غرفة النوم. يبدو أن المهندس إميل قـد غاظهـا قبل النوم كعوائده. هو ماهر للغاية في إثارة حفيظتهـا بأعصـاب هادئة، حد البرود. بمجرد أن تبدأ في الثورة، ينفجـر هـو فـي الضحك من قلبه ويعجز عن التوقف.

بدأت الست بطة في البكاء بصوت مسموع. لم يكن ميشيل بالمنزل. هرولت إلين أختها ووهيبة الخادمة نحو غرفة نوم الست بطة وهما في شدة الارتباك. أخذت إلين تدعو للعذراء أن تكـون العواقب سليمة. وقفت على باب الغرفة المغلق، لا تجـرؤ علـى المواصلة أكثر من ذلك. نادت على أختها بهلع:

خير يا بطة... ماذا حدث؟

نادت عليها بطة بصوت مختنق بالبكاء قائلة:

ادخلي يا إلين... تعالي شوفي أعماله.

مدت إلين يدها إلى أكرة الباب يتردد وهي تتمتم:

باسم الصليب.

فتحت الباب ببطء ومدت رأسها بحذر.

كانت الست بطة تجلس على حافة السرير وهي ترتـدي قميص نوم أحمر شفتشي بكامل زينتها، وزوجها المهندس إميـل

ينام على السرير ووجهه للحائط معطيا إياها ظهره ومستغرقًا في نوبة من الضحك.

تساءلت إلين في بلاهة:

خير يا بطة ؟!..

أجابتها الست بطة وهي منفطرة في البكاء:

- يقول إن شكلي مثل البلياتشو. نـام وأعطـاني ظهـره ونازل ضحك.

وقفت إلين كالمبهوتة حائرة لا تدري ماذا تفعل بينما يعلق المهندس إميل، كأنما يكلم نفسه:

كل واحد ينام على الجنب اللي يريحه... إيه يا خويا دا.

أضافت الست بطة:

طول عمره كاسر خاطري.

ابتسمت إلين ابتسامة خافتـة وقالـت لتطيـب خاطرهـا ولتستسمح زوج أختها في نفس الوقت:

لا يصح هذا يا إميل. لا تكسر بخاطرها. بطة كالقمر ولا يوجد مثلها.

أجابها إميل وهو يهتز من الضحك:

- حقيقي... لا يوجد مثلها.

ثم أضاف بصوت خفيض:

ولا مثلك في العبط.

(٦٥)

جاءت كريستينا إلى منزل جدتها مدام هيلينا وخرجت من فورها إلى الشرفة قاصدة مجدي. نظرت بقلـق ناحيـة شـرفته وتحركت بعصبية تذرع الشرفة جيئة وذهابا. نادت على أنجـيلا بصوت عال كعادتها لتنبيه مجدي بوجودها. سمع مجدي صـوتها فخرج مسرعا إلى الشرفة. أشارت إليه إشارة لم يستوضحها جيدا، لكنه فهم منها أنها تريده أن يتبعها.

غادرت كريستينا منزل جدتها ونزلت إلى الشارع. سارت في اتجاه شارع شبرا. نزل مجدي خلفها وتبعها مسرعا. لحق بها عند ناصية شارع شبرا.

لاحظ أن وجهها ممتقع فسألها في قلق:

ماذا بك؟

أجابته بارتباك:

لقد تأخرت الدورة الشهرية.

نزل الخبر كالصاعقة على مجدي فألجمه لبرهة. استجمع نفسه وسألها:

متى كان موعدها؟

منذ خمسة أيام.

ألم تتأخر من قبل؟

تجيء دائما في موعدها بانتظام. قد تتأخر يوما أو يومين على الأكثر.

تفكر مجدي حائرا ثم قال بدون تركيز:

خمسة أيام ليست بالمدة الطويلة.

أمسكت بكفه واعتصرتها وهي تقول بهلع:

إني خائفة.

اقترح عليها مجدي أن يذهبا إلى كازينو رومانس بـآخر شبرا ليتشاورا في الأمر.

استقلا الترام المتجه إلى آخر شبرا وجلسا واجمين. دخلا إلى كازينو رومانس وتخيرا طاولة جانبية في أحد الأركان الهادئة بعيدا عن الازدحام.

جاء الجرسون فسألها مجدي:

- ما رأيك في الآيس كريم؟

مجدي يعلم أنها تحب الآيس كريم، لذلك حاول أن يطلـب لها شيئًا محببا لديها. طلب عصير ليمون لنفسه وجلـس مرتبكًـا يبحث عن كلمات يبدأ بها حديثًا.

قطعت كريستينا الصمت متسائلة:

ماذا سنفعل؟

أخذ مجدي يقضم أظافره بعصـبية وهـو يفكـر. مـاذا سيفعلان حقًا؟ يجب أن يفكر بسرعة. قال لها ليطمئنها:

- خمسة أيام ليست بالمدة الطويلة. دعينا ننتظر قليلاً.

سألته بنفاد صبر:

إلى متى سننتظر؟

سرح مجدي بفكره وهو يواصل قضم أظافره بعصبية ثم قال:

لننتظر أسبوعا آخر على الأقل.

سألته بخوف:

ماذا لو لم يحدث شيء؟

أجابها وهو ذاهل:

لا تستبقي الحوادث.

قالت له بعصبية:

الوقت يمر ويجب أن أعرف ماذا سأفعل.

سأبحث عن طبيب أمراض نساء عن طريـق الأصـدقاء وأشاوره في الأمر.

جاء الجرسون بالآيس كريم والليمون. أخـذت كريسـتينا ملعقتين من الآيس كريم بدون شهية ثم تركته. جلسا صامتين بقية اللقاء ثم غادرا الكازينو بعد أن اتفقا على اللقاء في اليوم التالي.

(٦٦)

لم يستطيع مجدي التركيز في المذاكرة ذلك اليـوم. أخـذ يفكر بعمق ويبحث فيمن يستعين به من الأصـدقاء. لا يسـتطيع مفاتحة أحد من أصدقائه في البيت، لا زاريه ولا رورو. يجب أن يبحث عن صديق لا يعرف كريستينا ولا عائلتها. هكذا فكر فـي البداية، لكنه لم يستطع فيما بعد أن يحجب عنهما الأمـر عنـدما اضطربت أحواله وظهر عليه الارتباك وعدم الانتظام بالكلية.

اتصل بصديقه بهاء وسأله إن كان يستطيع أن يدله علـى طبيب أمراض نساء أفاده بهاء بأنه لا يعرف أحدا. استفسر منـه عن السبب في احتياجه لطبيب أمراض نساء فشرح له أنه متورط في موضوع حمل مع فتاة. أبلغه بهاء بأنه سيسأل أخاه رمـزي، الذي يعلم أن أحد أعز أصدقائه بالسنة النهائية بكلية الطب.

اتصل مجدي أيضا بصديقه علـي. كـان علـي زميلـه بالثانوي، استمرت صداقتهما بعد افتراقهما بالدراسـة الجامعيـة ودخول علي كلية الصيدلة. علي قريب إلى قلبه ويرتـاح إليـه. طلب منه لقاءه للضرورة. تواعدا على اللقاء بمحـل إكسلسـيور بشارع سليمان باشا. شرح مجدي لعلي صديقه موضوع ورطتـه مع كريستينا واحتمال حملها. فكر علي مليا في الأمـر ثـم قـال لمجدي:

- محسن ابن خالي طبيب أطفال. سأسأله إن كان يستطيع أن يرشح لنا أحدا من زملائه أطباء النساء.

نبهه مجدي قائلاً:

- يجب أن يقبل الطبيب القيام بعملية إجهاض.

طمأنه علي قائلاً:

- سأبحث الأمر بالتفصيل مع محسن ابن خالي.

(٦٧)

مر أسبوع من القلق والتوتر. كـان مجـدي وكريسـتينا يلتقيان يوميا. بمرور الأيام كانت حالة كريستينا العصبية تـزداد سوءا. ما تزال العادة الشهرية متأخرة. ارتبك مجدي في دراسـته ولم يعد قادرا على التركيز في المذاكرة، رغم أن الامتحانات على الأبواب يذهب إلى الكلية ذاهلاً ويحضر المحاضرات كالمغيـب. فقد شهيته للطعام وأفرط في التدخين. اعتـراه شـحوب وهـزال تحجج للست عائشة أنه بسبب إجهاد الاستعداد للامتحانات، عندما سألته مستفسرة.

رتب علي موعدا مع طبيب أمراض نساء بإمبابة، زميـل لابن خاله محسن طبيب الأطفال وأبلغ مجدي به.

في الموعد المحدد، مر علي على مجدي بالكلية. توجهـا إلى عيادة الطبيب بإمبابة. طمأنه علي في الطريق بـأن الطبيـب يقوم بعمليات إجهاض في عيادته. قال له:

المهم ألا يكون الحمل متأخرا. هذا ما قاله محسن.

تم تم مجدي بقلق:

ربنا يستر.

سأله علي:

هل تعرف منذ متى تم الحمل؟

أجابه مجدي:

منذ شهر تقريبا. هـذه أول دورة شـهرية تتـأخر عـن موعدها.

طمأنه علي:

- بسيطة إن شاء الله. هذا حمل جديد. لا تقلق.

حاول علي أن يخفف من وطء الأزمة على صديقه فسأله:

- هل البنت حلوة؟

ابتسم مجدي ابتسامة باهتة ولم يرد.

نزلا من الأتوبيس بميدان الكيت كات. أخرج علي الورقة المكتوب بها العنوان من جيبه وسارا على هدى الوصـفة. دخـلا إلى شارع ضيق واهتديا إلى عنوان العيادة بيت قـديم ذو مـدخل متواضع يفتقر إلى النظافة. صعدا الدرج المتآكل حتـى الطـابق الثالث حيث توجد عيادة الطبيب. باب خشبي له شراعة زجاجيـة مشروخة وتعلوه يافطة كتب عليها:

الدكتور رزق جاد رزق. إخصائي أمراض نساء وولادة. ضغط على جرس الباب. انتظر قليلاً فلم يفتح أحد. نقر بإصـبعه على زجاج الشراعة برفق. فتحت سيدة ترتـدي بـالطو أبـيض مفتوحا فوق فستان متواضع أسود اللون. أتضح فيما بعـد أنهـا الممرضة. سيدة في العقد الخامس من العمر وتميل إلى البدانـة. دعتهما للدخول وأجلستهما بصالة الانتظار ريثما تبلـغ الـدكتور

بقدومهما بعد أن قدم لها علي نفسه وطلب منها إبلاغ الدكتور أنه من طرف الدكتور محسن درويش.

عادت الممرضة بعد قليل وطلبت منهما الانتظار.

جلسا في الصالة ينتظران في صـمت بجـوار المكتـب المعدني الصغير الذي تستعمله الممرضة. جال مجدي بنظره فـي أرجاء الصالة التي لا تحتوى إلا على مجموعـة مـن الكراسـي القديمة المصفوفة على الجوانب بإهمال، بالإضافة إلـى طاولـة صغيرة قديمة في منتصف الصالة، عليها مجلة منزوعة الغـلاف وأوراقها مقطوعة الحواف. تتدلى خيوط العناكـب مـن أركـان السقف.

طال انتظارهما فتعجبا لهذا الانتظار، رغم أن العيادة بـلا مرضى. شعر مجدي بالقلق من منظر العيادة والممرضة. الجـو العام لا يشجع ومفعم بالكآبة. سمعا صوت جرس حـاد نهضـت على إثره الممرضة ودعتهما للدخول إلى غرفة الطبيب.

نهض الطبيب من خلف مكتبه لتحيتهما. شـاب تخطـى الثلاثين من العمر، أصلع ويرتدي نظارة نظر سميكة، تظهر عيناه من خلف زجاجها متسعتان بشكل غير طبيعي ومنحرفتان بعيـدا عن بعضهما البعض كأنهما في حالة من التنافر. يبتسم ابتسامة لا مبرر لها من آن لآخر.

جلسا قبالته فحول نظرة بينهما وهو يتساءل:

- من منكما الدكتور علي.

تنحنح على وهو يقدم صديقه إليه مشيرا بيده.

الباشمهندس مجدي صديقي، وأنا علي.

أهلاً وسهلاً، كيف حال الدكتور محسن.

بخير والحمد لله.

رانت لحظة صمت قطعها الطبيب متسائلاً:

خير... الدكتور محسن كلمني عن عملية كحت.

تلعثم مجدي فتولى عنه علي التوضيح:

حالة حمل حدثت بالخطأ لفتاة يا دكتور... وأنـ ت تعلـ م طبعا.

كم عمرها؟

أجاب مجدي متشجعا:

ثمانية عشر عاما تقريبا.

تساءل الطبيب:

ومدة الحمل؟

أجابه مجدي:

الدورة الشهرية تأخرت لمدة أسبوعين تقريبا.

صمت الطبيب قليلاً ثم قال لهما:

أحضرا الفتاة بعد غد. الساعة الثالثة بعد الظهر، وتكـ ون صائمة سأله مجدي متلعثما:

هل العملية خطيرة يا دكتور؟

ابتسم الطبيب ابتسامة باهتة وهو يجيبه:

هذه عملية تنظيف بسيطة.

تساءل مجدي بحياء:

والأتعاب يا دكتور.

عشرون جنيها، العملية والتخدير.

نهض مجدي وعلي للانصراف. حياهما الطبيـب وهـو يكرر:

بعد غد، الساعة الثالثة وتكون صائمة.

(٦٨)

كان مجدي على موعده اليومي مع كريستينا. منذ أخبرته بموضوع الحمل وهما يلتقيان يوميا للاطمئنان على آخر تطورات الموقف. كان الحديث بينهما قـد بـدأ يتطـرق إلـى احتمـالات الإجهاض. كريستينا كانت خائفة في البداية. تكرار الحديث كسـر حدة الرهبة لدى كريستينا، لكنها مازالت موجودة على أي حال.

كانا قد اتفقا على اللقاء على محطة الترام المتجه إلى آخر شبرا، في تمام السادسة مساء من كل يوم، ليتوجها إلـى كـازينو رومانس على النيل، والذي اعتـادا أن يقصـداه يوميـا ليتـدبرا أمرهما. أصبح قـدومها اليـومي فـي نفـس الموعـد مألوفًـا للجارسونات، الذين حفظوا أيضا طلباتهما، آيس كـريم وعصـير ليمون. ذهابهما إلى الكازينو أيضا كان ضروريا لكليهما، ليستدفئا ببعضهما البعض وليستمدا بعضا من السكينة من وجودهما معـا، هما المشتركان في نفس المشكلة الطارئة. تعجـب الجارسـونات كثيرا لمنظر المحبين اللذين يحضران يوميا بانتظـام ويحمـلان هموم الدنيا فوق كاهليهما. أي حب هذا ؟!. أخبرها يومهـا بأنـه اتفق مع طبيب أمراض نساء على إجراء عملية الإجهـاض بعـد الغد بعيادته. سألته بلهفة:

هل يمكن إجراءها بالعيادة؟

الطبيب أبلغني أنها عملية بسيطة، عبـارة عـن تنظـيم للرحم.

هل سأشعر بالألم؟

ستكون العملية تحت تأثير مخدر. لـن تشـعري بشـيء مطلقًا.

صمتت قليلاً ثم سألته بحيرة:

ماذا سأقول لماما؟

أجابها مجدي مفزوعا:

لن تقولي لها شيئًا طبعا.

ألن تلاحظ؟

شرح لها مجدي وهو يحاول أن يخفي قلقه:

- العملية الساعة الثالثة بعد الظهر. لا تـذهبي للمدرسـة يومها. تحججي بأية حجـة. العمليـة ستسـغرق وقتًـا بسـيطًا، تستريحين بعدها في العيادة قليلاً ثم تعودين إلى البيت.

سألته بصبر نافد:

سيبدو علي التعب طبعا، أليست عملية وتخديرا ؟!

أجابها محاولاً تبسيط الأمر:

تعب بسيط، قد لا يبدو بوضوح. يمكن أن تتعللي بالشعور بالمغص أو الإرهاق.

إلى متى سيستمر هذا التعب؟

ستنامين وتصبحين طبيعية في صباح اليوم التالي.

أطرقت قليلاً ثم استطردت:

مجدي... أنا خائفة... مرعوبة.

ربت على كفها المستند إلى الطاولة وابتسامة دافئة ترتسم على وجهه وقال لها هامسا:

سيمر كل شيء بسلام. اطمئني.

طفرت دمعة من عينيها وتسللت متمهلـة علـى صـفحة وجهها التعيس، رفع مجدي كفه ومسحها بحنان ثم ربـت علـى خدها وهو يرمقها بنظرة مفعمة بالحب والاحتواء.

افترقا بعد أن أكد عليها مجدي ضرورة أن تكون صـائمة يوم العملية.

(٦٩)

تعجل مجدي مرور الزمن حتى لحظـة إجـراء العمليـة وانتهائها على خير. مجدي متفائل بطبعه. يرى دائما نصف الدنيا المضيء. لقد حدثت المشكلة، لكنه قد أتم ترتيبات حلها، وسـوف تمر على خير، فالطبيب الذي سيجريها، رغم أن منظره لا يسر، صديق لابن خال علي صديقه، وسيهتم بالتأكيـد، إذ لـيس مـن المعقول أن يجرى عملية إجهاض في عيادتـه وهـو لا يطمـئن لسلامتها. كما أنه أكد له أن العملية بسيطة. شدة وتزول.

الأمر مختلف تماما بالنسبة لكريستينا، فهي لا تريد الزمن أن يتحرك. هو الخوف الذي يصل إلى درجة الرعب. لـو يتلكـأ الزمن وتتأخر لحظة المواجهة مع العملية... مع الخطر... صحيح أنها في مشكلة، تتمنى أن تتخلص منها، لكنها تخشى من مواجهة الخطر، لأول مرة تفكر في الموت. لم تتعامل مع الموت من قبل إلا كحدث عابر، يحدث لكبار السن وللمرضى بأمراض خطيـرة. يحدث للآخرين. هل يمكن أن تموت في هذه العملية؟... البيبـي سيموت... جزء منها تحمله بداخلها سوف يمـوت... وهـي... سيكون الموت موجودا معهما في وقت العملية. قد يأخـذها مـع البيبي.

كانت ليلة سوداء، جثمت على صدرها عبئًا ثقيلاً وهما لا يوصف. تحجرت دموعها وعربدت دقات قلبها اللاهث. تسـمعها في أذنها وهي تلامس وسادتها. انتقلت نبضاتها من قلبها الوجـل إلى كامل فراشها تعربد فيه. لا تستطيع أن تنعس ولا تقوى علـى النهوض. التصقت بالفراش بلا حول ولا قوة... ياله من شـعور مقبض ثقيل.

ثقلت جفونها مع انبلاجة الفجر. بشائر ضوء النهار تشعر المعذبين بقدر من الطمأنينة فيطغى الإرهاق على التـيقظ. نامـت طويلاً حتى اقترب النهار من منتصفه. استيقظت إيرين وغادرت المنزل بعد أن تناولت قهوتها. لم تنتبه لوجود كريستينا بغرفتهـا وعدم ذهابها إلى المدرسة. سهل ذلك من بداية مهمة ذلـك اليـوم العصيب، فلا حاجة إلى التوضيح ولا ضرورة للتمهيد.

غادرت فراشها مهمومة. ظلت صائمة كما أكـد عليهـا مجدي، موعدها معه في تمام الثانية ظهرا على محطة الترام. كان مجدي ينتظرها بقلق، استقلا سيارة تاكسي واتجها بها إلى الكيـت كات. دبر مجدي مبلغ العشرين جنيها من أصدقائه كسلفة أكملهـا من أخته نبيلة. تزايد شعور كريستينا بالانقبـاض مـع اقتـراب التاكسي من الوصول.

صعد إلى عيادة الدكتور رزق في الموعد المحدد. طرقـا الباب ففتحت لهما الست توحيدة الممرضة. تفحصـت كريسـتينا بنظرة أنثوية خاطفة. دعتهما للدخول وانتظار وصول الدكتور.

لحظات هي كالدهر مرت على كريستينا ومجدي. وصـل الطبيب أخيرا. حياهما تحية متعجلة وهو مسـرع فـي طريقـه لغرفته. رن جرس غرفة الطبيب فدعتهما الست توحيدة للدخول.

جلسا أمام الطبيب وهما يجهلان كيف ستسير الأمور. تأكد الطبيب من صيام كريستينا ثم شرح لهما بسـرعة أنـه سـيقوم بإعطائها حقنة بنج ولن تشعر بشيء. بعد العملية سـتتم إفاقتهـا. يمكنها أن تستريح بالعيادة حتى تشعر بالقدرة على مغادرة العيادة والعودة إلى البيت. طلب من مجدي أن ينظر بالخارج. أشار إلى الست توحيدة إشارة برأسه وطلب من كريسـتينا أن تنـام علـى طاولة الكشف.

خرجت الست توحيدة خلف مجدي وطلبت منه الأتعـاب. أعطاها المبلغ المتفق عليه ونفحها بقشيشا طيبـا. عـادت غرفـة الكشف وساعدت كريستينا على الاستعداد للعملية وهي تقول لهـا بنبرة روتينية:

لا تخافي... عملية بسيطة وتعودين إلى البيت.

أرقدت الست توحيدة كريستينا على طاولة الكشف. ثبتـت ساقيها على حاملي الكشف. غطتها بملاءة ونادت الطبيـب الـذي

كان يقوم بتعقيم يديه قبل البدء فـي العمـل. اصـطكت أسـنان كريستينا وانتفض جسدها كله أثناء لحظات الانتظار هذه.

اتخذ الدكتور رزق مكانه بجوارها وقال للست توحيدة:

حقنة الأتروبين.

ناولته الحقنة بعد أن ربط ساعدها لإظهار الوريد. ربـت عليها ليطمئنها وأعطاها حقنة الأتروبين، ثم تبعها بحقنة البنج.

انتظر حتى تأكد من تخديرها ثم استدار واتخذ مكانه فـي مواجهتها.

سلمته الست توحيدة الجفت وبه القطنة المبللة بـالمحلول المطهر، تناولها منها وهو يقول لها:

عينك على شفتيها.

بعد أن قام بالتطهير جيدا، أدخل المنظـار وشـرع فـي توسيعه حتى يكشف عنق الرحم. مد يده للممرضة فناولته الجفت الخاص بتثبيت عنق الرحم.

واصل توسيع عنق الرحم حتى تمكن من إدخـال ملعقـة الكحت، شرع في إجراء عملية الكحت لجدار الرحم حتـى أتمـه تماما.

ناولته الأمبولات قابضة الرحم فحقنها في الوريد. اطمأن لعدم وجود نزيف قبل أن يشرع في إفاقتها.

نبهها بخبطات خفيفة من كفة على وجهها حتى بدأت فـي الإفاقة، قرص أذنها ففتحت عينيها في وهن. قال لها بثقة:

قولي الحمد لله.

غطتها الست توحيدة بالملاءة جيدا ونادت علـى مجـدي ليدخل. دخل إليها ملهوفًا، أمسك بيديها متسائلاً بقلق:

خير... كيف حالك؟... بماذا تشعرين؟

كانت تشعر بالإعياء ووجهها مشوب بالحمرة. قالت له:

ريقي ناشف.

سمعها الدكتور فعلق بصوت مرتفع:

شيء طبيعي. هذا من تأثير البنج.

اتجه إليها الطبيب وسألها:

كيف تشعرين الآن؟

أجابت بصوت واهن:

الحمد لله... لكنى أشعر بزغللة في عيني.

أجابها الطبيب ضاحكًا:

هذا من تأثير الأتروبين. لا تنهضـي بسـرعة. عنـدما تقومين لا تنطوي إلى قدميك أثناء السير لتتجنبي الـدوار. سـلم الدكتور مجدي الروشتة وهو يشرح له:

هذا مضاد حيوي بعد العملية.

سأله مجدي:

متى ستعود لطبيعتها ؟

أجابه الطبيب وهو يستعد لمغادرة العيادة :

بعد خمس سعات ستعود تقريبا لحالتها الطبيعيـة. دعهـا تستريح قليلاً. الست توحيدة موجودة بالعيادة. لا تغادر العيادة قبل أن تشعر بأنها قادرة على ذلك.

ثم توجه إلى كريستينا قائلاً :

حمد الله على السلامة. عندما تصلين إلى البيـت تـأكلين جيدا ثم تنامين للصباح. ستنهضين غدا كالحصان. سـوف تنـزل بعض الدماء مثل الدورة الشهرية لا تخافي.

انتظر مجدي وكريستينا بالعيادة حتى شـعرت كريسـتينا بأنها قادرة على الحركة. غادرا العيادة وكريستينا تعتمـد علـى ذراعه.

سألها برفق :

هل تستطيعين العودة إلى البيت الآن ؟

أجابته وهي تشرع بالإعياء :

نعم. سأذهب إلى المنزل وأدخل للنوم.

عادت كريستينا إلى المنزل. تحملت علـى نفسـها فـي الصعود إلى البيت بعد أن غادرت التاكسي. كانت إيـرين نائمـة بغرفتها. تسللت كريستينا بهدوء إلـى فراشـها بعـد أن أطفـأت الأنوار.

طفرت دمعة من عينيها. مشاعر متداخلة ومرتبكة تملؤها. سالت الدموع غزيرة من عينيها اللتين أغلقتهما هروبا من العـالم كله.

(٧٠)

شرع مجدي في العمل بهمة حتى يعوض ما فاتـه فـي الفترة الأخيرة. الامتحانات على الأبواب وحمل كريستينا أربكـه. شل تفكيره وقدراته في الفترة الأخيرة. بدأ يعمل ليل نهار ليستطيع مراجعة مواد الدراسة. استعان برورو واستعار منه المحاضـرات التي لم يحضرها، كذلك المذكرات والتمارين التي لـم يتابعهـا. أصبح مجدي لا ينام سوى سويعات قليلة، ينهض بعدها مـتعجلاً ليواصل استذكاره ومراجعته، على أمل إنقاذ ما يمكن إنقاذه. كلية الهندسة لا تحتمل ضياع أسبوعين في نهاية العام، الدراسة فيهـا صعبة والأمر لا يمكن تداركه دون عناء، خاصة وأن مجدي ليس طالبا منتظما تماما في دراسته واستذكاره، يعتمد دائما على الفترة الأخيرة من العام الدراسي، يكثف فيها مجهوده ليعوض ما فاتـه خلال العام كله.

كانت البيوت جميعا في حالة استنفار استعدادا لامتحانـات الأولاد. برتيتات الكونكان في منزل الست ماري خوري أصبحت صباحية، لتوفير الهدوء في المساء للمذاكرة. وخاصة أن مجـدي كثيرا ما يراجع مع رورو مواد الامتحان بشقة الست ماري.

تحضر سيلفيا وإيفيت وأنطوانيت صباحا، تلحق بهن الست عايدة رزق الله، بعد القهوة والبسكويت تبدأ برتيتة الكونكان يأخذن

راحتهن في الصياح والضجيج في غيـاب الأولاد بالامتحانـات. يرحلن بعد الاطمئنان على رورو وجيهان بعـد عودتهمـا مـن الامتحانات.

(٧١)

ابلغ سالم والدته الحاجة فريدة بعد عودته من زيارة أختـه تحية بخلوصي أنه وجدها بعافية. أصيبت بإسهال حاد وتعاني من ارتفاع في درجة الحرارة. قال لها إنه تركها ملازمة للفراش.

استيقظت الحاجة فريدة من النجمة وعزمت على زيـارة تحية للاطمئنان عليها. لم تغف إلا بعد منتصف الليل ونامت نوما متقطعا من القلق والتفكير. كان الود ودها أن تذهب ليلاً لولا تأخر الوقت.

بعد أن أعدت الإفطار للأولاد واطمأنت على مغـادرتهم لامتحاناتهم، استبدلت ملابسها على عجل لتطير على تحية. قلبهـا مقبوض وعينها ترف. اللهم اجعله خير.

وهي في هذه الحالة من الارتباك والاسـتعجال، تعثـرت أثناء نزولها على السلم. ندت عنها صرخة عظيمة جلجلت السلم. ألم قاس شعرت به في ساقها اليسرى. رجت الست بطة مذعورة، يتبعها المهندس إميل وإلين. هرولوا جميعا على الـدرج ليأخـذوا بيدها ولينهضوها من عثرتها. انتصب بصعوبة لكنها لم تسـتطع الاتكاء على ساقها اليسرى مـن شـدة الألـم. تجمـع الجيـران المتواجدون بالمنزل وجرت صف صف مذعورة لإحضار كرسي

بناء على أوامر الباشمهندس إميل. أجلسوها على الكرسي وبـدأوا في التفكير بعد مرور الصدمة الأولى.

قال المهندس إميل:

يجب أن نأخذها إلى المستشفى حالاً. احتمـال أن يكـون كسرا.

بعد الشر. فال الله ولا فالك.

قالتها الست بطة تلقائيا وهي تربت على الحاجة فريدة ثم أردفت :

إن شاء الله حاجة بسيطة. التواء بسيط من الواقعة.

أجابها المهندس إميل :

ربنا يجيب العواقب سليمة. سأرتدي ملابسـي بسـرعة. سنذهب إلى مستشفى الهلال الأحمر.

صعد الدرج إلى شقته مسرعا. تبعته الست بطـة وهـي تقول له :

انتظر... خذني معك. لن أتركها وحدها.

تعاون المهندس إميل وعم سيد البواب وزينب ابنته علـى حمل كرسي الحاجة فريدة إلى الشـارع، حتـى لا تطـأ قـدمها المصابة الأرض. خرج عم سيد لينادي على تاكسـي. أدخلوهـا التاكسي بحذر شديد ثم ركبت الست بطة إلـى جوارهـا. جلـس المهندس إميل بجوار السائق وهو يطلب منه أن يقلهـم مستشـفى

الهلال الأحمر سريعا. فتحت لهم البوابة الخارجية وأقلهم التاكسي حتى مدخل الطوارئ. أحضورا مقعدا متحركًـا للحاجـة فريـدة واقتادوها إلى غرفة الكشف. بعد الكشف المبدئي وعمل الأشـعة على الساق، أتضح أنها مصابة بكسر في عظمة الساق. قال لهـا الطبيب الحمد لله إن الحوض سليم، وقام بتجبيس الكسر.

كانت الحاجة فريدة في غاية القلق على تحية ابنتها التي لم تتمكن من زيارتها بسبب تلك الحادثة المفاجئة. طمأنتها الست بطة بأنها سترسل إلين بعد الظهر إلى تحية لزيارتها والاطمئنان عليها.

قالت لها الحجة فريدة بامتنان :

ربنا يطمن قلبك.

(٧٢)

لم تفارق الست بطة وإلين الحاجة فريدة في الفترة الأولى لتجبيس ساقها. تناوبا عليها لرعايتها والتسرية عنها. تولت إلـين مطبخ الست الحاجة إلى جانب مطبخهم. ترسـل وهيبـة لشـراء الخضار واللحم ولوازم البيتين. استعانت بصف صف ذات مـرة اشتهت فيها الحاجة فريدة أكلة باذنجان مقلي، أوصـتها بشـراء باذنجان رومي. ذهبت إلى السوق وعادت معها باذنجان عروس. عندما لامتها إلين على ذلك، غضبت وقالـت لهـا، لقـد طلبـت باذنجان أسود. كله باذنجان أسـود وخـلاص. اضـطرت يومـا لإرسال وهيبة لتستبدلَ به الباذنجان الرومي. توقفت عن الاعتماد عليها منذ ذلك اليوم واستعانت بوهيبة في شراء لوازم البيت مـن السوق. اكتفت بتكليف صف صف بغسـيل الخضـار وتنظيـف البيت.

عندما شدت الحاجة فريدة حالها، بدأت الست بطة تأخذها عندها بشقتها في كثير من الأحيان لتغير الجو بعـد أن ضـاقت بحبسة البيت.

عندما عادت الحاجة فريدة من المستشفى بعـد تجبـيس ساقها، أرسلت نادية ابنتها لاسـتعارة العكـازين اللـذين كانـت تستعملهما مدام أنوش عندما كسرت ساقها قبـل ثلاثـة أعـوام،

صعدت مدام أنوش بالعكازين مع نادية لزيارة الحاجة والاطمئنان عليها.

قالت لها :

ألف سلامة يا حاجة فريدة.

أوصتها أن ترسل لاستدعائها إذا أرادت أي شيء. قالـت لها الحاجة فريدة :

كتر خيرك. البركة في الست بطة وإلين. شايلاكِ لعوزة.

(٧٣)

أنهى الأولاد امتحانات آخر العام وانتظروا النتائج. اجتمع ميشيل ومجدي وزاريه ومازن وريمون يوم الخميس بعـد نهايـة الامتحانات، كعادتهم كل عام، للذهاب إلى سينما الجندول الصيفية. نزهة يحرصون عليها مهما كانت الأفلام المعروضـة بالسـينما. يحبون قضاء السهرة بالسينما الصيفية في الهوا الطلق. تجمعـوا أمام ثلاجة عم سيد البواب ثم انطلقوا في اتجاه سـينما الجنـدول. وصلوا قبل فتح شباك التذاكر فأمضوا الوقت في الفرجـة علـى صور الأفلام المعروضة. فيلم "أبدا الأحد" لميلينا مير كوري وفيلم "امرأتان" لصوفيا لورين. الفيلمان أحلى من بعضـهما الـبعض، وخاصة أن صوفيا لورين هي فتاة أحلام رورو. يفقد برجا مـن دماغه عندما يراها تهل على الشاشة فيطلق صفارة خاطفة.

فتح شباك التذاكر فحجزوا خمسي تذاكر بلكون. اتخـذوا أماكنهم بالسينما منتظرين إظلام الدنيا ليبدأ العرض. أخذوا يتسلون بمراقبة البيوت المحيطة بالسينما وسكانها بالشـرفات والنوافـذ. ينتظروهن هم أيضا بداية العرض الذي يشاهدونه يوميا.

بدأ صوت العرض قبل الإظلام التام فظهـرت الصـور باهتة على شاشة السينما. بدأت المشاهد تتضح تدريجيا مع توغل الليل حتى اعتادت حدقات العيون على الرؤية بوضوح.

كان الفيلم الأول هو فيلم "أبدا الأحد"، تابعوه على أنغـام موسيقاه الشهيرة. مع إضاءة أنوار السينما نهضوا جميعا وتوجهوا إلى خارج السينما. قاموا بشراء السميط والجبن الرومي والبـيض للعشاء ثم شربوا الكازوزة المثلجة. دخلوا بعـدها إلـى السـينما لمتابعة العرض ومشاهدة فيلم امرأتان لصوفيا لورين.

آخر الليل، تعادوا عائدين بشارع شبرا، مروا على دكـان عم حسنين لشرب العصير. وقفوا أمام المحل يتسامرون ويدخنون قبل العودة إلى البيت.

(٧٤)

حملت ترتيبات إجازة الصيف لأندريا وماريـا والأولاد، الترقب المأمول لصالح بقاء أسبوعين في العسل مع مدام هيلينـا. قالت له في إحدى زياراته الخاطفة لها وهو يخلع عنها ثيابها:

- عندي خبر حلو لك...

سألها وهو يدفعها إلى السرير:

- خير... حامل يا هيلينا.

أجابته متأوهة وهو يلجها بقوة:

- أندريا... سيسافر إجازة... أسبوعين مع الأولاد.

شعشعت الأفكار برأسه وهو يستمع إلـى الخبـر. زادت إثارته فنشط معها كالمجنون وارتفعت تأوهاتها المتناغمة.

قال لها وهو ينظر إلى عينيها:

- سأجيء للمبيت معكِ.

سألته بدلال:

- كل يوم؟

- أشوق يا هيلينا... حسب مزاجي.

- باراكالو.

- نعم يا اختي.

- من فضلك.

- قوليها تاني.
- بارا كالو... باراكالو... باراكالو...

رددتها بنشوة هستيرية عارمة وهي تنشب أظافرها فـي جسده.

(٧٥)

أصبحت لقاءات مجدي وكريستينا يشوبها قدر من التـوتر بعد واقعة حملها وإجهاضها. لم تكن كريستينا مستقرة نفسيا، لـم تكن مستريحة. لم تستطع أن تتبين سبب شعورها بعدم الارتيـاح وبدرجة من العصبية تجاه مجدي. كأنها تحمله المسـئولية وحـده عما حدث دون أن تدري. يتشاجران لأتفه الأسباب، قد يختلفـان على الوجهة التي سيقصدانها مثلاً، أو المكان الذي تفضل ارتياده. قد تعترض على أي اقتراح يقترحه مجدي. هذا المكان ممل وذاك المكان ذهبنا إليه كثيرا، ألم تمل منه. إذا مرت على منزل جـدتها لترى مجدي وكان هو بالخارج، فسيتبع ذلك شـجار فـي اللقـاء التالي، أين كنت؟ ألا تمكث بالمنزل أبدا. لقـد جئـت خصيصـا لأراك. بدأ مجدي يضيق بالوضع، مع حبه العميق لها، خاصة بعد أن عاشرها معاشرة الأزواج وبعد أن حملت منه، رغم الـتخاص من الجنين، كل هذا ساهم في تأصيل مشاعره تجاهها وتعميقهـا. يشعر أنها شريكة حياته، زوجته، امرأته وهو رجلها. تشـاجرت معه ذات مرة بسبب لون القميص الذي يرتديه، لم يعجبهـا ورأت أنه لا يناسب لون البنطلون.

عاد إلى منزله وهو يشعر بالضـيق بعـد لقائـه معهـا وشجارهما المعتاد، كانا قد استقرا على الذهاب إلى سينما كـايرو

ومشاهدة فيلم لجاك ليمون. كان الفيلم خفيف الظل لكنه لم يـنجح في إزالة آثار الشجار والتوتر من نفسه. أمام شقة زاريـه، غيـر رأيه في الصعود مباشرة إلى منزله وقرر زيارة زاريه وقضـاء بعض الوقت معه. حديث الأصدقاء يكون في بعـض الأزمـات كالبلسم الشافي.

فتحت له أناهيد ورحبت به. قادته إلـى غرفـة زاريـه المغلقة. نقرت الباب بخفة وهي تناديه فدعاها للـدخول. فتحـت الباب لمجدي الذي وجد زاريه منهمكًا في القراءة. تـرك زاريـه الكتاب من يده ونهض للترحيب بصديقه. قال له مجدي:

- فاتك فيلم الموسم الذي شاهدته. فـيلم ظريـف جـدا

بسينما كايرو لجاك ليمونز أجابه زاريه مبتسما:

- رأيته بالأمس.

جلسا متجاورين على الكنبة الصغيرة بحجرة زاريه. قـال مجدي:

- كنت أشعر ببعض الضيق فقلت أمر عليك.

سأله زاريه:

- ضيق بعد فيلم لجاك ليمون.

أجابه مجدي بسرعة:

- فتش عن المرأة.

سأله زاريه مبتسما:

- هل جدت مشاكل أخرى؟

هز مجدي رأسه متعجبا:

- بلا مشاكل... ما علينا... هل قطعت عليك القراءة؟

أجابه زاريه بود:

- كنت أحتاج إلى بعض الراحة.

مد مجدي يده إلى الكتاب وهو يسأله في نفس الوقت:

- ماذا كنت تقرأ... آه... طاغور.

أجابه زاريه:

- بعد أن تعبت من القراءة قلت أختم بطاغور. قصيدة لطاغور كالفاكهة بعد القراءة.

فر مجدي الكتاب بسرعة ثم أعطاه لزاريه وهو يقول:

- سأستعيره منك بعد أن تفرغ منه.

تناول زاريه الكتاب من مجدي وقال له وهو يفتحه على إحدى الصفحات:

- سأقرأ لك القصيدة* التي كنت أقرأها عند حضورك، قصيدة جميلة عن التدين الزائف.

اعتدل مجدي في جلسته وهو يقول له:

- أنشدنا يا عزيزي.

---

* القصيدة ترجمة الأستاذ خليفة محمد التليسي – هكذا غنى طاغور

بدأ زاريه في القراءة بصوت هادئ:
أولئك الذين يعانقون الوهم باسم الدين
يقتُلون ويقتلون
حتى الملحد يحصل على بركة الله
فلا تفخر بدينك
إن يوقد في خشوع مصباح العقل
ويقَدم تمجيده لا إلى الكتب
ولكن لكلٍ شيء طيب في الإنسان
إن الطائفي يلعن دينه
حين يقتل إنسانًا من غير دينه
وهو لا يقَوم السلوك على ضوء العقل
ويرفع في المعبد
العلم الملطخ بالدماء
ويعبد الشيطان في صورة الإله
كل هذا الذي تم عبر الأحقاب والعصور
مخجلٌ ووحشي
قد وجد ملاذه في معابدكم التي تحولت إلى سجون
لقد سمعت أصوات أبواق التدمير
تَبلُغُ الزمن بمكنستها الجارفة
لتكنس كل المهملات.

كل ما يحرر الإنسان
يحولونه إلى قيود.
وكل ما يوحده
يحولونه إلى سيوف.
وكل ما يحمل الحب
من النبع الخالد
يحولونه إلى سجون.
يحاولون اجتياز النهر
في سفينة مثقوبة.
يا إلهي
دمر الدين الزائف
وأنقذ الأعمى
ولتُهشم ولتُهشم
المعبد الملطخ بالدماء
ودع هزيم الرعد ينفذ إلى سجن الدين الزائف
واحمل إلى هذه الأرض التعِسةِ
نور المعرفة. ران صمت طويل بينهما بعد انتهاء زاريـه من قراءة القصيدة.

(٧٦)

كانا أسبوعين من الخيال. وجبة دسمة لم يكن صالح يحلم بها. هدية من القدر لشاب مليء بالحيوية، تعذبه المراهقة ويضنيه الكبت. أسبوعان كاملان استعدت لهما مدام هيلينـا هـي أيضـا، وطلبت من الست بطة، قبل الأوان، أن تعمل لها حلاوة، ما دعـا الست بطة إلى التعجب من طلبها السريع، لـيس هـذا موعـدها المعتاد لعمل الحلاوة. كاد أن يلعب الفأر بعبها، فالمرأة لا تتعجل عمل الحلاوة قبل موعدها إلا إذا كان في الأفق رجـل، لـولا أن مدام هيلينا قدام عينيها طول النهار، لا هنا ولا هناك.

في يوم السفر، وبعد رحيل الخواجة أندريا والأنجال إلـى الإسكندرية للتصييف، أبلغ صالح الحاجة فريدة أنه سيبت طـرف لمعي صديقه الذي يسكن بروض الفرج. سيذهبون هـو ولمعـي والأصدقاء إلى سينما أمير بخلوصي لرؤية فيلم فريـد الأطـرش الجديد. على فكرة، صالح معجب جدا بصوت فـري الأطـرش ويحفظ معظم أغانيه. يعتقد أن صوته يشبه صوت فريد الأطرش. قبل أن ييأس من مشاغلة نبيلة ابنة الست عائشـة، كـان يقـف الساعات الطويلة بالشرفة ويغني لها أغنية حكاية غرامي حكايـة طويلة. يهيأ له دائما أن صوته سيحنن قلبها عليه. يعتقد في قرارة نفسه أن أي بنت تجيء بالزن على الآذان. طبعا نبيلـة لا يمـلأ

عينها صالح ولا يحزنون، تبتسم عندما تراه في الصـيف واقفًـا بالبلكونة بالفانلة أم حمالات، مستعرضا عضلاته ومنهمكًـا فـي الغناء. انتهى به الأمر إلى اليأس من حب نبيلة من طرف واحـد وبحث عن رزقه في سكة أخرى. صالح، نَفَسه قصـير ويزهـق بسرعة. يتخطى الأمر إذا لم يان معه بسرعة وينتقل إلى ما يلين، حسب ما تجود عليه دماغه.

طبعا فيلم فريد الأطرش غير معـروض بسـينما أميـر وصالح لن يبيت بمنزل لمعي صديقه بروض الفرج. هذه حكايـة للحاجة فريدة. صالح سيبيت بالشقة اللي تحت في حضـن مـدام هيلينا.

اتفق مع مدام هيلينا على أنه سيبيت معها كثيـرا وطلـب منها أن تنسى موضوع ضيوفها الإجريج الكثيرين الـذي يـأتون لزيارتها فجأة كالقضاء المستعجل. يريد الجو الهـادئ. أوصـاها بتحضير زجاجة الزبيب المعتبر وتجهيز عشاء محتـرم. صـينية مكرونة بالجبن الرومي المبشور ولحـم بفتيـك. تـذوق عنـدها المكرونة ذات مرة فأعجبته جدا. طعمهـا أحلـى مـن مكرونـة الحاجة. صالح غاوٍ للمكرونة بأنواعها، السباجيتي والمقصوصـة والصواني. أحيانًا يعملها ساندوتش. مع انتصـاف النهـار نـزل صالح من شقتهم بهدوء. كان في غايـة الاضـطراب خشـية أن يلمحه أحد وهو يدخل شقة مدام هيلينا. قبل أن يصل إلـى بـاب

شقتها، فتح باب شقة الست عائشة وظهرت صباح خادمتها، ارتبك صالح وواصل طريقه هابطًا الدرج. مر على عم سـيد البـواب فحياه وطلب منه زجاجة أورانجو باردة. عم سيد يجلـس دائمـا جلسته المعتادة، واضعا رجلاً على رجل والاهتمام يبـدو علـى وجهه، كأنه يحضر جلسة لمجلس الوزراء. قام بتؤدة وفتح الثلاجة وصالح يطقطق من القلق، رفع الخيشة المبتلة بكفه عن زجاجـة أورانجو، عندما لم يجد قال له:

- لا يوجد أورانجو.

قال له صالح بصبر نافد:

- هات أي حاجة يا عم سيد.

أجابه عم سيد باعتراض:

- يعني إيه أي حاجة. يوجد كوكا كولا وبيبسـي كـولا وسينالكو.

- هات بيبسي يا عم سيد وخلصني.

علق عم سيد معترضا:

- مالك يا أخي... مسروع على إيه.

أخرج عم سيد زجاجة البيبسي برزانة وفتحهـا بالفتاحـة المربوطة بدوبارة إلى الثلاجة ثم قدمها إلى صالح الـذي خطفهـا منه وشربها دفعة واحدة. تجشأ بصوت علا ثم اسـتدار وصـعد

الدرج ببطء متجها إلى شقة مدام هيلينا. ضغط الجـرس بسـرعة وهو يتمتم بقلق:

- افتحي يا بنت الكلب.

مرت اللحظات التي سبقت فتح الباب كدهر. داف بعـدها إلى داخل الشقة بسرعة خاطفة.

(٧٧)

سكر صالح بسرعة. شرب عدة كئوس من الزبيب أدارت رأسه. ضاجع مدام هيلينا وهو من السكر في غاية، بعدها، نعـس فوقها وراح في نوم عميق. مدام هيلينا ضاق نَفَسها، صالح ثقيل، لم تستطع بسهولة أن تزيحه عنها. نجحت بعد لأي في دحرجتـه على السرير. نهضت وارتدت ملابسها ثم غادرت الغرفة تاركـة إياه في نومه العميق.

استيقظ بعد الغروب وهو يشعر بصداع ودوار. بعـد أن شرب الشاي، دخل إلى الحمام لأخذ دش بارد يساعده على إتمـام إفاقته من السكر حتى لا تضيع عليه الليلة الأولى له مـع مـدام هيلينا، والتي خطط لها في خياله كثيرا. يريدها ليلة بـألف ليلـة، يتفنن فيها ويشبع تقاسيم على أوتار مدام هيلينا. آه... لـو كانـت أصغر قليلاً... لن أقول في عمر نبيلة... فهذا طمع... يكفي مثلاً أن تكون في عمر ماريا زوجة أندريا... أو إيرين ابنتها رفيقة ابن الخربوطلي... يا خرابي على إيرين... امرأة كالصـاروخ... لا داعي للطمع... إنت كنت تطول. امرأة وشقة...

دب النشاط فيه بعد الدش البارد وخيالات الشـهوة التـي دارت برأسه. عاد إلى فتوته وشعر بالتوتر مرة أخرى. خرج إلى مدام هيلينا بملابسه الداخلية. وجدها في انتظاره بقمـيص النـوم

الشفاف، تدخن سيجارة وتضع أمامها على الطاولة كأس بالزبيـب البارد. سألته إن كان يريد كأسا، قال لها وهو يناورهـا ويجلـس بجوارها:

- سأشرب من كأسك.

كان قد اتعظ من سكرة الظهيرة ولا يريد أن يكررها. قرر أن يحتفظ بوعيه أكبر وقت ممكن. كان يريد أن يسـتوعب مـدام هيلينا جيدا ويتخلل كل مسامها بوعي يقظ. يريد أن يراهـا جيـدا وهي تدخل إلى عوالم الإثارة والرغبة واللامبالاة والجموح. يريد أن يتأمل نظرات عينيها وأن يتسـمع إلـى تأوهاتهـا. يسـتقبل ضحكاتها ومجونها الذي سيوصلها إليه. كان كالتلميذ المجتهد الذي يريد أن يراجع دروسه بتأنٍ ودقةٍ متناهية. يستظهرها ويجودهـا كأحسن ما يستطيع.

احتضنها بقوة طقطقت لها فقراتها قرنت ضحكتها معلنـة عن متعة ممزوجة ببعض الألم. أخمدها بقبلة متوحشة تداعت لها مدام هيلينا متراخية في خدر جليل وهـي تنظـر إليـه برجـاء واستسلام.

نهض وحملها بين ذراعيه فأغمضت عينيها مستسلمة لما تجود به الأقدار. استيقظت أنوثتها ما تستيقظ فـي كـل لحظـة اهتياج، في أي مكان وأوان. أصبحت امرأة فقط. تنتمي إلى ذلـك

الجنس بغض النظر عن موقعها داخله، مراهقة كانت أو شـابة أو حبيبة أو جدة. امرأة تشتعل الأنوثة بلا حسابات.

دخل بها إلى غرفتها ووسدها فراشها برفق، نـزع عنهـا غلائلها وراح يداعبها ويثيرها في أناة وهـو يراقـب انفعالاتهـا باستمتاع هائل، أثارته فكرة أنها جـدة وأم لأبنـاء، أثارتـه حـد الجنون. أمعن في إثارتها بخيلاء دون أن يشرع في إروائها.

ليلة امتدت حتى فجر اليوم التالي. بدأ في الشراب بعد أن ضاجعها مرتين، بعدها، لم يدر كم من المـرات وفـي مختلـف الأوضاع. ضاجعها على الفراش وخارج الفراش ضاجعها علـى الأرض. أمام المرآة وهو يراهـا أمامـه فـي المـرآة عاريـة ومستسلمة. لم يعرف كيف ولا متى راح في النوم، تداخل عنـده اليقظة والنعاس. المتعة والإنهاك. لم ينتبه إلا في ظهيـرة اليـوم التالي وهي توقظه وتحضر له الإفطار والشاي. تـيقظ تـدريجيا فنهض من نومه واضطجع في الفراش. تناول كوب الشاي ليتغلب به على الصداع الذي يشعر به. أكل لقمة صغيرة وشعر بالرغبـة في الرحيل.

اغتسل بسرعة استبدل ملابسه. طلب منهـا أن تسـتطلع الجو بالخارج قبل أن يغادر الشقة. فتحت باب الشقة بهـدوء، لـم يكن أحد بالخارج. مرق صالح بسرعة وانطلق صـاعدا الـدرج

كالصاروخ. فتح الباب وهو يتطلع إلـى الارتمـاء فـي فراشـه ومواصلة النوم.

(٧٨)

دوت الصرخات الملتاعة في بئر السلم معلنة عـن فـزع عظيم. فتحت الأبواب كلها مستطلعة في وجل ودعـاء. تطلعـت العيون إلى حيث يأتي الصوت من أعلى. كانت ستاسـيا تصـرخ صرخات هستيرية وممسكة بابنها الأصغر يانيس بين يديها وهـي تنتفض في هلع عظيم. صعدت نادية ابنة الحاجة فريدة مسـرعة بينما تتبعها الحاجة فريدة، التي لا تستطيع الصعود بسرعة، بعـد حادثة كسر ساقها والتئامها. سبقتها الست بطـة وإلـين ووهيبـة وصف صف وعائلة عم سيد البواب، عادت نادية بسرعة لتبلـغ أمها بحريق يانيس وحالته الحرجة، قالت لها الحاجة فريدة بحزم:

- نادي على الأولاد بسرعة.

كان سالم وصالح نائمين، صرخت فيهما نادية بالنهوض، تمطأ سالم وهو يتثاءب متسائلاً:

- خير... ما هذا الضجيج؟.

أجابته باضطراب:

- يانيس ابن ستياسيا انحرق. قوموا بسرعة.

قفز صالح من فراشه واندفع كالصاروخ خارجا من الشقة وصاعدا الدرج قفزا، بينما استدار سالم في فراشه وواصل نومه. تلقى صالح يانيس من أمه واندفع به هابطًا الـدرج كالممسـوس،

خرج إلى شارع الزهور وانطلق حاملاً يانيس إلـى مستوصـف الراهبات. تبعته الخالة فاطمة وابنتها زينب بعـد أن علمتـا مـن الكلمات المتناثرة التي استطاعت أن تقولها ستاسيا وسط مصيبتها، إن يانيس تسحب إلى المطبخ أثناء انشغالها وسحب كباس الوابور البريموس الموقد وفوقه حلة ملأى بالماء، انقلبت الحلة وانسـكب الماء وهو يغلي على رأس يانيس وذراعه.

في مستوصف الراهبات، أبلغوا صالح والخالـة فاطمـة، بضرورة ذهاب الولد إلى المستشفى فورا، بعد أن قـاموا بعمـل الإسعافات الأولية له. حمله صالح مرة أخرى وخرج إلى الطريق وهو يفكر في المستشفى الذي سيتوجه إليه بيانيس. أوقف سـيارة تاكسي وهو يقول للخالة فاطمة:

- سنذهب إلى مستشفى كتشنر. أبلغي أنت أمه.

قفز بسيارة التاكسي وهو يحتضن يانيس، الذي يرتجـف بين يديه والدموع تبلل وجهه.

نظرت الخالة فاطمة إلى صالح بحنان وهي تتمتم قائلة:

- رح يا ابني... ربنا يسترك.

عادت الخالة فاطمة وزينب مسـرعتين لإبـلاغ ستاسـيا والجماعة واللحاق بصالح ويانيس، بمستشفى كتشنر.

(٧٩)

احتجز يانيس في المستشفى لمـدة تعـدت الأسـبوعين. لازمته ستاسيا طيلة هذه المدة معتمدة على الخالة فاطمة وزينـب لمعاونة مدام هيلينا في رعاية أخويه جـورج وميكـيس. أبـوهم نيكوس لا يحب أن ينام الأولاد خارج البيت طرف جـدتهم مـدام هيلينا. طبعا هناك مشكلة تنتظر ستاسيا بعد عودتها من المستشفى. كانت تشعر بالهم كلما اقترب موعد مغادرة المستشفى. نيكوس لن يجعل تلك الحادثة تمر على خير. كيف تغفل عـن الولـد؟.. مـا معنى أن تتركه يذهب إلى المطبخ ويحرق نفسه هكذا؟... لمـاذا تترك الموقد مشتعلاً في المطبخ دون أن تتابعه؟... مـاذا كانـت تفعل؟... تترك الأولاد وتهملهم لتقف تثرثر مع زينب وخادمـات البيت. باختصار، ستتلقى علقة موت من نيكوس الـذي كفرمنهـا ومن إهمالها للأولاد، يقول لها بعد كل علقة:

- تزربين الأولاد وخلاص.

ويلحقها بسباب إجريجي طويل.

غريب نيكوس هذا... رغم أنه ليس كامل الأوصاف، إلا أنه يحاسب ستاسيا على الواحدة. لا يترك كبيرة ولا صـغيرة إلا ويقيم لها محاكمة. ينصب نفسه القاضي والجلاد في آن واحد. بل إنه يبدأ بممارسة دور الجلاد، قبل أن يفـرغ القاضـي مـن أداء

مهمته. كل هذا وستاسيا لم تتوقف عن حبه. قد تنفث عـن طاقـة غضبها بأن تلعنه، بعد أن يغادر المنزل، فهي أيضـا تخشـاه، لا تعرف كيف ترضيه، عصبي المزاج في معظم الأوقـات، يثـور لأبسط الأسباب، تعتقد أحيانًا أنه يغار من الجيـران والبنـات، لا يريدها أن تغادر البيت للونَسة مع الخالة فاطمة وزينب، لا يريدها أن تذهب إلى السينما مع زينب وصباح ووهيبة. رغم حب ستاسيا له، إلا أنها لا تستطيع أن تكف عما يغضبه. ضـعيفة المقاومـة للعشرة والناس والفرفشة والانبساط.

(٨٠)

استيقظ المهندس إميل من نومه مبكرا. كان ينوي، منذ بدأ صيام العذراء، أن يذهب إلى سوق روض الفرج لشـراء شـروة مانجو. بعد تناول إفطاره الصيامي، الفـول بالزيـت والليمـون والزيتون الأسود، استبدل ملابسه، فهو ليس معتادا على الابتعـاد لمثل هذه المسافات بالبيجاما والشبشب، وغدر المنزل في طريقـه إلى سوق الخضار، بعد أن ذكرته الست بطة بعمل حساب الحاجة فريدة ومدام هيلينا في المانجو حسب عادة كل سنة ربنا لا يقطـع لنا عادة أبدا، هكذا قالت وهو يغادر الشقة ويسحب الباب خلفه.

المهندس إميل يحب المشي، أخذها كعابي، انحرف يسـار في شارع الزهور، تجاوز مدرسة الفرير ومستوصف الراهبـات في طريقه إلى شارع فؤاد الوسطاني، ليقطعه قبل أن ينحرف يمينًا قاصدا شارع مسرة ومتوجها إلى سوق الخضار. تسلى في طريقه بالفرجة على المحلات على جانبي الطريق وعلـى النسـاء فـي شرفاتهم ونوافذهن وهن يؤدين شئونهن المنزلية من تنظيف ونشر للغسيل، أو يدلين أسبتتهن لبائعي الخضار والفاكهة بالنقود مقابـل احتياجاتهن منهم. لم يسلم الأمر من كرة شراب تصطدم به مـن جراء لعب تقسيمة للأطفال، أو ضجيج مشاجرة بين اثنتـين مـن الجارات، تهدئهما جارتهم المقابلة لهما وسـط اعتـراض بـائعي

المحلات وهم يضربون كفًا بكف... يا فتاح يا عليم يا رزاق يـا كريم... اقصروا الشر يا جماعة... حصـل خيـر... والطيـب أحسن... وكلام من هذا النوع.

وصل المهندس إميل إلى سوق الخضار أخيرا. تجول بـه باحثًا عن مزاد للمانجو يحتوي على شروة معقولة تناسب العائلات الثلاثة. وفق أخيرا في شروة مانجو ألفونس تناسبه. أتم الشـروة واستقل سيارة تاكسي عائدا بحمولته من المانجو.

في البيت، أوكلت الست بطة إلى إلين مهمة قسمة شـروة المانجو بالعدل إلى ثلاثة أكوام. كوم للحاجة فريدة وكـوم لمـدام هيلينا والكوم الثالث للبيت.

كان الغداء بامية صيامي، تقول عليها دائما السـت بطـة بامية زي العسل، أحلى من البامية الفطاري، بركات العذراء، إلى جانب الباذنجان المخلل الشهير، والـذي يسـميه الأقبـاط فـراخ العذراء. بعد الغداء، كان من نصيب الست بطـة ثمـرة مـانجو ماسخة، أنّبت عليها زوجها، الذي ضحك من قلبه وهـو يغيظهـا قائلاً:

- وأنا مالي... بختك زفت... كـل واحـد وضـميره، المانجو زي العسل.

(٨١)

توغل الصيف وتمادى في قيظه ورطوبته حتى حط أخيرا على مشارف شهر سبتمبر الريحانة. موعد سفر أسرة فهمي أفندي عبد الفتاح المعتاد إلى أبي قير، لكن الأمور اعتراها بعض التغيير الذي يبقي حالاً على ما ألفه من استقرار.

رحلت أسرة مدام إشكنازي فجأة ودون إنذار. متى حـدث ذلك؟... عِلمي عِلمك... وإلى أين؟!... لا أحد يعلم.

كانت صدمة للست عائشة والأسرة كلها بوجه عام. عندما مرت الست عائشة على بيت مدام إشكنازي قبل حلول الصـيف، كعادتها كل عام، لتؤكد عليها حضورهم في سبتمبر إلى أبي قيـر وحجز الشقة للأسرة، لم تجد أحدا بالمنزل، كما لم تجـد بـواب البيت لتستفسر منه. عند عودتها في اليوم التالي، قابلـت البـواب الذي أخبرها برحيل مدام إشكنازي والأولاد.

- إلى أين يا عم محروس؟!...
- لا أعرف والله يا ست هانم. تركوا الشقة ورحلوا في الفجر. قالت لي الست مفيدة صـاحبة البيـت، إنهـم تركوا الشقة وسلموها المفتاح.
- دا معقول دا؟!...

كانت الجملة الوحيدة التي تفوهت بها الست عائشة وهـي تشعر بحيرة وحزن. مدام راشيل إشكنازي ترحل فجأة وبدون أن تودعها. مالها الدنيا؟!... أين سينزلون في أبي قير بعد أن اعتـادا على بيت مدام إشكنازي؟!... عِشرة طويلة دامت وطابت لسنوات طويلة... منذ طفولة الأولاد المبكرة... خسارة.

عادت الست عائشة يومها حزينة ومهمومة، لـم تشـأ أن تفكر إلى أين رحلت مدام إشكنازي والأولاد؟... هي تدرك ذلـك في قرارة نفسها... لكنها لا تريد أن تفصح. فالأمر ذو شـجون. ليس الموت وحده هو الذي يفرق الناس فهناك أمور أخرى تفـرق البشر... شرور وأهوال... من صنع البشر أيضا... يـأتي بهـا الإنسان عامدا متعمدا... تستيقظ فيه فجأة غرائز الأثرة والأنانيـة والشر والعنف والكراهية، فيطغى ويحيل الحياة إلى أحزان وهموم وفرقة وكراهية. يغسل أيديه بعدها ليذهب إلى احتفالات انتصاراته المزيفة.

لم تكن أبو قير مثل كل عام. اختلف مذاقها. شعرت الست عائشة بالغربة عندما استقرت في الكارتة، قال لها مرسي بأسى:

- شُفت يا ست عائشة، مدام إشكنازي باعت البيت.

ردت بأسى:

- عرفت يا مرسي... حال الدنيا.

أردف مرسي موضحا:

- واحدة قرشانة اشترت البيت، اسمها أم عبده، شـقتكم مشغولة.

أطرقت الست عائشة بينما يفرقع مرسي سوطه في الهواء قائلاً:

- شي يا شادية... نطلع على بيت الست أم صدقي؟

سرحت الست عائشة بفكرها دون أن تعطيه جوابا.

سألته نبيلة:

- ماذا عن بيت الست أم حنا؟... هل تم تأجيره؟

أجابها مرسي:

- الدور الأول لم يؤجر.

قال فهمي أفندي:

- اطلع بنا على بيت أم حنا. البلكونة عنـدها واسـعة وتطل على البحر.

(٨٢)

مر شهر المصيف بطيئًا على الست عائشة. رحلت مـدام إشكنازي، رفيقة جلسة تحت الشمسية على البلاج ومسامرات اللاب والسوداني. عندما تنتهي الست عائشة من ترتيـب غـداء اليـوم والإشراف على تنظيف البيت وتسوية السراير، كانت تنزل إلـى البلاج بعد أن تكون صباح قد غرزت الشمسية في مواجهة البيت. تنزل مدام إشكنازي عندما تلمحها وتلحق بها. يقضيان النهار فـي السمر، بينما يكون فهمي أفندي منهمكًا في لعـب الطاولـة مـع جارهم الأستاذ إدوار، مدرس اللغة الفرنسية بالمنيا، والذي يـأتي كل عام من المنيا إلى أبي قير للتصييف لمدة شـهرين ببيـت أم حسني المقابل لهما بالدور الأرضي. الرجل يصر على عاداته منذ سنوات عندما قادته الصدف إلى أبي قير للمرة الأولى، بناء علـى نصيحة قريب له يقيم بالإسكندرية. تردد في البداية، لأنه يتثقل دم قريبه هذا ولا يثق في آرائه، لا تدري لماذا عدل عن تردده وقرر تجربة أبي قير، ومن يوميها تعلق بأبي قير وببيت أم حسني، رغم أنه ليس أنتيكة. بيت أقل من العادي ونسبه غير معتادة، مفرط في الطول بالنسبة إلى عرضه، مما يجعلك تشعر بأنك في سـرداب، كان الرجل تعود عليه وأقام اتفاقًا مـع السـت أم حسـني بأنـه سيستأجره من منتصف شهر يوليو إلى منتصف شـهر سـبتمبر.

ساعد على نجاح الاتفاق، أن المستأجر الذي يسبقه، يحجز الشـقة لمدة أسبوعين فقط، النصف الأول من شهر يوليو، وهـو زبـون مستديم أيضا، بذلك تم ترتيب الأمر بيسر، بحيث تكـون الشـقة مشغولة في أشهر الموسم الرئيسية وهي يوليو وأغسـطس فـلا تخسر الست أم حسني شيئًا. الأستاذ إدوار يعود إلى المنيـا فـي منتصف شهر سبتمبر للاستعداد للعام الدراسي، فيجد فهمي أفندي نفسه وحيدا للأسف، لذلك ينضم إلى زوجته الست عائشة ومـدام إشكنازي في قعدة الشمسية على البحر، طيلة النصف الثاني مـن الشهر. كان مذاق المصيف مختلفًا هذا العام. تغيـرت عـاداتهم. يسكنون للمرة الأولى في بيت أم حنا بعد أن باعت مدام إشكنازي بيتها ورحلت إلى الأبد. لم يعتادوا بسهولة علـى بيـت أم حنـا. المطبخ ضيق وغرف النوم تطل على الخلف، كمـا أن الفـرش يحتاج إلى تنجيد. أم حنا بخيلة حبتين، توفر في صـيانة البيـت وتجديده. الميزة الوحيدة عندها هي بلكونة غرفة القعاد الواسـعة، والتي تطل على البحر.

(٨٣)

بعد عودة الست عائشة من أبي قير، نزلت إليهـا الخالـة فاطمة لتزف إليها خبر قراءة فاتحة زينب ابنتها على قريب لهـم يعمل بالنادي الأهلي. فرحت الست عائشة من قلبها لزينب ونادت على صباح لتبلغها. اكتشفت طبعا أن صباح عارفة بالخبر قبلهـا من زينب. عادت نبيلة من الخارج فوجدت الخالة فاطمة تجلـس مع أمها، احتضنتها وقبلتها عندما علمت بالخبر من الست عائشة، قالت لها الخالة فاطمة:

- تلميذتك ستقرأ فاتحتها، العقبى لكِ.

أجابتك الخالة فاطمة معترضة:

- الخطوبة لا تتعارض مع الدراسة، المهم ابن الحـلال الذي يستاهلك.

كانت زينب قد طلبت من نبيلة أن تعلمها القراءة والكتابة، واظبت بجدية وإصرار على التعلم وتقدمت بمعدلات متسـارعة. تستطيع الآن أن تكتب اسمعها وعنوان البيت بخط واضح لا يخلو من رشاقة، وعدتها نبيلة أن تواصل معها حتى تتمكن من قـراءة المجلات التي تحتوي على أخبار الممثلـين والممـثلات، وإلـى الدرجة التي تستطيع بها كتابة خطابات لنبيلـة إذا جاءهـا ابـن الحلال وتزوجت وسافرت مع زوجها لأي مكان. والنبي صـحيح

يا ست نبيلة، تتهلل أساريرها وتمتلئ صـفحة وجههـا بابتسـامة منورة وهي تتخيل نفسها بعد أن كتبت الخطاب، وهي تطويه إلى أربعة أرباع وتضعه في الظرف، بعد كتابة العنوان عليه:

يصل ويسلم إلى الست نبيلة فهمي عبد الفتاح دامت

١٨ شارع الزهور، المتفرع من شارع جزيـرة بـدران شبرا – مصر.

شكرا لساعي البريد.

مثلما تقرأ على الخطابات التي تصلهم من البلاد.

استأذنت نبيلة من الخالة فاطمة انسـحبت إلـى غرفتهـا مأخوذة بأمنياتها لها بالخطوبة والزواج... آه... جاءت على الوتر الحساس. ترى ماذا يحمل لهما المستقبل، هي وسعيد، علي سـيتم الزواج حقًا؟... هل سيقوى سعيد على الإقدام على خطوة إشـهار إسلامه فعلاً؟... ولماذا لا تصدقه؟... هي تعرف جيدا مدى صدقه ورجولته وأصالة مشاعره هل تمر الأمور بسلام مع عائلتـه؟... هل سيوافق بابا وماما؟... الأهم من ذلك... هل ستقوى هي على اتخاذ قرار الموافقة؟... يـارب... لمـاذا وضـعتنا فـي هـذه المشكلة؟... أستغفر الله العظيم. قف معنـا يـارب... لا تتركنـا بمفردنا وأرشدنا إلى مرفأ الأمان.

(٨٤)

اليوم الخميس، أو النهار دا الخميس كما يقول الناس، فتح مجدي عينيه وتذكر وهو في فراشه، آخر يوم في الأسبوع الأول من العام الدراسي الجديد، الأسبوع الأثقل دمـا، بعـد الإجـازة الصيفية، والمصيف، وفراغ البال من الـدروس والمحاضـرات واللوحات الهندسية والتقارير الدورية للمواد. يوم الخمـيس هـو أحلى الأيام. أحلى حتى من يوم الجمعة، لأنه مليء بالأمـل فـي عطلة نهاية الأسبوع، مليء بالفرحة للفكاك من الكلية والمـذاكرة. يوم الجمعة يكون الإنسان مهموما بأنه سينتهي وتنتهـي العطلـة معه، وأن الموسم التالي هو السبت، بداية الأسبوع والذهاب إلـى الكلية من جديد. دوران الساقية.

نهض مجدي متثاقلاً من فراشه وبدأ في الاستعداد للذهاب إلى الكلية. بعد أن اغتسل واستبدل ملابسه، ألقى نظرة على جدول الكلية فوجد جدوله محاضرتين فقط، الأولى والثانية، ينتهي منهما في الثانية عشرة. يوم قصير وخفيف الظل.

بعد نهاية المحاضرة الثانية مر على بيت الفيل، كافيتريـا كلية الهندسة ما يطلقون عليها. كلية هندسة القـاهرة كمـا قـد لا تعملون، ملاصقة لحديقة الحيوان بالجيزة وكافيتريا الكلية ملاصقة لبيت الفيل، لذلك اكتسبت اسمه بالشفعة. وجـد مجـدي زاريـه

بالكافيتريا، حياه وجلس إليه. بعد قليل انضم إليهما رورو بعـد أن أنهى حديثه مع زوبة العالمة، أجمل بنت في كلية الهندسة، ويجوز في جامعة القاهرة كلها. اسمها زينب، الذي تحور إلى زوبة، ثـم أضيف إليه صفة العالمة. هي تهتم في الحقيقة بزينتـه وترسـل شعرها الطويل الناعم خلفها مسترسلاً ليعبر وسطها ويحط علـى أردافها الرشيقة، يراقصها على وقع خطواتها المتدللة، تضع أحمر الشفاة الصريح على بشرة مرية ناصعة. ترسم عينيها ورموشـها وحاجبيها بمهارة وتحتفظ بنضارة مكياجها طول النهـار. أطلـق الطلبة عليها ذلك اللقب لحسرتهم وغلهم وإحساسـهم بالإخفـاق. زينب ماشية مع شاب من كلية العلوم، تأبت على كل زملائها من طلبة الهندسة وأحبت من خارج الكلية. أصحاب الحس الفكـاهي كانوا يقولون إنها دخلت كلية الهندسة خطأ، فالبنـات المعـدودات بكلية الهندسة معظمهن كالخفراء، أو مقبولات المظهر على أحسن الأحوال. بنات علم يعني، بنظارات نظر ولا يهتممن بالأناقة، لكن زينب فكت نحس كلية الهندسة. طبعا أكثر من يمكنه النجاح فـي خطب ودها وتجاذب الحديث معها من آن لآخر هو رورو، أحـد الطلبة القلائل الذين تتفضل عليهم بشرف معرفتها والحديث إليها.

- طبعا يا سيدي.

علق زاريه، بينما يسحب رورو مقعدا وينضم إليهما.

قال رورو وهو يجلس:

- يا ساتر. عينك أنت وهو.

قال مجدي ضاحكًا بسخرية:

- كلام على الماشي... لا فائدة منه.

تظاهر رورو بالتعالي عليهما ولم يرد.

سألهما مجدي وهو يذهب لإحضار كوب من الشاي:

- هل تشربان شيئًا معي.

طلب رورو زجاجة بيبسي كولا وشكره زاريه.

عاد مجدي بالمشروبات وسألهما وهو يهم بالجلوس:

- ما الخطة هذا المساء؟

قال رورو على الفور:

- يوجد فيلم وسترن لجون واين بسينما ريفـولي، مـا رأيكما؟

أجاب زاريه مبتسما:

- موعد السينما غدا. الجمعة.

قال له رورو منفعلاً:

- يا سلام على النظام. ماشي على الخط كالترام.

ابتسم زاريه ولم يعلق.

قال مجدي موجها حديثه إلى زاريه:

- ليكن هذا الخميس استثناء. نريدك أن تشاركنا اليوم.

تساءل زاريه:

- لماذا لا نذهب إلى السينما غدا بدلاً من اليوم؟. لا أريد أن أغير نظامي.

علق رورو:

- لا أستطيع الانتظار، أشعر بالاختناق، أول أسبوع في الكلية ممل.

تدخل مجدي محاولاً إقناع زاريه.

- هذا هو الأسبوع الأول في الكلية، لم نأخذ شيئًا ذا بال في الدراسة. ليكن استثناء لنظامك الصارم من أجـل خاطرنا.

زاريه لا يفضل تغيير نظامه وبرامجه. يحتـرم النظـام لذاته. يقتنع بأنه يستطيع إنجاز الكثير بتنظيم وقتـه بدقـة وعـدم اللجوء إلى إعادة التفكير في جدوله ونظامه، لكنه تنازل تلك المرة بعد إلحاحهم ووافق متحفظًا:

- أول أسبوع في الدراسة فقط. السنة دي بكـالوريوس.

أكمل زاريه محاضراته وغادر مجدي ورورو الكليـة عائدين إلى شبرا.

تجمعوا في الخامسة والنصف، فزاريه يفضل حفلة الساعة السادسة، توجهوا ثلاثتهم إلى سينما ريفولي حيث قـابلوا مـازن بالمصادفة، بعد نهاية العرض، اقترح رورو أن يكـون العشـاء كشري، وافقوا جميعا وتوجهوا إلى محل الكشري بـأول شـارع

شبرا، عرجوا على محل عم محمد اللبان بجزيرة بدران للتحليـة بالبسبوسة قبل العودة إلى شارع الزهور.

(٨٥)

كان سعيد بادي الضيق والعصبية طول النهار. لاحظ ذلك صديقه نادر فاقترح عليه الخروج معا بعد نهاية مواعيد العمـل. غادرا شركة لوفتهانزا في طريقهما إلى فندق سميراميس. سـعيد يحب كافيتريا نايت آند داي، لذلك اقتاده إليها نادر دون أن يسأله. كان سعيد مشتت الذهن.

طلبا زجاجتي بيرة وجلسا صامتين. نادر يعرف مشـكلة سعيد وتحدثا فيها مرارا. هو لا يملك حلاً لتلك المعضلة، لكنه يود أن يسري عن صديقه. ضاعت كل إمكانيات فتح حديث مع سيعد من رأسه. مع رشفات البيرة، لانت الكلمات وبدأت تتسلل كسـلى في البداية، ثم انساب الحديث بينهم بسلالة وتدفق.

بدأ نادر الحديث قائلاً لسعيد:

- منذ مدة طويلة أنت تعيش هذه المشـكلة. يجـب أن ترسو على بر.
- المشكلة ليست في. المشكلة في نبيلة.

علق نادر:

- يجب أن يستقر رأيها هي أيضا. إمـا تواصـلان أو تتوقفان.

سرح سعيد بفكره ثم قال بعد فترة صمت:

التوقف صعب جدا يا نادر. لا أعتقـد أننـي يمكـن أن أحتمله. يجب أن نتزوج. لقد اتخذت قراري منـذ مـدة بإشـهار إسلامي وهي تعرف ذلك. هي التي تعود وتتـردد. تـوافقني ثـم تتراجع مرة أخرى خائفة من العواقب.

قال له نادر:

- لهذا السبب أقول لك إنكما يجب أن تسـتقرا إلـى رأي نهائي، مهما كان. وقوع البلاء ولا انتظاره.

- أنا لا أستطيع أن أغامر بها وأوافقها على عدم الزواج. إني متمسك بها ولذلك أتحمل ترددها.

سأله نادر بنبرة اعتراض:

- وما العمل إذن؟... هل ستظلان على هذا الحال إلـى ما شاء الله؟

أطرق سعيد برهة ثم قال:

- أفكر في لقاء والدها.

هتف نادر قائلاً:

- عين العقل، طالما لا تقوى على اتخاذ القـرار. بهـذا ستضعها في مواجهة الموقف مع أسرتها.

استدرك سعيد مهموما:

- أخشى أن أسبب لها مشكلة مع أسرتها.

قال نادر بنفاد صبر:

- لكي يتم الموضوع يجب أن يطرح على الأسرة. لماذا التردد إذن؟

أجابه سعيد حائرا:

- نبيلة لم تحسم أمرها بعد. لا تدري إن كانت سـتقوى على تحمل تبعات الزواج في مثل تلك الظروف.

أجابه نادر يائسا:

- بذمتك... كم مرة تراجعت نبيلة، لقد أصـبح الأمـر عبثيا.

قال سعيد موافقًا بيأس:

- معك حق.

سادت فترة صمت بينهما قطعها نادر متسائلاً:

- لكني أريد أن أسألك حقيقة يا سعيد... هـل عزمـت أمرك فعلاً، وبشكل نهائي على إشهار إسلامك؟

نظر إليه سعيد متعجبا:

- لقد قلت لك إنني قد اتخذت قراري فعلاً؟... أنا لسـت مترددا مثلها.

صمت نادر برهة ثم قال:

- رغم اعتراضي على تردد نبيلة وتأرجح موقفهـا، إلا أنني أجد موقفها أكثر معقولية من موقفك كلما فكرت في الأمر.

- ما معنى هذا التناقض؟
- ليس تناقضا. كل ما في الأمر أنني أريد كما أن تتخذا قرارا نهائيا في موضوع الزواج. مهما كان القرار.
- لا أفهمك جيدا. يبدو أن تفكيري مضـطرب فعـلاً.

صمت نادر قليلاً ثم قال مترددا.

- هل تسمح لي بسؤال أتوجه به إليك للمرة الأولى؟

أجابه سعيد بعصبية:

- تفضل يا أخي، هل تحتاج إلى استئذان؟!

قال وهو يتلعثم:

- تحملني يا سعيد، الموضوع حرج.

قال له سعيد بنفاد صبر.

- تفضل... اسأل.

صمت لبرهة ثم قال بتردد:

- كيف ستشهر إسلامك؟... أعنـي... كيـف اتخـذت قرارك بهذه السهولة التي تبدو من كلامك... وبهـذا اليقين؟
- ومن قال إنني اتخذت قراري بسهولة؟

أجابه نادر:

- كما قلت لك واعتبرته كلاما متناقضا، لقد وصـلتني حيرة نبيلة وقلقها واللذان ينعكسـان فـي تراجعهـا

المتكرر... لم أشعر أنك مررت بحيرة مشابهة، رغم صعوبة القرار. دائما تقول وبيقين تحسد عليـه، لقـد اتخذت قراري، وكأنك ستغير مسكنك أو مكان عملك.

صمت سعيد قليلاً ثم أجابه:

- من عادتي أن أفكر في الأمور الهامة مع نفسي لمـدة طويلة. أقلب الأمر على كافة الأوجه، خاصة إذا كان الأمر شائكًا مثل هذه الحالة. لا أبوح به لأحد حتـى أصل فيه إلى قرار مع نفسي دون تأثير خارجي. إنني أخشى الندم جدا يا نادر، ترعبني فكرة أن أتخذ قرارا ثم أندم على اتخاذه في المستقبل. لذلك فكرت كثيـرا مع نفسي في الأمر قبل أن اتخذ قراري، حتى لا أندم في المستقبل. لأني أيضا متمسك بنبيلة بكـل قـوتي، وأخشى أن أندم على فقدها إذا اتخذت قرارا متسرعا.

سأله نادر مستطلعا:

- لكن كيف فكرت في الأمر؟
- ماذا تعني بالضبط؟
- أقصد من الناحية المبدئية؟... هل من السـهل علـى المرء أن يغير دينه؟

أشعل سعيد سيجارة وهو يشعر بالحصـار، تململـ فـي مقعده ثم قال:

- ليس من السهل على المرء أن يغير دينه الـذي ولـد عليه طبعا. عندما استعرضت شريط حياتي وأنا أفكر في الأمر. وجدت أنني نشأت في أسرة غير متزمتـة من الناحية الدينية. صحيح أنها أسرة مسيحية مؤمنة، لكنها لم تكن متزمتة أو متعصـبة بـأي حـال مـن الأحوال. أعز أصدقاء والدي كان عمـي مصـطفى. نقضي الأعياد مع أبناءهم عندنا أو عندهم نتعايش مع الجيران والأصحاب بشكل طبيعي. هذا عن الأسـرة التي نشأت بها وشببت على عاداتها. بالنسبة لي فأنـا أؤمن بالله ببساطة. لا أمارس الطقوس الدينية ولسـت مرتبطًا بها. ما يعنيني هو الإيمان بـالله. ألـيس الله واحدا في الأديان جميعا. لقد فكرت في الأمر كثيـرا جدا، وصلت إلى أنه مهما تعددت الأنبياء، فالله واحد، وما الأديان السماوية إلا رسالات يرسلهن الله ويحملها للأنبياء كلما ضل البشر عن طريقه. كل نبي لمكـان وزمان، والله واحد. مهما اختلفت التفاصيل الجزئيـة بين الأديان بعضه وبعض، فهي تفاصيل في أسـاليب التعامل والسلوك لكل زمان ومكان، تناسب عقليـات وظروف الناس وأحوالهم طبقًـا لمقتضـى الحـال. وبالتالي، فالأصل في الحكاية أن تتوحد الأديان جميعا

في الخضوع لله، وأن يقبل أتباعها جميعا الاختلافات الجزئية فيما بينها بصدر رحب.

- لم أجد أن اعتناقي للإسلام يمكن أن يسبب لي ارتباكًا عقائديا. القوانين لا تسـمح لنبيلـة بتغييـر دينهـا، بالإضافة إلى أنني الرجل، والفروسـية تقتضـي أن أتحمل أنا التبعات.

ران صمت طويل بينهما. قطعه نادر متسائلاً:

- وماذا عن أسرتك؟... أمك وأختك التي لم تتزوج بعد؟

أطرق سعيد ساهما ثم أجاب صديقه:

- في الحقيقة يا نادر... هذه هي المشكلة التي تعـذبت من أجلها كثيرا. ماذا يمكـن أن أسـتوعب أحزانهـا وأمتصها، مهما كبدني ذلك من وقت ومـن مشـقة. سأبذل قصارى جهدي، والزمن كفيل بالنسـيان. أنـا واثق أيضا من حكمة نبيلة التـي ستسـاعدني علـى تخطي تلك العقبة مع ماما. عندما ترى ماما سـعادتنا معا وتتأكد منها، سيكون ذلك باعثًـا علـى عبـور الأزمة... لكن مشكلة آمـال هـي التـي أربكتنـي ودمرتني... كيف ستتزوج آمال؟... وهل سيتفهم من يتقدم لها الأمر؟... هل سيؤثر إشهار إسلامي علـى فرصة آمال في الزواج؟... وبافتراض تفهم زوجهـا

للأمر وقبوله، ماذا عن أهل زوجها، هل سـيتقبلونها عضوا طبيعيا في أسرتهم؟... بعد أن أعياني التفكير، قررت مفاتحة آمال في الموضوع واستطلاع رأيهـا. تحدثنا طويلاً منذ فترة وجيزة. كان الخبر صدمة لها بالطبع. بكت في البداية... شرحت لها علاقتي بنبيلة. أوضحت لها مدى تلعقنا ببعضـنا الـبعض ومـدى ترددها، معاناتنا التي تتجدد مع كـل قـرار بإيقـاف العلاقة، انهيارنا وفشلنا في كل مرة نحـاول فيهـا... كان ما تخشاه آمال هو ماما في المقـام الأول. وقـع الصدمة عليها. أوضحت لها أن ما يقلقني أشد القلـق هو موضوع زواجها. أكدت لي أن ذلـك الموضـوع يأتي في المقام التالي. ما يهمها هو مشكلة الصـدمة التي ستصيب ماما ومدى تأثيرها على صحتها. مامـا مريضة بضغط الدم. فهمت منها أنها علـى ارتبـاط بشخص، اتفقا على أن يتقدم لخطبتها فـي الصـيف القادم. مدرس وأخته طالبة عندها بالمدرسة. أكدت لي أنها تثق في تمسكه بها وأنهـا ذو عقليـة مسـتنيرة. طمأنني بذلك بعض الشيء. المشكلة ليسـت معتـادة الحدوث. القرار لم يكن سهلاً بالمرة، وخاصة أنـه لا

يمكن الإحاطة بجميع تبعاته، كما أنه سيحمل بعـض المشاكل في طياته لا محالة.

هز نادر رأسه وهو يتمتم:

- قلبي معك.

نهضا وغادرا والمكان بتثاقل بعد أن دفعا الحساب. كـان سعيد يشعر بالإعياء بعد هذه المكاشفة الطويلة.

(٨٦)

تحدد موعد كتب كتاب زينب ابنة عم سيد البـواب يـوم الخميس القادم. قالوا خَير البِر عاجِلُه... هكذا يعتقد النـاس فـي شبرا. الحياة تسع الجميع والعروسان سيقيمان معهم فوق السطح. أخلت الخالة فاطمة الغرفة الأخيرة القبلية وتم تجهيزهـا بسـرير معدني ودولاب مرآة. تم فرش الأرضية كليم هدية مـن السـت بطة. من النقوط اشتروا جهاز راديو مسـتعمل ماركـة فيليـبس وضعوه على رف خشبي على الحائط المواجه للدولاب، بـالقرب من صورة مصطفى العريس مع الكابتن الضظوي بجـوار رايـة الكورنر.

تجمعت الستات من الأهل والباديات ليلة الحنـة وانضـم إليهم الست بطة والحاجة فريدة ونبيلة ونادية ووهيبـة وصـباح وصف صف وكانت ليلة. تَصرفَ صالح ابن الحجة فريـدة فـي طبلة ورق من أحد أصدقائه وهات يا طبل ورقص وغناء طـول الليل. يوم الفرح رقص الرجال من البلد في السطح رقصات بلادهم وناسهم. يصطفون صفًا بجوار بعضهم البعض ويرقصـون مـع التصفيق بأكفهم على نغمات الأغنيات الصعيدية وهـم يتقـافزون ويتمايلون يمنة ويسرة. اشترك معهم صالح ابن الحاجة فريدة في

الرقص آخر الليل. ليلة مليئة بالفرح وسط نسمات الخريـف ذات الوردة المنعشة.

(٨٧)

عزيزي مجدي

أكتب إليك من باريس وأنا جالس بإحدى مقاهي بـاريس العديدة. أتخذ مكاني خلف الزجاج في جو المقهـى الـدافئ وأنـا أراقب الشوارع الخالية من المارة تقريبا وهـي مغطـاة بـالثلوج البيضاء. منظر بديع لم نعتد عليه في مصر. الجو بارد جدا فـي الخارج لكن الأماكن كلها مـدفأة بالتدفئـة المركزيـة، البيـوت والمقاهي والمكاتب، كلها مدفأة. داخل الأماكن المغلقة لا تشـعر بأية برودة، تتحرك بالملابس الخفيفة. لكن الوضع يختلف عنـدما تخرج إلى الشارع، لابد من ارتداء البـالطو الثقيـل ويستحسـن الكوفية. أطيب تمنياتي بمناسبة العام الجديد، الذي أرجو أن يكون عاما موفقًا لك وللأسرة.

لم أستطع للأسف وداعك قبل السـفر. كانـت ظروفنـا مرتبكة، تستطيع أن تتفهم ذلك طبعا. أتمنى أن تكون لنا لقـاءات قريبة، هنا في باريس.

أقيم طرف عمي بإحدى ضواحي باريس. عمـي رجـل مسن ويعيش بمفرده. الأسرة ليست معنا في بـاريس. أتمنـى أن يوفقوا في حياتهم الجديدة. يعز علينا جميعا فراقكم، لكنها الحيـاة بمصاعبها ومشاكلها التي تفرض علينا. ماما بكت طـويلاً ليلـة

السفر. كيف سنستطيع أن ننسى شبرا وشارع البعثة، حيث ولـدنا جميعا. كيف نستطيع أن ننس"أبو قير" والبحـر الميـت وطابيـة نابليون، جلسات الشاطئ في ليالي الصيف. مناقشاتنا معـا عـن المستقبل. ذكريات لا تنسى.

بعد رحيل الأهل جميعا، أصبحت قلوبنا ممزقة بين الأهل وبين الأصدقاء والأحباء والجيران. أحيانا تفقد الشـعور بالأمـان دون أن تضع يديك على الأسباب. حتى إذا كنت تعيش في أمان، فأحيانًا تشعر بالتوجس، وهو شعور مقلق وسلبي. أحزان لابد أن نتعايش معها، فليس من السهولة تجاوزها ونسيانها.

لحسن الحظ حصلت على منحة لدراسة الدكتوراه. بـدأت في الدراسة منذ شهر سبتمبر الماضي، عندما كنتم في"أبي قيـر". وقتي مشغول جدا بالدراسة. لم أجد فرصة كافية للفرجـة علـى باريس بشكل جيد. في العطلة الأسبوعية الماضية زرت متحـف اللوفر. متحف ضخم ومليء باللوحات النادرة.

أجمل ما في باريس البنات والنبيذ. البنات هنـا هـوس. نسبة الجمال والدلال مرتفعة جدا. أتمنى أن أنجح في تنظيم وقتي قريبا حتى أتمكن من الاستمتاع بباريس.

ما أخبار دارستك؟. هل مازلـت تخطـط للسـفر بعـد البكالوريوس؟ معك عنواني، أرجو أن تكتب لي سريعا وتحكي لي

عن أخبارك بالتفصيل وأخبار"أبو قير". اكتب لي أيضا إذا كنـت تريد شيئًا من باريس.

سلامي إلى ماما وبابا ونبيلة ورو وصباح. أرجو أن ألقاك قريبا في باريس ولا تتأخر في الكتابة لي.

تحياتي لك وللأسرة جميعا وإلى الخطاب القادم.

جابي

(٨٨)

- بنتك يا ست الحاجة ماشية على حل شـعرها. عينهـا قوية ولا تختشي. ماشية مع ولد صايع فـي الشـارع. عاجبـك أعمالها الفاجرة.

دخل صالح إلى البيت هائجا والحاجة فريدة تقف حـائرة أمام باب الغرفة المغلق على نادية، بعد أن عادت مـن الخـارج غاضبة وهي تبكي ودخلت إلى غرفتها منفعة وأغلقت الباب خلفها بعصبية بالمفتاح.

أخذ صالح يصرخ وهو يدق على باب الغرفة المغلق بكفه بعنف:

- افتحي يا شرموطة يا فاجرة... افتحي الباب أحسـن لك.

استمر صالح في الهياج والبرطمة، كان قميصـه ممزقًـا وجبهته متورمة وحمراء بعد شجاره مع الولد بالشارع. تماسـكا بالأيدي وطرح الولد أرضا، تدخل المارة لفض الاشتباك، بعد أن أنهضه المارة من الأرض، اندفع ناحية صالح وضربه روسية في جبهته تورمت على أثرها.

- ادخل لتغسل وجهك ولتنظف الجرح.

قالت له الحاجة فريدة وهي تسـحبه مـن يـده لتنظيـف الجرح، عادت بعدها إلى نادية المعتصمة بغرفتها، نقـرت علـى الباب وهي تقول:

- افتحي يا نادية، عيب، لا يصح ما تفعلينه.

أجابت نادية وصوتها مفعم بالبكاء:

- ألا ترين ما يفعله، هذا الولد أخو يسرية زميلتي فـي المدرسة وقابلته مصادفة في الشارع، ماذا أقول لهـا الآن؟!.

كذبة بيضاء. لم يكن الولد أخا ليسرية... لقد كان الجو... تفتق ذهنها عن هذه الكذبة لتغطي عملتها.

بذلت الحاجة فريدة جهدا كبير لامتصاص غضب صالح، شارحة له الموقف كما تحججت نادية، أثنته عن عزمه بالـذهاب إلى بيت يسرية صديقتها وإثبات أن الولد أخوها فعلاً. صالح نَفَسه قصير وطيب، ساعد ذلك على تهدئة أمه له قبل أن تفـتح ناديـة الباب وهي مرعوبة من أخيها وجنانه الذي تعرفه عنه.

وضعت الحجة فريدة بريزة على الـورم ولفـت رأسـه بمنديل ضاغطة على الورم بالبريزة حتى يفش سريعا وهي تقول له:

- ألا تتأنى قليلاً قبل الخطأ في الناس؟

أنهت الحاجة فريدة الحديث عندما بدأ صالح يثـور مـرة أخرى مقسما أنه متأكد أن الولد ليس أخا ليسرية، ولا تعرفه.

(٨٩)

- لقد قررت أن أقابل والد نبيلة وأطلبها منه.

فوجئ نادر بقرار سعيد بينما هو منهمـك فـي تحضـير بيانات التقرير الشهري. تنهد مبتسما وهو يقول له:

- أخيرا...

قال سعيد وهو ساهم بنظره في الفراغ:

- هذه الخطوة أصبحت ضرورية وستحدد أمورا كثيرة.

علق نادر:

- على الأقل ستضع نبيلة أمام الأمر الواقع. يجـب أن توجه الأمر.

نظر إليه سعيد حائرا وهو يتساءل:

- هل تعتقد أن هذه الخطوة ستغضب نبيلة؟

تساءل نادر بدوره:

- ألم تتفقا على الموضوع؟

أجابه سعيد:

- نبيلة ترفض بشدة.

- إذا لم تكن هي قادرة على المواجهة، فتتركـك أنـت لتواجه.

أجابه سعيد وهو يهز رأسه حيرة:

- مشكلتها في التردد وليست في المواجهة.
- إذن فقرارك صائب وسينهي ذلك التردد.
- قراري هذا سيدفعها إلى مواجهة الموضوع وهي غير مستعدة ومرتبكة الذهن. ستفاجأ به.
- طبعا ستربكها المفاجأة.
- هذا ما أخشاه، وقد تسيء التصرف.
- يجب أن تمهد لها الأمر.
- أنا واثق أنها سترفض.
- أبلغها أنك قد أرهقت من طول الانتظار والتردد وأنك ستقابل والدها رغم رفضها.
- هذا ما سأفعله.
- لكنك لم تنتبه إلى نقطة هامة، فنبيلة في السنة النهائية وإثارة الموضوع قبل تخرجها ليس من الحكمة.
- إن تفكيري مضطرب للغاية. لا أستطيع للأسف أن أرتب أفكاري.
- بالتأكيد هذه الصراعات سيكون لها تأثير سلبي على دراستها ونتائجها في الامتحانات. أعتقد أنه يجب تأجيل الموضوع إلى ما بعد امتحانات التخرج.

صمت سعيد وعلامات الضيق والحيرة تبدو على وجهه.

- واصل نار قائلاً:

- لا فائدة ترجى من فتح الموضوع الآن. اتركها لتنتهي من دراستها أولاً وبعدها لك ما تشاء. حتى مع التفاؤل بأن الأمور ستسير على ما يرام، فإنكما لن تتزوجـا قبل تخرجها.

هز سيعد رأسه موافقًا وهو يقول:

- معك حق. ألم أقل لك إني مشتت الذهن.

(٩٠)

أشرف الصيام الكبير على الانتهاء وهلت بشـائر العيـد، عيد القيامة وشم النسيم. تكررت الطقوس المعتادة من التجمع بشقة الست بطة وعمل الكعك والبسكويت والغُريبة وإرسال الصـاجات إلى الفرن. يوزع الكعك على بيوت البيت، لكل نصيبه. الأقبـاط والمسلمون، المصريون والخواجات. هذا ما ألاحظه أنا الآن وأنا أحكي لكم هذه الحكايات. الجميع يتشاركون في جميع المناسـبات. الكعك يخبز وتذوقه الحاجة فريدة والست أسماء أم مازن لصـيام الأقباط والكعك فطاري طبعا لمن لا يعلم، فهو يجهز بالسمن. يتم توزيعه بعدها على البيوت، لكل واحد نصيبه. طبعا نصيب الأقباط سيكون أكبر من بقية الأنصبة، لأن العيد عيدهم وسوف يسـتقبلن الزوار والمهنئين بالعيد، وطبعا سيقدمون لهم الكعك والبسـكويت والغريبة. لنفس السبب، يخبز المسلون الكعك والبسكويت والغريبة في عيد الفطر بشقة الحاجة فريدة، يتجمع الجميع عندها، ويكـون نصيب المسلمين من الكعك أكبر من الآخرين. أما العيـد الكبيـر فهو عيد الضحية، يسمونه عيد اللحم.

(٩١)

استيقظ الجميع في فراشهم على رائحة البصل. شم النسيم، شم البصل في شم النسيم عادة مصرية طبعا . قد تكـون بعـض الأجيال الجديدة قد تناستها أو أهملتها، أو جهلتهـا، لكنـه عـادة المصريين صباح كل شم النسيم من زمان. يجهز البصل منذ مساء اليوم السابق، وتكون مهمة أول من يستيقظ في الأسرة، أن يقـوم بإيقاظ بقية أفراد الأسرة على رائحة البصل.

- قم... اصح... صباح الخير... النهاردا شم النسيم... كل سنة وأنت طيب... استعدوا للخروج.
- اتفقت الجماعة على الذهاب في رحلـة نيليـة إلـى القناطر الخيرية.
- الست بطة والحاجة فريدة وأم مازن وستاسيا والخالة فاطمة والأولاد. الست ماري خوري لا تحب الزحام وتفضل هي والست عايدة وسيلفيا وأسرتها الـذهاب مبكرا إلى أحد كازينوهات النيل، ثم العودة إلى البيت قبل الظهر للعب بارتيتة كونكان مـع المتـاح مـن الصديقات.
- استقلت الجماعة المتجهة إلى القناطر الخيرية التـرام حتى مرسى ساحل روض الفـرج. ركبـوا إحـدى

المراكب النيلية المزدحمة بالركاب. تحركت المركب في طريقها إلى القناطر الخيرية بين غنـاء ورقـص الشباب والشابات، الذي لم يتفق طول الرحلة وحتـى الوصول.

- نزلت الجماعة في القناطر وانطلقت تبحث عن بقعـة ظليلة في الحدائق لتحط رحالهـا. أخرجـوا الفسـيخ والملوحة والرنجة والبيض الملون وتحلقـوا جميعـا لتناول وجبة شم النسيم الشهيرة. جهز الكبار الشـاي وجلسوا يسامرون بينما انطلق الصغر إلى الحـدائق. قبل الغروب عاودوا أدراجهم ليستقلوا المركب مـرة أخرى عائدة إلى شبرا، التي وصـلوها بعـد حلـول الظلام.

(٩٢)

اتفق سعيد مع نبيلة على تأجيل بحث مشكلتهم تماما حتى تنتهي نبيلة من امتحانات الليسانس وتجتازها بنجاح. تستطيع أن تقول إن الأوضاع قد تجمدت على الانتظار والتأجيل دون الدخول في مناقشات، معظمها مكررة ومعادة، أو اتخاذ قرارات حادة بالتوقف في العلاقة، ثم التراجع عنها كما يحدث دائما.

انشغلت نبيلة بالامتحانات. نبيلة متفوقة في دراستها منذ الصغر. تستطيع أن تدخل إلى جو العمل دون عناء ويستغرقها عملها بعد فترة وجيزة، بالإضافة إلى أنها تحب اللغة الفرنسية وآدابها. كانت تتصل بسعيد تليفونيا في الشركة لتطمئنه بعد كل امتحان، لم تكن الامتحانات مشكلة بالنسبة لها، فكان سعيد دائما يتلقى الإجابة المطمئنة بعد كل امتحان. كانا يلتقيان خلال فترة الامتحانات لقاء سريعا بعد امتحانات يوم الخميس. يستأذن سعيد من الشركة ويمر عليها بالكلية، يجلسان معا بالكافيتريا، تعود بعد ذلك نبيلة إلى البيت لتواصل استعداداتها للامتحانات التالية، بينما يعود سعيد إلى الشركة مرة أخرى. كان سعيد يتعجل انتهاء الامتحانات بقلق بالغ. سوف يقابل فهمي أفندي. لقد عزم أمره على ذلك مهما كان رأي نبيلة، سيضعها أمام الأمر الواقع، إما أن تتراجع نهائيا وينتهي الموضوع، أو تواجه الموقف وتقدم على

الزواج. وقوع البلاء ولا انتظاره. لم يعد يحتم حالة القلق والحيرة التي يعيشانها، تلك المساحة الرمادية التي يقف فيها حاملاً همـوم الدنيا على كاهله.

مع مرور الوقت، رغم كل ذلك، وكلما شارفت الامتحانات على نهايتها، كان الخوف يزداد بداخل سعيد. لا يـدري لمـه؟... هل هو الخوف من المواجهة؟... هل هو الخـوف مـن فقـدان نبيلة؟... هل هو الخوف من المستقبل الغائم؟... تساؤلات تعتمـل بداخله ولا يجد لها إجابات شافية، لكنه يشعر بمـزيج مـن الهـم والانقباض.

يتكرر المشهد دائما، زفر سيعد زفرة عميقة وهو يقـول لنادر صديقه ذات الجملة:

- أشعر بالانقباض.

يأخذ نادر في مواساته بكلمات وجمل لا يسمعها سـعيد. يوجهها إليه وهو لا يسمعها لفرط استغراقه في تفكير مفرغ، عديم الجدوى. هناك لحظات لا يستطيع الإنسان فيها أن يكون منطقيـا. لن يسعفه فيها العقل. لحظات يتراجـع فيهـا التعقـل والاتـزان والتحليل والمنطق، ويطفو على السطح فقط، الضعف والاستسلام. لا يرى المرء أمام ناظريه سوى مشكلته الشخصية، كـأن العـالم أجمع قد تم اختزاله في بؤرة وحيدة.

(٩٣)

كان لقاء عصيبا بين نبيلة وسعيد عقب انتهاء الامتحانات. أبلغها سعيد بأنه سيذهب إلى والدها في الوزارة ويتكلم معه فـي أمرهما. طلبت منه أن يعطيها مهلة أخيرة. أصر سعيد على إتمام اللقاء فورا ودون إبطاء. قالت له في نهاية حوار طول:

- لن أستطيع أن أواجه الموقف.

أجابها سعيد باحتداد:

- لهذا السبب اتخذت قراري.

أطرقت برهة ثم قالت له:

- وإذا كنت لم أستقر على زواجنا بعد؟

أجابها متحديا:

- سأقابله حتى ولو رفضتِ أنت زواجنا.

ثارت عليه قائلة:

- ليس من حقك أن تقرر بمفردك. يجب أن نتفق علـى كل خطوة نخطوها. هذه حياتنا المشتركة.

أجابها على الفور:

- أحيانًا لا تصلح الديمقراطية لحسم الأمور.

قالت له بحدة:

- إياك أن تذهب بدون موافقتي. سينهي ذلك ما بيننا.

(٩٤)

أنهى زاريه امتحانات البكالوريوس وبدأ العمـل بكثافـة للانتهاء من مشروع التخرج. بعد الامتحانات الشفوية والتحريرية يجب أن يقدم طالب الهندسة مشروعا متكاملاً للتخرج، يكون قـد أكب عليه طول العام. خطـوة أخيـرة ويحصـل زاريـه علـى بكالوريوس الهندسة المدنية. رتب نفسه أن يسعى للحصول علـى الواقفة على الهجرة إلى أمريكا. سيقدم طلب الهجرة إلى السـفارة الأمريكية وينتظر الموافقة. فرص العمل بالولايات المتحدة متاحة للمهندسين. علم أنه يستطيع التوفيق في الحصول على عمل بعـد فترة قصير من وصوله. يمكن أن يبدأ العمـل أولاً فـي إحـدى الشركات أو في أحد المكاتب الاستشارية كرسام هندسي، بعـدها يتم ترقيته إلى وظيفة مهندس. هكذا أبلغه معارفه الـذي سـبقوه بالهجرة إلى أمريكا. سيسافر بمفرده أولاً، يرتـب أمـور عملـه ومعيشته، بعدها يرسل لأمه وأخته ما يلزمهما للسفر إليه واللحاق به. يتمنى من كل قلبه أن يتمكن من مواصـلة دراسـته العليـا بأمريكا للحصول على الماجستير والدكتوراه. زاريه متفوق فـي دارسته وله اهتمامات أكاديمية، هي الـدافع وراء إقدامـه علـى الهجرة. الدراسة ستكون ممكنة أمريكـا مـع بعـض المجهـود. يستطيع أن يعمل عامين أو ثلاثة أعوام بجـد، يراسـل خلالهـا

الجامعات الأمريكية لمحاولة الحصول على منحة دراسية. آمـال عريضة تراوده وهو يكب على إنجاز مشروع التخرج. تكونـت ورشة عمل بمنزله كما يحدث دائما بين طلاب كليات الهندسـة، مجدي ورورو يساعدانه ليل نهار في رسـم وتحبيـر اللوحـات الهندسية للمشروع. قال له رورو ليلة تسليم المشروع:

- والله العظيم سآخذك بالعافية إلى اللواء خيري هديـة نجاحك وحصولك على البكالوريوس.

زاريه يترفع عن مثل تلك الشطحات ولا يمكن أن يقبـل مثل ذلك العرض. ابتسم ابتسامته الودود وهو يجيبه:

- ليس بيني وبين العسكر عمار.

علق مجدي ضاحكًا وموجها كلامه إلى رورو:

- ليس له في الطيب نصيب. خذه إلى المتحف المصري أو إلى الكنيسة المعلقة.

شخر رورو وهو يقول لمجدي:

- هذه الأماكن يذهبها بمفرده يا روح أمك.

(٩٥)

حصل سالم ابن الحاجة فريدة على شهادة إتمام المرحلـة الثانوية بالعافية، بعدها مباشرة طلب من الحاجة فريدة أن تطلـب له يد نفيسة أخت صديقه حسين للزواج. شهقت الحاجة فريدة وهي تخبط صدرها بكفها من فرط الدهشة. قالت له:

- من سيصرف عليك وعلى الهانم إن شاء الله. خيبتـك ثقيلة. ابحث لك عن وظيفة الأول.

أجابها قائلاً:

- حسين أخوها سيتوسط لي للعمل بشركته.

مصمصت شفتيها وهي تقول:

- ساعتها يحلها ربنا.

قال لها معترضا:

- تقدم لها عريس لُقطة وأبوها يريد تزويجها له، حسين قال لي ذلك.

قالت له وهي تنهض لتغادر الغرفة لتنهي النقاش:

- تلاقيه عاوز يلزقها لك. إن شاء الله سيأخذ خازوقًا.

(٩٦)

وصل خطاب من ليبيا للست عائشة. دمعت عيناها وهـي تفض الخطاب. خطاب من رائحة الحبايب. هاجا الشوق والحنـين لأخيها الوحيد. لم يحضر إلى القاهرة منذ ثلاث سـنوات، عنـدما أمضى آخر إجازة له بمصر.

الأستاذ شريف عبد الحليم يعمل مدرسا للرياضيات بليبيـا منذ أربع سنوات، عندما أعير للعمل هناك. جاء في إجـازة بعـد عام ثم انقطع عن المجيء في إجازته إلى مصر. فضل أن يـرى بلاد الدنيا. شريف يعمل بمدينة طرابلس بمدرسة عمـر المختـار الثانوية للبنين. اتفق هو وزوجته كريمة على الذهاب في الإجـازة التالية إلى تونس القريبة من طرابلس. سمعوا عن تونس الكثيـر من الأخبار الطيبة التي دفعتهم لاختيارها. بلد سياحي أصبح لـه موقع مرموق على خريطة السياحة العالميـة. أهلـه مضـيافون ومسالمون كطبيعة أهل البلاد الزراعية. لمس شريف ذلك بنفسـه من التونسيين الذي قابلهم بطرابلس كثيرا، فالعديد من التونسـيين يعملون بطرابلس القريبة منهم، أناس هادئو الطبـاع ومرحـون. يسهل إقامة علاقة إنسانية معهم. بهرتهم تونس في أول إجازة لهم بها. بناء على توجيهات معارفه التونسيين، وضعوا خطة رحلتهم، توجهوا بالطائرة إلى تونس العاصمة. أقاموا ليلتين بهـا. أُخـذوا

بنظافتها وجمال شوارعها، شارع بورقيبة وشارع باريس، شوارع مزينة بالأشجار على الجانبين، تتناثر فيها مقاهي الرصيف" Café trottoir"، مثلما قرأ عن باريس في قراءاته المتعـددة. تجولـوا بأحياء تونس العاصمة وشاهدوا معالمها، سيدي بوسـعيد وحلـق الوادي وجامع الزيتونة العريق توجهوا بعدها إلى سوسة، والتـي قضوا فيه إجازة تعجز الكلمات عن وصـفها. دعاهمـا موظـف الاستقبال بالفندق الذي يقيمان به، لكي يصـاحباه فـي إجازتـه الأسبوعية، لزيارة بيت أسرته بمدينة القيروان التاريخية. أخذهما بسيارته وعرفهما على والدته المسنة وأخيه الأصغر. تجول بهما في جامع عقبة بن نافع الشهير وعاد بهما في نهاية اليوم. من فرط سعادتهما بإجازة تونس، كرراها في العالم التالي، لكنهما ذهبا في المرة التالية إلى الحمامات.

لم تنجب كريمة زوجة شريف رغم زواجهما قبل عشـرة أعوام، عقب قصة حب عنيفة. تبين بعد جـولات مضـنية علـى أطباء أمراض النساء، أنها لن تتمكن من الإنجاب. صرف شريف النظر عن الإنجاب وقنع بحياته الهانئة مع كريمة. شريف عاقـل ومثقف، كون لنفسه منظومـة مـن القـيم المتميـزة. منظومتـه الشخصية التي استقاها من قراءاته المستمرة وثقافته الموسـوعية. لم يستطع الإيمان بالأديان السماوية، لكنه ليس ملحـدا موقنًـا، لا يملك يقينًا بعينه ويقرأ دائما بنهم إلى المعرفة. تخرج مـن كليـة

العلوم، قسم الرياضة البحتة. دراسته للرياضيات وقراءاتـه فـي الفلسفة صبغت تفكيره بعقلانية صارمة.

أرسل شريف خطابه إلى أخته الست عائشة يبلغهـا فيـه بحضوره في إجازة هذا العام إلى القاهرة. طلـب منهـا ترتيـب تنظيف شقته قبل حضوره. شريف يترك مفتـاح شـقته بشـارع روض الفرج للست عائشة لأية ظروف طارئـة أثنـاء غيابـه، كانفجار مواسير المياه أو انسداد المجاري وغرق الشقة أو حدوث ماس كهربائي، بالإضافة إلى ترتيب تنظيفها قبل حضـوره فـي الأجازات. ألم أقل لكم إنه يتمتع بتفكير عقلاني منظم.

يوم الجمعة، أخذت الست عائشة صباح ومعهـا لـوازم التنظيف وتوجهت إلى شارع روض الفرج. أمضيا النهار بطولـه في عملية تنظيف شاملة استعدادا لوصول أخيهـا وزوجتـه فـي الموعد الذي حدده بعد حوالي ثلاثة أسابيع من تـاريخ وصـول الخطاب إليها.

سعد مجدي ونبيلة للغاية بنبأ وصـول خالهمـا شـريف. تربطهما به علاقة حميمة. يمكن أن تعتبرها أبوة روحية. اسـتفاد مجدي من ثقافة خاله الموسوعية من نقاشاته الطويلة معـه فـي تحسس طريقه، أثناء خطواته الأولى في ارتيـاد طريـق الثقافـة والقراءة والإطلاع. شريف يمتلك مكتبة عامرة بشـتى صـنوف الكتب في مختلف مناحي المعرفة، كانت تلك المكتبة الزاد الرئيس

لقراءات مجدي في البدايات. كان خاله يعيره مـا يـراه مناسـبا ليتدرج بسهولة في مدارج المعرفة. الأثر الإيجابي الآخـر الـذي أفاد مجدي، جاءه من صداقته لزاريه، لاتفاق ميولهمـا ونهمهمـا الثقافي والمعرفي.

(٩٧)

تأخرت العادة الشهرية شهرا حتى الآن... يادي المصيبة. ماذا سـأفعل؟... هـل أنـا حامـل؟... يـارب... لا لا لا... لا أستيطيع... مستحيل... نيكوس سيقتلني... كـل خناقـة يشـتمني ويقول لي فالحة فقط في إنك تزربي لي عيال على طـول... أنـا خائفة... ماما لا تشعر بالمصيبة... تقول لي ربنا أرسل لك بيبي هدية... دي هدية من ربنا يا عبيطة... أنا عبيطة... هي لا تدري ماذا ينتظرني... تقول لي ملعون أبوه... لا لا لا... لازم البيبـي ينزل... بأي طريقة... لمن أتوجه ياربي؟... زينب فقط هي التي تعرف... ضحكت عندما أخبرتها وقالت عقبالي... هـل أحكـي لإيرين؟... إيرين مشغولة بحياتها ومشاكلها مع عبـاس... يمـر شهر دون أن أراها... من الذي يفهم في هذه الموضـوعات؟... أريد أن أتخلص من الجنين... هل أذهب إلى دكتور؟... لا أعرف أحدا... ليس كل طبيب يوافق على عمل علمية الإجهاض. يقولون إنه توجد طرق بلدية للإجهاض... سأطلب من زينب أن تستفسـر لي من أقاربها وأصحابها... هل أسأل الخالة فاطمة؟ ست كبيـرة وضروري عارفة... لا لا... الخالة فاطمة ست مؤمنة وتصلي... سمعتها كثيرا تقول حرام الواحدة تسقّط العيل... ربنـا يزعـل... هي زينب... سأطلب منها أن تسأل لي.

(٩٨)

صالح أصبح يكره فصل الصيف، رغم الإجازة الصـيفية من الدراسة وقرفها. البنت أنجيلا ابنة أندريا تكتم على أنفاسه هي وأخوها كوستا. إجازة ولا يستطيع أن يختلي بمدام هيلينا."أرجـع تاني للعادة السرية بعد أن تاب علي ربنا". فترة الإجازة الصـيفية أصبحت عذابا بالنسبة إليه، بعد أن كان ينتظرها بنفاد صبر طول العام الدراسي. ماذا يفعل؟... استعبط ذات مرة وطـرق البـاب. فتحت له مدام هيلينا ودعته للدخول. رائحة عطرها أعادتـه إلـى الأيام الخوالي. لم تفارقهما البنت أنجيلا الملعونـة، سـأل نفسـه بحيرة، هل تشعر أنجيلا بشيء؟ أرسلتها جدتها لإحضار كوب ماء فخطف قبلة عجلى وهو يعتصر ثديها بوحشية. تخلصت منه بلباقة قبل أن تعود أنجيلا بالماء. خرج من عندها وهو يشـعر بمغـص شديد بخصيتيه وبطنه. جرى شقتهم ودخل الحمام، مارس العـادة السرية مرتين.

عندما سافر أهل صديقه لمعي لزيارة أقاربهم ببلقاس، ألح عليه أن يحضر مدام هيلينا إلى شقتهم، لم يصمد لمعـي لإلحـاح صالح، الحقيقة لمعي معذور، فصالح يستطيع أن يقنعه بأي شيء بطريقته الماهرة، يمكن أن يقنعه بأي شيء ونقيضـه إذا شـاء. صالح شخصية قيادية ولمعي ذو شخصية منقادة له، ضحك عليـه

وأفهمه أن مدام هيلينا قد تقبل أن تنام معه بعد أن ينتهـي صـالح معها، لمعي صدقه، جلس لمعي ينتظرهما فـي الصـالة ثـلاث ساعات وهو في غاية الهيجان، فتح باب غرفة نوم والدي لمعـي، والتي اختارها صالح إكراما للست الكبيرة، كما قال للمعي. خرجا معا، صالح ومدام هيلينا في كامل ثيابهما، قامـا بتوديـع لمعـي بسرعة وهو في ذهول. بعد أن خرجت مدام هيلينا مـن الشـقة، تقهقر صالح خطوة وهمس في أذن لمعي قائلاً:

- حظك هباب. جاءتها العادة الشهرية فجـأة، بعـد أن أقنعتها ووافقت.
- الأهبل صدق أن العادة الشهرية يمكن أن تجيء لمدام هيلينا ولعن حظه العاثر.

(٩٩)

تقدم عطية البائع السريح لطلب يد صباح من فهمي أفندي والست عائشة. فوجئت الست عائشة وشكت في أن يكون عطية قد شاغل صباح، أو أن تكون هي قد استجابت له. طلبت من عطيـة أن يعطيها مهلة لتشاور صباح في الأمر. قالها إنه مستعد بالشبكة والمهر الذي تحكم به هي وفهمي أفندي. بعد أن استأذن عطية في الانصراف، نادت على صباح، فاجأتها قائلة:

- عطية تقدم لطلب يدك.

بانت الدهشة واضحة على وجه صـباح وهـي تتسـاءل متعجبة:

- أنا اتجوز عطية؟!... يادي الخيبة علي وعلى سنيني.

اطمأنت الست عائشة لبـراءة صـباح مـن هواجسـها واستراحت إلى أنها لا تلعب بذيلها. تساءلت مستطلعة:

- ماله عطية، بياع كسيب ومجتهد.

قالت صباح معترضة:

- يا ستي دا طول النهار ماشي حافي في الشارع.

قالت الست عائشة:

- البركة فيكِ... علميه ومدنيه...

واصلت صباح اعتراضاتها:

- عطية جاهل... لا يفك الخط.

كانت صباح قد تعلمت مبادئ القراءة والكتابة وهي طفلة، قبل أن تترك المدرسة وتشتغل بالبيوت بعد وفاة أبيهـا المبكـرة. وصالت مع نبيلة أيضا حتى أجادت القراءة والكتابة. كان ذلك قبل أن تغار زينب ابنة عم سيد البواب وتطلب هـي الأخـرى تعلـم القراءة والكتابة.

قالت الست عائشة لنفسها بصوت مسموع:

- يادي الكسوف، ماذا سأقول له؟

أجابتها صباح وهي تكتم غيظها:

- قولي له ياستي إني مخطوبة لقريبي.

عقبت الست عائشة منهية الحديث:

- فكري جيدا في الأمر يا صباح... أنت لستِ صغيرة.

ردت صباح بعصبية هذه المرة:

- والله لو كان آخر رجل في الدنيا فلن أتزوجه.

(١٠٠)

ظهرت نتيجة نبيلة. حصلت على ليسانس الآداب بتقـدير جيد. كانت تأمل في تقدير أعلى. فرحت طبعـا بالنجـاح، لكـن الفرحة شابها قدر من الإحباط. تنجح كل عام بتقدير جيـد جـدا. كيف أفلت منها التقدير هذا العام؟... عادت إلـى الـوراء، إلـى الشهور السابقة للامتحانات واستعادت ذاكرتها فترات القلق وعدم التركيز التي كانت تنتابها. لم تكن تعمل بذهن صافٍ... خسـارة التقدير.

زغردت صباح زغرودة طويلة عندما عادت نبيلـة مـن الكلية وأبلغتهم بخبر النجاح بتحفظ. قالت لها الست عائشة وهـي تحتضنها مبروك يا حبيبتي... المهم حصـلت علـى الليسـانس بتقدير. احتضنها مجدي بقوة، رفعها من على الأرض وهو يدور بها مهللاً. فرت دمعة من عين فهمي أفندي وهو يـرى ويعـايش التخرج الأول بين أبنائه.

حلت ساعة العمل. نبيلة نجحت وحصلت على الليسـانس وبدأت العجلة تدور. استجمع سعيد نفسه بعد ظهور النتيجة واتخذ طريقه إلى وزارة الصحة. فقد كل تصميمه أمام الوزارة. انتابـه قلق واضطراب شديدان لدرجة أنه لم يستطع السيطرة على رجفة شديدة انتابته، أخذت أسنانه تصطك رغما عنـه. شـعر بـدوار

وزغللة في عينيه ووقف متحجرا لا يتحرك. لم يستطع أن يتمالك نفسه ويتقدم فاستدار عائدا إلى مكتبه بشارع سليمان باشا، مرجئًـا لقاء فهمي أفندي إلى يوم آخر.

(١٠١)

هل هذا معقول؟... لم أستطع بالأمس أن أخطو خطة واحدة... كيف سأقابله اليوم؟... كيف يمكنني أن أضمن عدم الاضطراب هذه المرة؟... لقد كاد قلبي أن يتوقف بالأمس... أمعقول هذا؟... أفقد القدرة على مفاتحة الرجل في الموضوع بهذا الشكل... لا يصح أن أتكلم معه وأنا أرتجف... إذا كنت سأرتجف وأنا أتقدم لطلب الزواج، فماذا سيظن بي الرجل؟... كيف سأواجه الناس والأهل بعد أن أشهر إسلامي؟... الرجل سيظن بي الضعف. وعدم تقدير الأمور جيدا. كيف أقنعه وأنا على هذه الحالة بأنني كفء لهذا الموقف الصعب... لابد أن أتمالك نفسي جيدا وأكف عن هذا الاضطراب... ماذا تخشى؟... أن يرفض... رفضه محتم... بل هو المتوقع في الغالب... يجب أن أتحدث معه وأنا أمتلك التركيز الكافي... استرجل يا جدع... بطل جبن... لا أدري ماذا حدث لي... يجب أن أمتلك الحجة والقوة لإقناعه... كيف أتماسك؟... فكرة!... سأشرب كأسين قبل الذهاب إليه. هل يشرب المرء وسط النهار؟... ليست مشكلة... المهم التخلص من هذا الاضطراب... أمعقول أن أذهب لطلب ابنته ورائحة الخمر تفوح من فمي؟... ماذا سيقول عني؟... ممكن حلها... سأبتلع باكو نعناع بعدها... اللبان يمكن أن يساعد أيضا... أو

الربسوس... لا... النعناع أحسن. يجب أن أنهي الموضوع اليوم... لقد أخذت إجازة خصيصا لهذه المهمة... سأمر على عم قلدس... أشتري ثُمن براندي وأشرب عنده على الواقف... مسافة السكة يكون النعناع واللبان قد قاما بالواجب... يارب المسألة تمر على خير.

(١٠٢)

نظر عم قادس من خلف نظارته بدهشة لسعيد وهو يعـب البراندي من الزجاجة مباشرة في سرعة عصبية. الدنيا مازالـت صباحا. إيه الحكاية؟... امتنع عن محاولة استيضـاح الأمـر أو السؤال كعادته. لا يحب أن يسأل حتى لا يسأل. قطع قطعة جـبن بيضاء ومدها إليه على طرف السكين قائلاً:

- خُذ... غير ريقك.

شكره سعيد هو يلقم قطعة الجبن وخرج مسرعا. اشـترى النعناع واللبان واستقل سيارة تاكسي في طريقه للقاء فهمي أفندي بالوزارة. ساعدت الخمر على تهدئته وبدأ يحاول ترتيب أفكـاره. طبعا سيتعجب فهمي أفندي لهذه الزيارة غير المتوقعة. لن يتمكن من الاستنتاج. كيف سأبدأ الحديث؟... في الحقيقة... كنت مـارا بجوار الوزارة... قلت أزورك... قرعاء... إيه العبط دا... لا... كنت أريدك في موضوع هام... لِم لا تدلفي الموضوع رأسـا... خبط لزق... يا عمي أنا طالب إيد بنتك... مثل الأفلام العربية... لا لا لا... بطّل هزار...

نزل سعيد أمام باب الوزارة وهو أحسن حالاً من الأمس. البركة في الخواجه بولاناكي... أعطـاه الهـدوء والشـجاعة... يستطيع الآن أن يطلب فاتن حمامة للزواج، وليس نبيلة فهمي.

سأل عن مكتب فهمي أفندي عبد الفتاح. دله الفراش عليه فتوجه إليه وهو يستجمع كل قواه وشجاعته. دخل إلى الغرفة فلمح فهمي أفندي جالسا خلف مكتبه أقصى يمين الغرفة الرحبة، والتي تحتوي على مكتبين فقط، مكتب فهمي أفندي بأقصى اليمين، ومكتب آخر بأقصى اليسار. دارت الغرفة حوله وغامت الرؤية بعينيه، عندما هم فهمي أفندي من خلف مكتبه وتقدم للترحيب به ومصافحته. سحب كرسيا إلى جواره ودعاه للجلوس. ضغط على جرس فحضر الفراش. طلب سعيد كوبا من الشاي، لم يشربه فيما بعد. بعد التعبير عن المفاجأة، السعيدة طبعا، لزيارة سعيد والمجاملات المعتادة، اقترب سيعد برأسه إلى فهمي أفندي وقال له بصوت مرتجف:

- الحقيقة يا فهمي أفندي... أنا جئت إليك اليوم... في موضوع هام... وحيوي.

توجس فهمي أفندي للطريقة التي يتكلم بها سعيد ولصوته المرتجف الذي ينم عن أمر جلل. قال له باهتمام:

- تفضل يا سعيد يا ابني... أنا تحت أمرك.

صمت سعيد برهة قبل أن يتمكن من ابتلاع ريقه ومواصلة الحديث ثم قال دفعة واحدة وقلبه يعربد داخل صدره:

- الحقيقة... أنا أريد أن أتزوج نبيلة... وقد قررت أن أشهر إسلامي وأتقدم لزواجها... أنا أعلم أن

الموضوع شائك وغير معتاد... لكن... في سبيل تكوين أسرة سعيدة... لابد. أن يقدم الإنسان... خاصة... أقصد... في حالة وجود. مشاعر طيبة... بين الطرفين... ليس من السهل وجودها دائما... طبعا... أنا أعلم أنه ستواجهنا مشاكل عديدة... لكني أثق في إمكانية مواجهتها وتخطيها.

انقبض صدر فهمي مما سمعه من سعيد. ألجمته المفاجأة. ران صمت حائر بينهم. لحظات كالدهر، مرت قبل أن ينطق فهمي أفندي بحلق جاف وكلمات زائغة:

- هل تعلم نبيلة. بقدومك إلي... وطلبك هذا؟

أجابه سعيد على الفور:

- نبيلة لا تعلم بحضوري إليك اليوم. لقد جئت إليك رغما عنها. نبيلة في موقف صعب للغاية... تتأرجح دائما بين الإقدام والتراجع... عندما تفكر في المصاعب التي يمكن أن تواجهنا، فإنها تتراجع... تعد فتقدم عندما تضعف... بعدها تتراجع مرة أخرى... وهكذا... لا تستقر على حال... لذلك... قررت أن أبادر بلقائك، دون استشارتها. أردت أن أضع حدا لحيرتها وترددها.

فهم الرجل أن الموضوع وراءه حكاية طويلة خفيت عنه. حاول أن يتمالك نفسه ويستجمع أفكاره التي بعثرتها المفاجأة. تمتم بصوت خفيض:

- لا أدري ماذا أقول لك.

تشجع سعيد وقال:

- أنا أعلم أن الموضوع ليس سهلاً... لكنـي متمسـك بنبيلة.

قال له فهمي أفندي:

- الأفضل يا بني أن تأخذ واحدة من دينك، ولابد أنـك ستوفق في بنت مناسبة لو بحث بجدية.

أجابه سعيد على الفور:

- لا أتصور أنني أستطيع الزواج بغير نبيلة.

سأله فهمي أفندي:

- وماذا عن أمك وأختك الوحيدة؟

أجابه سعيد بكلمات متعثرة:

- طبعا... أنا عارف أنهما يمثلان المشكلة الأساسـية، لكني سأبذل كل طاقتي وجهدي لامتصاص صدمتهما. والزمن كفيل بالنسيان.

- أختك لم تتزوج بعد. من سيتقدم لها وهـو يعلـم أن أخاها قد غير دينه؟. ألم تفكر في هذه العقبـة التـي

ستؤثر على مستقبلها؟. لا يستطيع الإنسان أن يفكـر في نفسه فقط ويتغاضى عما يضر الآخرين. خاصـة إذا كانوا أقرب الناس إليه.

- آمال متفقة مع أحد زملائها على الزواج.
- قد يتراجع عندما يعلم.
- لقد فاتحته في الأمر وأبدى تفهما.

صمت فهمي أفندي مأخوذًا بالأمر كله ثم قال بجدية:

- أرجو أن تعيد التفكير في الأمر. نحن أسـرة واحـدة وأنا لا أرضى للست عايدة والدتك ولا لآمال أختـك هذه الصدمة، هناك بعض المواقف في الحياة، يجـب أن نتنازل فيها من أجل الآخرين، لا يوجـد أقـرب للمرء من أمه وأخته. لقد ضحت الست عايدة بعد وفاة المرحوم والدك وكرست حياتها لكمـا. لا يصـح أن يكون ذلك جزائها. أليس كذلك؟

أطرق سعيد واجما وهو يستقبل رفـض فهمـي أفنـدي الواضح. لقد كان الرفض متوقعا... لماذا فاجأك الموقف؟... هـل لأنك كنت تتصور براعتك في إقناعه؟... ثقة زائـدة جوفـاء... كيف أتصرف الآن؟... يجب أن أجد ما أقوله... لن تستمر هكـذا صامتًا... شَغل مخك... يارب. افـتح علـي بكلمتـين تعيـدان الموضوع إلى النقاش... لا يمكن أن ينتهي الموضوع هكذا...

أسعفه ذهنه فقال:

- كلي أمل أن تأخذ الموضوع بعين الاعتبار من الناحية الإنسانية لاثنين ارتبط بعضـهما بـبعض ارتباطاً ـا مصيريا، وفي النهاية، أرجوك أن تأخذ نبيلة بالرأفـة وسعة الصدر، فأنت والدها قبل كل شيء.

نهض واقفًا بعد أن أتم حديثه ومد ذراعه إلى فهمي أفندي مودعا. خرج والدنيا غائمة في عينيه. يشعر شعروا مختلطـا. لا يستطيع بسهولة أن يتبينه. ضياع وراحة. قلق وقلة حيلة. شـعر كأن رأسه مصمت. لا يفكر. انتبه إلى نفسه وهو يسير في ميدان التحرير. إلى أين يذهب؟... عرج على نايـت آنـد داي. مكانـه المفضل... يشعر بالاحتياج إلى من يحتضـنه... حضـن دافـئ طويل... يشعر بالاحتياج إلى يد تربت عليه. طلب زجاجـة مـن البير فزجاجة أخرى، تبعهما بكأسي ويسكي. شعر بعدها براحـة بلهاء. فقد التفكير. قام متثاقلاً. سار على كورنيش النيل بلا وجهة. ابتعد قليلاً ثم عاد أدراجه. لم ينتبه لحرارة الجو. أرهقه الانفعـال والإحباط والازدحام وحرارة الجو. أشار بيده لسيارة تاكسـي... شبرا يا أسطى.

صعد الدرج مرهقًا. خفق قلبه عند مروره بشـقة نبيلـة. شعر بالأسى والحسرة. استكمل صعود الـدرج متثـاقلاً. أخـرج المفتاح من جيبه ووضعه بالباب في يأس.

دفع الباب فوجد البيت خاويا. استراح لذلك. دخـل إلـى غرفته واستبدل ملابسه. ارتمى في فراشه منقبضا. فرت دمعة من عينه. تبعها سيل متدفق من الدموع. بكى بكاء حارا صامتًا. راح وعيه ينسحب بهدوء. نام.

(١٠٣)

عاد فهمي أفندي من شغله في حالة لا يحسد عليها. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟... سيعد يشهر إسلامه ويتزوج نبيلة ابنته... كيف أتسطيع أن أواجه الناس؟... كيف أستطيع أن أواجه الست عايدة رزق الله ...والجيران؟...ماذا سيقولون؟... سيلومني إذا قبلت أن يحدث ذلك... سيقولون أنت أبوها... الكلمة كلمتك والشورى شورتك... البنت ليست صغيرة. لا أستطيع أن أجبرها على شيء. الزمن تَغير... ماذا لو أصرت؟... قد تتركنا وتتزوجه رغما عن إرادتنا... أستغفر الله العظيم. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا. هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون. صدق الله العظيم.

اسودت الدنيا في عينيه. تحير كيف سيخبر أمها. دخل إلى البيت ونظراته زائغة. فتحت له نبيلة الباب. حياها وهو شارد. كان الشحوب باديا على وجهه. انزعجت نبيلة لمنظره وسألته بلهفة:

خير يا بابا؟... هل أنت تعبان؟

أجابها بصوت خفيض وهو يتوجه إلى غرفته:

سعيد كان عندي النهاردا.

دخل إلى غرفته بينما ألجمت المفاجأة نبيلة فتسـمرت فـي مكانها... لقد فعلها...

(١٠٤)

ما هذا الذي سمعته يا نبيلة؟!

ماما...

هل يعقل ما سمعته؟!

ماما...

نبيلة...

ماما... أرجوك.

وانفجرت في بكاء مرير. لم تتمالك نفسها. بكت نبيلة كما لم تبك من قبل بعدها انفجرت الست عائشة في البكاء. ارتمت نبيلـة في حضنها فاستقبلتها بدفء جارف... ياربى، ماذا تفعـل الأيـام بنا؟

(١٠٥)

انتهت صدمة المواجهة ودفقة العاطفة، ويبدأ بعدها الصراع، بعد خفوت المفاجأة والانفعال.

(١٠٦)

راحت البنية في شربة ماء. مجنونة... ضيعت نفسها. ألف رحمة ونور تنزل عليها. كانت في عز شبابها.

(١٠٧)

أصيبت ستاسيا بنزيف حاد إثر محاولتها إجهاض نفسـها. أشارت إحدى النسوان اللائي سألتهن زينب، بأن تستخدم ستاسـيا عود ملوخية لإسقاط نفسها. تدخله من تحت فـي نفسـها فينفـتح الرحم وينزل العيل. عندما نقلوها إلى المستشفى بعد النزيف الذي أصابها، أدخلوها غرفة العمليات وفتحوا بطنها. وجـدوا الـرحم مثقوبا عدة ثقوب من جراء إدخال عود الملوخية إليـه. ستاسـيا استعملت عود الملوخية بذمة زيادة، حتـى تضـمن الإجهـاض. أدخلته وأخرجته بعصبية عدة مرات، مما أدى إلى ثقبـه لجـدار الرحم في عدة مواضع. لفظت أنفاسها في غرفة العمليات. بالذمة حد يعمل كده... لكنه الخوف الذي لا يرحم. والحب أيضا للأسف. الحب الذي يدفع المرء للمغامرة، حتى بنفسه. مسـكينة ستاسـيا. كانت تخاف ممن تحب، وتخاف على من تحب. تهورت. كتمـت مخاوفها وأحزانها. استعانت بأول مشورة جاءتها. ألغـت عقلهـا وفعلت بنفسها ما فعلت.

تلقت الجماعة نبأ الفاجعة بحزن مخيـف. ستاسـيا شـابة صغيرة، محبوبة وصاحبة مزاج، مظلومة ومعطاءة، كل ذلك معا في خلطة عبقرية، لا يشعر بها المرء إلا بعد أن يفقدها فيكتشـف

هول ما فقد. اللعنة على القهر والانسحاق والخضـوع، والاـذين يصلون بالمرء إلى أن تختل بوصلته فيفقد الاتجاه ويتلقفه الضياع.

(١٠٨)

مسكينة مدام هيلينا. أصيبت بانهيار عصـبي عقـب وفـاة ستاسيا. كلما كان المرء مقبلاً على الحياة، كان هيابا للموت وهشًا في مواجهته. بقدر حب الحياة تكون كراهية الموت. لـم تسـتطع مدام هيلينا، تلك المرأة التي لا تريد الاعتراف للـزمن بسـلطان عليها. المرأة التي تنهل من الحياة نهـلاً، تمـلأ الحيـاة حولهـا بالصخب والمرح واللهو وتستسلم بسلاسة لنداءات الطبيعة، فتسلم جسدها ونفسها جميعا لمن يمد يديه راغبا مرحبا، إذا شاءت. كيف تواجه تلك المرأة الموت؟... وموت مـن؟... ابنتهـا الصـغرى الأثيرة لديها والمشاكسة للحياة مثلها. تواصلت بينهما الأسـباب. حب الحياة، بكل ما يحتويه من مزاج رائق وتألق جسدي، يغذيان قدرة على التواصل مع العواطف والأماكن والناس. موت ستاسيا الأثيرة لديها، والتي سعت إلى أن تقيم بالقرب منها، فاستسـمحت الست بطة لكي تجهز لها مطرحا صغيرا بالسطح، لتقيم فيه مـع زوجها، بعد أن عارضت هي وأندريا ذلك الزواج في البداية. لقد كانت دائما بالقرب منها. تنادي عليها من بئر السلم عندما تريدها، ستاسيا... إلا ذو...، حرمت منها الآن إلى الأبد... لم تسـتطع أن تتحمل تلك الصدمة فأصيبت بانهيار عصبي ولازمت الفراش. لا تكف عن البكاء... لا تكف عن النداء... ستاسـيا... ستاسـيا إلا

ذو... تعالى. كونت الجماعة كتيبة عمل لملازمة مدام هيلينا على مدار الساعة. الست بطة وإلين أختها، الحاجـة فريـدة والخالـة فاطمة، الست أسماء والست عايدة رزق الله، الست ماري خوري. لم يتركنها بمفردها لحظة واحدة أو طرفة عين.

(١٠٩)

إلين أخت الست بطة كان من نصيبها الليل لتقضيه مرافقـه لمدام هيلينا. ليس عندها زوج ولا عيال ترعاهم، لذلك تم اختيارها لهذه المهمة التي قبلتها عن طيب خاطر. تقضى جزاء لا باس به من الليل وهي تضع كفها على جبهة مدام هيلينا وتصلي لها أبانـا الذي في السموات ونعظمك يا أم النور. وتدعو للعذراء مـريم أن تقوم مدام هيلينا بالسلامة. بقية الجماعة يتناوبون سـاعات اليـوم الأخرى، كل حسب ظروفه، المهم ألا تترك مدام هيلينا وحـدها. كانوا يشرفون على إعطائها الدواء في مواعيده حسب توصـيات الدكتور عزيزي درياس، الذي استدعوه لهـا عنـدما تـدهورت حالتها. عيادته على ناصية شارع جزيرة بدران وشارع الزهور. كتب لهم الروشتة بخط واضح وكبير حتى لا يخطئوا فـي نظـام الدواء ومواعيده. الدكتور عزيز درياس رجل دقيق، لذلك يحرص على تحسين خطه عكس كل الأطباء، في الواقع هو أكثر من دقيق حبة، يعنى تقدر تقول موسوس. كان يحرص على تسوية الملاءة كلما تحركت مدام هيلينا أثناء الكشف وانثنى طرف الملاءة قلـيلاً وكل شوية يعدل شبشب مدام هيلينا كلما خبطه برجله وهو يكشف عليها.

إلين تصلي لها بالليل أبانا الذي في السموات والحاجة فريدة تتلو عليها بالنهار بعض آيات القرآن التي تحفظها. الخالة فاطمـة كانت تبخرها كل يوم وهي تتمتم بسورة الفلق وسورة الناس. كل هذا ومدام هيلينا ممددة في الفراش نصف نائمة، من أثر المهـدئ القوي الذي كتبه لها الدكتور عزيز درياس الموسوس.

(١١٠)

طرقت نجاة بنت عم سيد البواب باب شـقة السـت بطـة بعصبية أقلقتها هي وإلين. كان المهندس إميل قد غـادر كعادتـه بالبيجاما والشبشب لشراء سجائره التوسكانيللي. فتحت الست بطة غاضبة فوجدت نجاة أمامها. نهرتها قائلة:

بالراحة... كل دا خبط.

أجابتها نجاة بانفعال:

الحقي يا ست بطة، مواسير المجارى بتخـر جامـد فـي المنور. توجهت الست بطة بنشاط إلى شباك بئر السلم الذي يطل على المنور. أطلت برأسها فوجدت المياه تسـيل مـن ماسـورة المجاري ناحية شقة الحاجة فريدة. زعقت في نجاة قائلة:

أجري نادي على عفيفي السباك... بسرعة اعملي لك همة. نادت على وهيبة بصوت مجلجل، فمثل تلك اللحظـات تشـعرها بالأهمية. تبدأ في ممارسة ملكاتها القيادية بنشوة واقتدار. تعطـي التعليمات وتشخط وتنطر في كل من هب ودب:

يا وهيبة... هاتي الأسمنت والجبس من البلكونـة، هـاتي كمان جردل معاك.

استدارت عائدة في انتظار قدوم عفيفي السباك.

الست بطة تشرف بنفسها على أية أعمال لصيانة البيت، لا تسمح بأن تعتمد على أحد غيرهـا ليتـابع الصـيانة، ولا حتـى المهندس إميل، هو أيضا لا يرحب ويقول لها بركة يا جامع. تأخر المهندس إميل في العودة من شراء السجاير فتململت من تـأخره. عرج على إميل الخردواتي للدردشة. يستريح إلى الدردشة معـه في أخبار السياسة وأحوال البلد. يسعده تشـابه الأسـماء بينهمـا فيشعر بنوع من الألفة معه. إميل الخردواتي من عادته أن يفلـي الجورنال ولا يترك فيه خبرا إلا وقرأه. يقرأ حتـى صـدق أو لا تصدق وحظك اليوم كله. يمر على الأبراج كلها ويقـارن فيمـا بينها. كل برج له فيه واحد معرفة أو قريب. يقرأ طبعا برنـامج الإذاعة الذي يتابعه من الراديو الصغير الذي اشتراه من غزة، كما يقرأ أين تذهب هذا المساء وإعلانات السينما. يقرأ كل سطر فعلاً بدون مبالغة. لا يقرأ سوى جريدة الأهرام، لكنه يقرؤهـا بذمـة شديدة.

جاء عفيفي السباك قبل عودة المهندس إميل فالتهت به. قال لها عفيفي إن الماسورة ستحتاج إلى سقالة. قالت لـه لا تـتحجج. اربط سلمين بعضهما ببعض. قال لها لن أطول الماسـورة حتـى باستخدام سلمين. قالت له هات برميلين وضع عليهما لوح خشـب ثم نضع السلمين فوقها. قال لها أقع تنكسر رقبتي. قالت لـه فـي ستين داهية. جبارة الست بطة عندما تضع شيئًا في دماغها.

ظل النقار بينهما محتدما حتى أجبرته على القيام بتنفيذ مـا يرأسها. نادت على البنات، وهيبة وصباح وزينب وأيضا علـي. أمسكوا جميعا بحافتي السلم السفليين المستندتين على لوح الخشب فوق البرميلين وطلع عفيفي بحذر على السلمين المربـوطين فـي بعضهما البعض بحبل هو يحمل قصعة الأسمنت والجبس بعد أن خلطهما بأرضية المنور. منظر تحفة، كأنه سيرك. عفيفي يصـعد متئدا وهو يتراقص ليحفظ توازنه، والعيال تمسك بعارضتي السلم السفليين وتدفع الأرض بأرجلها حتى تدفع السلم بقوة وتمنعه مـن الانزلاق على اللوح الخشبي. كل هذا والست بطة تقف منتصـبة في المنور كالقومندان، تشرف على حسن سير الأمـور. انتهـى عفيفي بعد لأي من قلفطة الماسورة بالأسمنت والجـبس فتشـهد ورمى القصعة على الأرض وهو يمسك السلم بكلتا يديه. هـرول نازلاً وهو يحمد الله على أنها جاءت سليمة وانتهت على خير.

(١١١)

نصل الثلاثاء ١٨ على الطيران العربية رحلة ٣١٦

شريف

كان هذا نص البرقية التي أحضرها عامل التلغـراف إلـى شقة الست عائشة التي لم تسعها الفرحة، رغم أشـجان موضـوع نبيلة وسعيد، لم تسعها الفرحة لخبـر وصـول أخيهـا شـريف وزوجته. قرأت البرقية عدة مرات ثم دخلت إلى غرفة النوم لتخبر فهمي أفندي.

حانت ساعة العمل... أخذت إجازة عارضـة فـي اليـوم التالي، فشريف سيصل بعد الغد. توجهت في الصباح الباكر هـي وصباح إلى شقة شريف بروض الفرج لوضع اللمسات النهائيـة وتموينها ببعض اللوازم العاجلة، حتى يستقرا ويستريحا ثم يـديرا حياتهما بعد ذلك. تركت صباح فـي الشـقة، بعـد أن أعطتهـا التعليمات اللازمة. تستطيع أن تعتمد عليها وقلبها مطمئن، فهـي تربية يديها.

اشترت لهما احتياجاتهما المبدئية من سكر وزيت وشـاي، كانت قد أحضرت معها من البيت برطمان سمن بلدي وبرطمـان بن بيتي محوج، إلى جانب برطمان مربى التـين التـي يحبهـا

شريف. اشترت أيضا دستة بيض ولـوازم البقالـة مـن جـبن وبسطرمة وحلاوة طحينة وخلافـه. عرجـت علـى الخضـري فاشترت منه خيارا وطماطم وبطاطس ثم مرت علـى الفكهـاني فاشترت لهما عنبا وتينًا. راجعت إذا كانـت قـد نسـيت شـيئًا واطمأنت إلى شرائها لكل اللوازم التي يمكن أن يحتاجاهـا فـي البداية، حتى يتوليا أمرهما بنفسهما بعد أن يستريحا مـن عنـاء السفر.

عادت إلى البيت وأتمت مع صباح اللمسات النهائية. فرشت السراير بالملاءات النظيفة وملأت القلل. شريف يفضل ماء القلـل عن ماء الثلاجات.

كان هذا هو ما حدث بالضبط، نهاية يوم الاثنـين، اليـوم السابق على وصول شريف وكريمة من ليبيا. قامت الست عائشة بكل ما قامت به وهي من السعادة في غايـة. أنارتهـا الفرحـة ودفعتها لأن تقوم بتجهيز البيت بكل ما يريحهما عقب وصولهما. عادت إلى بيتها وهي تتعجل مرور الزمن لوصول شريف، كـان يوما طويلاً لكنها لم تشعر فيه بأي تعب أو إرهاق.

(١١٢)

اتصلت الست عائشة بشركة الطيـران العربيـة تليفونيـا لتعرف موعد وصول الرحلة ٣١٦ القادمة مـن ليبيـا. أبلغتهـا الموظفة التي ردت عليها بأن الرحلة ستصـل السـاعة التاسـعة والربع مساء. لزيادة التأكد اتصلت أيضا باستعلامات المطار التي أكدت لها الموعد.

في تمام الساعة الثامنة مساء، استقلت الأسرة سيارة تاكسي إلى مطار القاهرة. فهمي أفندي والست عائشة ونبيلـة ومجـدي. تركوا نور مع صباح بالمنزل لأن الموعد متأخر عليها. وصـلوا قبل التاسعة بقليل. ذهب مجدي إلى مكتب شركة الطيران ليستفسر عن وصول الطائرة فعرف أنها ستتأخر نصف ساعة عن موعـد وصولها المحدد. وقفوا جميعا أمام باب الوصول وصبرهم ينفد مع مرور الوقت متثاقلاً. عندما ينتظر المـرء عزيـزا بعـد غربـة وغياب، يكون في حالة متداخلة من القلق والتطلع مع اللهفة ونفاد الصبر.

أعلن عن وصول الطـائرة وانتظـروا باشـتياق خـروج الركاب. بعد ساعة من وصول الطائرة، لاح شريف وهـو يـدفع عربة الحقائب وخلفه كريمة. لوحوا لهما جميعا بفرح. لم يتبيناهم

في البداية وسط زحام المستقبلين، إلى أن لمحتهم كريمة مصـادفة فنبهت شريف وهي تلوح لهم بيدها مرحبة في حماسة وفرحة.

لم تشأ كريمة أن تبلغ والديها المسنين بموعد وصولها، حتى لا ترهقهما بالذهاب إلى المطار. فضلت أن تجعل وصولها مفاجأة لهما. كانت قد أخبرتهما في مكالمة تليفونية في الأسبوع السـابق على الوصول بموعد حضورهما التقريبي.

تجنبت أن تذكر لهما الموعد الفعلي حتى لا تثقل عليهما.

لقاء حار مفعم بالأحضان والقبلات ودموع الست عائشـة، التي بكت بكاء حارا وهي تحتضن شريف طويلاً، كأنـه ملاذهـا فيما تواجهه من أعاصير نبيلة وزواجها من سعيد، بكـت كثيـرا رغم قوتها الظاهرية. كأن شريف هو طوق النجاة بالنسبة إليهـا، رغم علمها ببعده عن الاهتمام بالقضايا الدينيـة. لكنـه أخوهـا الوحيد، الغائب، البعيد، الذي تراه أمام عينيها لأول مرة منذ ثلاثة أعوام وتحتضنه بين ذراعيها.

تلقف أحد سائقي التاكسي الحقائب وقـادهم إلـى سـيارته، طلبوا سيارة أخرى فتقدم إليهم سائق آخر عاون زميله في حمـل الحقائب. قال شريف لمجدي وهو يشير إلى أكياس السوق الحرة:

احمل أنت هذه الأكياس حتى لا تنكسر الزجاجات. انطلقت السيارتان إلى شارع روض الفرج. مكثوا قليلاً مع شريف وكريمة

ثم ودعوهما عائدين إلى شارع الزهور حتى يستريحا من عنـاء السفر.

(١١٣)

لم يفهم شريف سبب الغاغة التي يقيمونها بكل هذا الاهتمام حول زواج نبيلة وصديقها. شاب وفتاة يحب بعضـهما الـبعض ويريدان أن يتشاركا في رحلة الحياة. ما دخل الأديان في ذلـك؟. لقد تزوج محمد النبي من مارية القبطية. ماذا حدث؟ ومـن منـا يختار دينه؟. دارت التساؤلات في ذهنه بعد زيارته لأخته بشارع الزهور في اليوم التالي لوصوله وإثارة الموضوع. أخذته السـت عائشة وانفردت به في غرفة نومها. أخذت تقص عليه في انفعال وهي تبكى تفاصيل الموضوع، منذ فاتح سعيد فهمي أفنـدي فـي الوزارة عن موضوع إشهار إسلامه وطلبه التقدم لـزواج نبيلـة. كانت تحكي له بصوت هامس، كأنها تذيع عليه سرا حربيا تخشى أن ينفضح. لم يشأ شريف أن يدخل في حـوار لا جـدوى مـن ورائه. استمع إلى أخته حتى انتهت كحايتها ثم ربت على ظهرها ليطيب خاطرها وهو يقول لها:

سأتكلم مع نبيلة لأستوضح رأيها. على العموم الولد سيشهر إسلامه. ماذا يفعل أكثر من ذلك؟!

(١١٤)

ظهرت نتيجة امتحانات البكالوريوس ونجح زاريه بتقـدير جيد جدا. كانت نتيجة مجدي ورورو قد ظهرت قبلها، نجحا همـا أيضا وانتقلا إلى السنة النهائية. أصر رورو على دعوة زاريه إلى زجاجتي بيرة في اللسـان احتفـالاً بنجاحـه وحصـوله علـى البكالوريوس. ذهبوا جميعا في المساء إلى اللسان، زاريه ومجدي ورورو.

اللسان هو ما اصطلح على تسميته حيث توجد ثلاجة بيـرة على النيل، بعد كازينو قصر النيل ومبنى مجلس قيـادة الثـورة. الموقع الحالي لفندق شيراتون الجزيرة. تشرب البيـرة المثلجـة بسعر رخيص، بدلاً من الأسعار المرتفعة للفنادق والبارات. كـان متنفسا للشريبة، موقع متميز ومنظر خلاب بميزانية متواضـعة. متنفس ومتعة لمتوسطي الحال. للناس العاديين. اعتـاد الشـباب الذهاب إلى هناك وخاصة ليلاً لقضاء السهرة. كانت تحضر أيضا بعض سيارات الحبيبة، حيث يجلس الشاب مع فتاته في السـيارة، التي يكون غالبا قد استعارها من والده لنزهة قصيرة، يجلسان في السيارة يشربان البيرة ويتناجيان.

كانت فرحة مدام أنوش تفوق الوصف. هـي سـت طيبـة وتعبت في تربية الأولاد بعد وفاة زوجها مسيو جورج ألطونيان.

كان الأولاد صغارا عند وفاته. ساعدها أخوها مسيو هـايج فـي تربية الأولاد. مدام أنوش تجيد صنع الحلوى. كانت تقوم بعمـل التورتات والكيك وتبيعها من منزلها لمعارفها الأرمـن وبعـض الخواجات بحي شبرا لتكمل مصاريف تربية الأولاد. بكت بكـاء حارا عند عودة زاريه بصبحة مجدي ورورو من الكلية وإبلاغها بنجاح ابنها الوحيد بتقدير جيد جدا. احتضنته طويلاً وهي تبكـي. تستحضر المعاناة الطويلة التي قاستها طوال ذلك المشوار الطويل حتى تكللت جهودها بنجاح زاريه وحصـوله علـى بكـالوريوس الهندسة. لقد أصبح مهندسا قد الدنيا. ربت زاريه عليهـا بحنـان وهو يحتضنها. تركها على راحتها حتى هدأت. كان مسيو هـايج يستعد للنزول. شوهد للمرة الأولى وهو يبتسم ابتسـامة متحفظـة أثناء تهنئته لزاريه. كانت أناهيد بالخارج فـي زيـارة لإحـدى صديقاتها، علمت بالخبر بعد عودتها فقفزت إلى أخيها وتعلقت به. يوم سعيد حقًا في حياة مدام أنوش وأسرتها الصغيرة بعـد حيـاة شاقة متجهمة.

(١١٥)

اتفق شريف مع نبيلة ومجدي على أن يمرا عليه مساء اليوم التالي لزيارته لهم، في شارع الزهور.

بعد الغروب، توجه مجدي ونبيلة إلى بيت خالهم بـروض الفرج. كان شريف يجلس بركنه المعهود، بجوار الجرامافون وقد أضاء الأباجورة الصغيرة. كان يستمع إلى كونشـيرتو الفيولينـة الأول لباجانيني من مقام ري مـاجور. سـحب مجـدي غـلاف الاسطوانة وطالعه بشغف عندما جذبت الموسيقى انتباهه. بـادره خاله متسائلاً:

هل لك في كأس من الويسكي؟

نظر مجدي إلى كأس خاله الموضوع على الطاولة بجواره وأجابه:

لا بأس سأشاركك في كأس.

قام شريف لعمل كأس لمجدي. انضمت إليهما نبيلة بغرفـة المكتبة، بعد أن حيت كريمة زوجة خالها بالمطبخ. كانت منشـغلة بمتابعة بعض الأواني على البوتاجاز.

جهزت عشاء بسيطًا لهما وللأولاد.

سألها شريف:

هل لك في كأس أيضا؟!

أجابته نبيلة:

لا أحب الويسكى. سأشرب كوكا.

رفع شريف كأسه تحية وهو يقول:

في صحة العريس المشكلة.

رفعت نبيلة كوبها في مواجهة كأس خالها ونظـرة حـزن تطل من عينيها. قال لها شريف:

شايفكم عاملين من الحبة قبة. إيه الحكاية؟

أطرقت نبيلة صامتة.

قال لها شريف:

إياك أن تضيعي الفرصة، طالما تحبينه.

تساءلت نبيلة في يأس وحيرة:

والمشاكل يا شرشر؟

كانا معتادين على ندائه بشرشر منذ طفولتهما، استمرا كذلك بعد أن توطدت علاقتهما به ونمت علاقة مـن الصـداقة بينهمـا وبينه.

أجابها شريف منفعلاً:

أية مشاكل تتحدثين عنها؟. الرجل سيغير دينه ويتزوجك.

قالت له نبيلة:

أليست له أسرة؟. أم مسنة وأخت لم تتزوج بعد.

تدخل مجدي في الحديث:

لا تقولي نصف الحقائق.أخته متفقة على الزواج من شخص يتفهم المشكلة ويتقبلها.

تساءلت نبيلة بعصبية:

وصدمة أمه وأقاربه ومعارف الأسرة؟

أجابها شريف بنبرة تحاول أن تكون هادئة:

وأين الحياة الخالية من المشاكل؟. هـذه المشـكلة يمكـن التعامل معها بالصبر والوقت. ستحتاج منكما لبعض المجهود مع سعة الصدر والحكمة لتستوعباها، والزمن كفيل بالنسيان.

علق مجدي بنفاد صبر:

قل لها يا شرشر. غاوية تعقد الأمور.

تساءلت نبيلة بأسى:

وبابا وماما؟. بابا ينظر إلي بحزن كلما رآني، ولا يتحـدث معي تقريبا.

قال لها شريف بعصبية:

ملعون أبوك على أمك. هذه مشاكل وقتية. ثم ماذا سيخسر أبوك وأمك؟.

هذه حياتك فلا تعبثي بها والرجل سيشهر إسـلامه ويتقـدم للزواج منك.

قالت نبيلة بيأس:

لن أستطيع مواجهة الواقع والناس.

سألها شريف بحدة:

لماذا؟. أي جرم ارتكبته؟

الناس ستقول، أخذت ابنا من أسرته وأغرته بتغيير دينه.

تدخل مجدي في الحديث معترضا:

أنت غريبة يا نبيلة. حياتك وسعادتك أم كلام الناس؟

أجابته بحيرة شديدة:

يا جماعة... أنتم تبسطون المسألة... هناك أيضـا مشـكلة الأطفال في المستقبل.

كيف سيواجهون المجتمع؟

أجابها شريف:

سيواجهونه مثل بقية الأطفال. ماذا سيواجه الأطفال؟

قالت نبيلة بنفاد صبر متسائلة:

أليست مشكلة أن يكون أقاربهم لأبيهم مسيحيين وأقـاربهم لأمهم مسلمين؟. بأية أعياد سيحتفلون؟. كيف أجيب على تساؤلات طفولتهم؟. كيف أشرح لهم أن أبـاهم مسـلم وجـدتهم وعمـتهم مسيحيتان؟. كيف أشرح لهم مسألة تغيير واختلاف الأديـان مـن الأساس؟. المسألة ليست بالبساطة التي تصورونها بها.

أطرق الجميع صامتين لبرهة. قطع مجدي الصمت قائلاً:

لا يمكن للمرء أن يأخذ في الاعتبار كل هذه التعقيدات دفعة واحدة. بابا وماما وأهل سعيد ومواجهة الناس والأطفال. النتيجـة الوحيدة ستكون الارتباك

والفشل في اتخاذ القرار السليم.

علق شريف على ملاحظة مجدي قائلاً:

معك حق يا مجدي. يجب أن نفكر في كل جزئية على حدة ونحاول أن نجد لها حلاً.

قالت نبيلة بيأس:

لا أعرف ماذا أفعل؟. لقد تعبت.

انتهت الاسطوانة فنهض شريف لتغييرها. قال وهو يغيـر الأسطوانة:

لتستمع الآن إلى عمـل لموتسـارت، لتهدئـة أعصـابنا. سأسمعكم كونشيرتو البيانو رقم ٤٨٨ تصنيف كوشل مـن مقـام لاماجور.

طرأت فكرة لشريف وهو عائد إلى مقعده فعرضها علـيهم مخاطبا نبيلة:

ما رأيك في أن تجيئوا للعمل بليبيا في بداية حياتكما. بـذلك نكون قد تغلبنا على مشكلة مواجهة الأهل والناس هنا.

قفز مجدي من مقعده هاتفًا:

فكرة هايلة يا شرشر. بركاتك يا موتسارت.

نظرت نبيلة إليهما نظرة محايدة تشـي بـورود تسـاؤلات جديدة إلى رأسها ولم تجب بشيء.

سأل مجدي خاله شريف:

هل تستطيع أن تساعدهما في الحصول علـى عقـد عمـل هناك؟

فكر شريف قليلاً ثم أجاب:

لي بعض الأصدقاء من رجال الأعمـال بليبيـا. أبنـاؤهم تلاميذي. أعتقد أنهم يمكن أن يساعدونا في إيجاد عقود عمل لكما.

توجه بالسؤال لنبيلة:

- ماذا يعمل صديقك؟

أجابته نبيلة:

محاسب بشركة لوفتهانزا:

علق شريف بانفراج:

- عظيم. محاسب مهنة موجودة في كل منشأة وبالتالي فإن فرصته كبيرة. وشهادة خبرة من شركة لوفتهـانزا لهـا وزنهـا. بالنسبة لك فيمكن أن نبحث عن عمل كسكرتيرة بأي شركة. معك لغتان، الفرنسية والإنجليزية.

ضحك مجدي وعلق فرحا:

- الحياة سهلة كما ترين. كل مشكلة ولها حلال.

نظرت إليهما نبيلة ببلاهة.

قال شريف:

تعملان بليبيا عدة سنوات، بعدها... الزمن كفيـل بفـرض سطوته، والحياة تسير في مجراها الطبيعي.

داعبها مجدي بمرح:

قولي حاجة... أي حاجة... متى سيكون الـزواج إن شـاء الله؟

فرت ابتسامة خجلى من صفحة وجهها اليائس منذ أمد بعيد. ظهر بصيص أمل في خضم مشكلة حياتها. لكنهـا سـرعان مـا تجهمت مرة أخرى عندما تذكرت مشاكل الأطفـال ومسـتقبلهم. تمتمت بصوت خفيض:

هذا قد حل المشكلة لنا الآن، لكن مـاذا عـن الأولاد فـي المستقبل؟. مازلت عاجزة عن التصور.

أجابها مجدي محتدا:

عندما يشب الأطفال ستكون خانة الديانة قـد ألغيـت مـن البطاقة الشخصية بإذن الله.

علق شريف قائلاً:

- لن ينصلح حال هذا البلد طالما وجدت خانة الديانة فـي البطاقة الشخصية.

كانت كريمة قد جهزت العشاء أثناء انهماكهم فـي بحـث مشكلة نبيلة. دعتهم إلى المائدة فنهضوا وبوادر انفراجـة تلـوح بينهم.

(١١٦)

كان اقتراح شريف وعرضه بالمساعدة على إيجـاد عمـل لنبيلة وسعيد بليبيا، سندا لنبيلة سـاعدها علـى بدايـة التماسـك ومواجهة العالم للدفاع عن حبها. زواجها من سعيد كان هو القرار الذي تتمناه في قرارة نفسها. مهما عارضته في الظـاهر، فإنهـا كانت لا تجرؤ على التخلي عنه في صميم وجدانها. كانت ترفض كل ما تعلنه من إعراضها عن الزواج من سعيد تفاديا للمشـاكل. مهما بعدت عن سعيد فإنها تعود. مهما كان حزنها لمـا ستسـببه لأهلها ولأهل سعيد من آلام، فإنها كانت أكثر حزنًا في داخلها لأية شبهة في ألا يتم ذلك الزواج. لقد ارتبطت به وأحبته بكل كيانهـا. لا ترى رجلاً آخر حولها يمكن أن تسلمه نفسها. هـو فقـط، ولا مزيد. هو الرجل والحبيب والأب والصديق، وأيضا الابـن. لقـد فشلت في مقاومة حبها ووأده. فشلت في أي قـدر مـن التعقـل والحكمة بمجرد ظهور شعاع من الأمل في حاك محنتها، تعلقـت به. بتحفظ بسيط في البداية، سرعان ما تلاشى وحل محله تصميم أعمى بالارتماء في أحضان سعيد وليكن ما يكون. كان شـعورها بعدالة قضيتها يزداد يوما بعد يوم، بل لحظة بعـد أخـرى. بـدأ الحديث بينهما وبين سعيد يتطرق إلى تفاصيل مسـتقبلهما. مـاذا سيفعل؟. متى سيبدأ في إجراءات إشهار الإسلام. هل تسافر مـع

خالها ليبيا لتتابع موضوع البحث عن عمل هناك ثم يلحـق بهـا هو؟. هل يتزوجان هنا أم بليبيا تجنبا للزوابع؟ متى سيبلغ أهلـه؟. ومتى ستبلغ أهلها؟

استقر رأيهما على ألا يبلغ سعيد أهله بإشهار إسلامه إلا بعد أن ينتهي منه.

اختارا هذا الحل لأن سعيد مرهـق جـدا مـن ملابسـات الموضوع ولن يستطيع أن يتعرض لمزيد من الضغوط من أمـه ومن أقاربه. لينتهي من الموضوع أولاً ثم يبلغهم بعدها، فيضعهم بذلك أمام الأمر الواقع. بهذا يسلم من ممارسة مزيد من الضغوط عليه. اتفقا أيضا على أن تسافر نبيلة إلى خالها بليبيـا أولاً، دون أن تثير مسألة الزواج مع أسرتها، ثم يلحق بها سعيد، بعد التوفيق في الحصول على عقد عمل. يتزوجان بعدها بليبيا أو بتوكيل من سعيد لشريف لإتمام إجراءات الزواج. كانا متعجلين للارتباط بأي شكل. يخشيان المجهول. يريدان أن يشعرا بأنهما قد تخطيا جميع العقبات وتزوجا. من يدري؟. قد يجد في الأمـر أي خطـر؟. أي ضغوط إضافية. يستحسن الإسراع بالزواج فـي أقـرب فرصـة ممكنة، ولو بالتوكيل إذا تأخر تدبير عقد عمل لسعيد.

(١١٧)

استقل سعيد الأتوبيس المتجه إلى الأزهر لإشهار إسـلامه. فكر أولاً... ترى أين يمكن للمرء أن يشهر إسلامه؟... لابـد أن يكون في الأزهر. استعاد في ذهنه بعض الأخبـار التـي قرأهـا بالجرائد في الماضي عن ذهاب بعض الأجانـب إلـى الأزهـر وإشهار إسلامهم هناك. لم تكن لديه أية فكرة عن الإجراءات.

نزل في محطة الأزهر. سأل أحد المارة عن إدارة الأزهر، هل هي داخل الجامع الأزهر. أجابه بأنها مبنـى مسـتقل علـى الطوار المقابل وأشار له إليه. عبر الشارع الأزهر متوجها إلـى إدارة الأزهر. ازدادت سرعة نبضات قلبه وهو يدلف من البـاب ويصعد درجات السلم. تردد قليلاً وهو لا يدري ماذا يفعل أو إلى أين يتوجه. رأى أحد الموظفين خارجا من إحدى الغرف فـاقترب منه بتردد وسأله بصوت مرتجف:

من فضلك. أنا... كنت أريد أن أسأل... أنا... أريـد... أن أشهر إسلامي. إلى أين أتوجه؟

في الحقيقة... أنا لا علم لي بالإجراءات. لحظة من فضلك، سأسأل الزملاء بالإدارة.

تركه ودخل إلى الغرفة مرة أخرى. عاد وأخبره بالتوجـه إلى مكتب رئيس لجنة الفتوى بالدور الأول.

صعد سعيد إلى الدور الأول وهو يراجع في ذهنـه فاتحـة الكتاب والشهادتين اللتين حفظهما عن ظهر قلب بعد أن تصور أنه سيطالب بترديدهما أمام المسئولين.

دخل إلى غرفة رئيس لجنة الفتوى، الذي كان جالسا خلـف مكتبه مشغولاً بأداء عمله. شيخ جليل ممتلئ القوام ذو وجه سـمح شجعه على فتح الحديث. بدأ كلامه وهو يقف إلى جوار المكتـب قائلاً بصوت خفيض:

أريد... أن أشهر إسلامي.

دعاه الرجل إلى الجلوس بجواره ثم سأله بهدوء:

ما سبب إقدامك على إشهار إسلامك؟

أجابه سعيد:

بصراحة يا سيدي، أحب فتاة مسلمة وأريد أن أتزوجها.

سأله الشيخ بهدوء:

وهل هذا هو السبب الوحيد لإقدامك على هذه الخطوة؟.

أجابه سعيد:

نعم يا سيدي... ولقد ساعد على اتخاذ قراري هـذا، أننـي نشأت بأسرة متسامحة دينيا وغير متزمتة. لنا الكثير من الأصدقاء من المسلمين، بالإضافة إلى أنني أرى أن جميع الأديان تدعو إلى القيم النبيلة، وفي النهاية إلى الإيمان بالله.

صمت الشيخ قليلاً ثم أردف:

عظيم... هل تحفظ فاتحة الكتاب؟.

نعم يا سيدي.

طلب منه الشيخ أن يتلوها ثم سأله ينطق بالشهادتين ففعـل. قال له الشيخ بعدها:

حافظ على نفسك يا بني، فأنت الآن تملك صـفحة ناصـعة خالية في الذنوب. احرص على السلوك المستقيم وعلـى خشـية ربك.

أشكرك يا سيدي.

وان الصمت بينهما لبرهة إلى أن قطعه سعيد متسائلاً:

ما هي الإجراءات الرسمية يا سيدي؟. هل سأحصل علـى شهادة بالإشهار؟.

لك ما تريد يا بني. انزل إلى إحدى المكتبـات المجـاورة، واحضر منها شهادة إشهار إسلام نعتمدها لك.

شكره سعيد وهو ينهض مغادرا الغرفة، بعد أن انزاح هـم كبير من على صدره.

شعر بارتياح كبير لانتهائه من تلك الخطوة الحاسـمة فـي حياته، ولشعوره باقتراب تحقق أمنيته بالارتباط بنبيلة.

عبر شارع الأزهر باحثًا عن مكتبـة للسـؤال عـن تلـك الشهادة. وقف أمام إحدى المكتبات الصغيرة. طلب مـن الرجـل شهادة إشهار إسلام فأعطاه واحدة. عاد فطلب أربع نسخ أخـرى

من الشهادة. سيعتمدها جميعا، لعله يحتاجها في أكثر من إجـراء. من يدري؟ وقف يملؤها، عن كتابة الاسم سأل الرجل:

هل تعرف إذا كان من الضروري أن أغير اسمي؟

سأله الرجل:

ما اسمك بالكامل؟

أجابه سعيد:

سعيد رمزي نجيب بطرس.

قال له الرجل:

الاسم الثلاثي مشترك بين المسلمين والمسيحيين، فلا داعي للتغيير.

أوضح له سعيد قائلاً:

اسمي الثلاثي هو سعيد رمزي نجيب بطرس لأن أبي اسمه مزدوج رمزي نجيب.

قال له الرجل:

أنصحك بعدم تغيير الاسم. سيجر عليـك مشـاكل كثيـرة. ستضطر إذا غيرت الاسم إلى تغيير كل شهاداتك الدراسية وجميع المستندات الخاصة بك. لن تستعمل الاسم الثلاثي إلا في الأوراق الرسمية، تستطيع أن تكتفي باسمك واسم أبيك المزدوج في معظم المعاملات.

شكره سعيد وعاد إلى إدارة الأزهر ليعتمد الشهادات بعـد ملء بياناتها.

دخل إلى مكتب رئيس لجنة الفتوى مرة أخرى وقـدم لـه الشهادات. وجهه إلى الموظـف المخـتص لاعتمـاد الشـهادات ومهرها بخاتم النسر. سأل سعيد بعد أن اعتمد الشهادات:

هل سأستخدم هذه الشهادات في تغيير البطاقة الشخصية؟

أجابه فضيلة الشيخ موضحا:

الإجراءات التي قمت بها هنا إجراءات دينية. الإجـراءات المدنية والإدارية يجب أن تتم في مديرية الأمن.

صدم سعيد للإجابة. لقـد تصـور أنـه قـد انتهـى مـن الإجراءات. لم يتخيل أن عليه أن يقوم بإجراءات أخرى في جهات أخرى.

(١١٨)

استقل سعيد سيارة تاكسي إلى مديرية أمن القاهرة. كـان يري أن يصل إليها قبل انتهاء مواعيـد العمـل. سـأل موظـف الاستعلامات عن الإدارة الخاصة بإشهار الإسلام. دخل إلى مكتب المسئول عن الإدارة. رجل في منتصف العمر يضع نظارات نظر على عينيه. أنيق المظهر ويصفف شعره الخفيف بعناية. حياه وهو يسأله:

- لقد قمت بإجراء إشهار الإسلام فـي الأزهـر وقيل لي إنني يجب أن ألجأ إلى مديرية الأمن لعمل الإجراءات المدنية لتغيير الديانة بالبطاقة الشخصية.

أجابه الرجل بهدوء:

- اكتب طلبا سأمليه عليـك الآن وتتركـه لـي، ستحضر ثلاثة لقـاءات أسـبوعية مـع أحـد القساوسة أولاً. اللقاء يكون يوم الثلاثاء.

ارتبك سعيد وهو يستمع إلى الموظف المسئول ثم سأله:

- وما ضرورة هذه اللقاءات؟

أجابه الرجل:

- هذه تعليمات واجبة التنفيذ قبل السماح بإشهار إسلامك. احتار سعيد لهذا المأزق. هو لا يريد أن يجلس مع قساوسة. ماذا سـيقول لهـم؟... صمت قليلاً ثم قال:
- لا فائدة يا سيدي من هذه اللقاءات، فقد عزمت أمري وقمت بالإجراءات الدينية بالأزهر.

أجابه الرجل:

- يا عزيزي، هذه إجراءات اتخذت بالاتفاق مـع الكنيسة. السلطة المدنية لا تريـد أن تغضـب الكنيسة. لذلك تم الاتفاق على إتاحة الفرصـة للكنيسة للقاء الشخص المقدم لإشهار إسـلامه، حتى تطمئن إلى قراره وتناقشه فيـه. سـتقابل القسيس ثلاث مرات، تحضـر إلـى مكتبـي الثلاثاء القادم، الساعة الحادية عشرة صباحا ثم الثلاثاء الذي يليه والثلاثاء التالي، بعدها نعتمد الإجراءات ونعطيك شهادة تتوجـه بهـا إلـى الشهر العقاري لاستخراج شهادة إشهار إسلام موثقة، ثم تتوجه إلى دار المحفوظات العمومية بالقلعة لتغيير شهادة الميلاد أولاً، باسـتخراج

مستخرج رسمي لتغيير الديانة، بعدها تتقدم إلى السجل المدني لتغيير البطاقة الشخصية.

أطرق سعيد ساهما ثم سأل:

- وأين تكون اللقاءات؟

أشار الرجل إلى طاولة اجتماعات أمامه بالغرفـة وهـو يقول:

- على هذه الطاولة.

(١١٩)

صمت قلق شَاب العلاقة بين نبيلة ووالديها. الست عائشة لا تعرف ماذا يدور برأس نبيلة ولا ما استقرت عليه. نبيلة تتجنب والدتها لأنها تعرف أنها لن تهدأ قبل فتح الموضوع مرة أخـرى معها ومعرفة ما استقر عليه رأيها.

في مساء أحد الأيام، وبعد عودة نبيلة من الخـارج، لـم تتمالك نفسها من أن تفتح الحديث مع نبيلة. دخلت إلـى غرفتهـا وبادرها بالحديث وهي تجلس إلى جوارها:

- هل نستطيع أن نتحادث قليلاً؟

أجابتها نبيلة متوجسة:

- تحت أمرك يا ماما.

صمتت الست عائشة قليلاً لتستجمع أفكارها المشـتتة ثـم سألتها:

- إلى أين وصل موضوعك مع سعيد؟

أجابتها نبيلة:

- لا جديد في الموضوع.

سألت الست عائشة مستنكرة:

- معنى ذلك أنك مازلت تفكرين في الموضوع بجدية ولم تستبعديه.

أجابتها نبيلة مستنكرة:

- لا يمكن أن يتم ذلك الموضوع.

استجمعت نبيلة شجاعتها وهي تقول:

- هذا موضوع حياتنا أنا وسعيد يا ماما.

ارتفع صوت الست عائشة وهي تواجه نبيلة:

- وكيف تسمحين لنفسك بقبول شاب يغير دينـه بهذه السهولة؟

احتدت نبيلة على والدتها وهي تجيبها:

- ومن منا قد اختار دينه؟

أجابتها أمها مستعطفة:

- يا بنتي... هذه سنة الحياة.

قالت ذلك وانفجرت في البكاء. احتضنتها نبيلـة وربتـت عليها وهي تقول في أسى:

- ماما... أرجوكِ... لا تزيدي في تعذيبي.

(١٢٠)

حان موعد عودة شريف وكريمـة إلـى ليبيـا. انتهـت الإجازة، كما ينتهي كل شيء. اتفق شريف مع نبيلة على إرسـال تأشيرة لها لزيارته بليبيا وبداية محاولات البحث عن عمـل لهـا ولسعيد. اجتمعت الأسرتان بمنزل الست عائشة ليلة السفر. كانت كريمة قد حزمت الحقائب استعدادا للسفر ولم يكن بيتها مسـتعدا لاستقبال زوار، لذلك كان لقاء الوداع بمنزل الست عائشة بشارع الزهور. امتدت السهرة طويلاً، فطائرة شريف موعدها بعد ظهر اليوم التالي. أعلن شريف للأسرة بأنه سيستضيف نبيلة بطـرابلس لتقضي فترة راحة واستجمام بعد حصولها على الليسانس وإتمامها لدارستها الجامعية. أبلغهم أنه سيرسل لها تأشيرة زيـارة بمجـرد عودته إلى طرابلس. فوجئت الأسرة بالخبر. شعور دفين داخـل الست عائشة قال لها، قد يكون ذلك خيرا. ستكون بعيدة عن سعيد وقد تراجع نفسها في الموضوع على البعد.

البعيد عن العين بعيد عن القلب.

(١٢١)

توجه سعيد صباح الثلاثاء إلى مبنى مديرية الأمن. موعد لقاء القسيس. كان اللقاء ثقيلاً على نفس سعيد. ترى ماذا يريد هذا القسيس؟. فيم سيتحدثان؟. أنا وقد قررت أن أشهر إسـلامي. مـا دخله هو وما دخل الكنيسة؟. شخص بالغ رشـيد يتخـذ قـرارا باعتناق ديانة ما. ما دخل أي جهة بذلك؟

في تمام الحادية عشرة، دخل إلى مكتب المسـئول الـذي قابله في المرة الماضية، والذي حدد له موعد لقاء القسيس. حيـاه الموظف المسئول ودعاء إلى الجلوس قائلاً:

- تفضل بالجلوس. القسيس لم يحضر بعد.

جلس سعيد أمامه وهو يشعر بعدم الارتيـاح لكـل هـذه اللعبة. لحظات ودخل القسيس. رجل يميل إلى البدانة وقد جـاوز الخمسين من عمره بقليل. نهض الموظف المسئول لتحيته قائلاً:

_ أهلا يا أبونا... تفضل.

جلس القسيس في مواجهة سعيد بعد أن حياه. مرت كلمات المجاملة الأولى بين المسئول والقسيس، بعدها استأذن القسيس في النهوض للانفراد بسعيد. توجها إلى طاولة الاجتماعـات المقابلـة وجلسا متواجهين.

بدأ القسيس الحديث بتحية سعيد ثم سأله:

- هل الوالد والوالدة على قيد الحياة؟

- الوالد متوف منذ مدة.

عاد القسيس وسأله:

- هل عندك إخوة؟

أجاب سعيد باقتضاب:

- أخت واحدة.

صمت القسيس برهة ثم سأله:

- هل أختك متزوجة؟

- لا

- كم عمرها؟

- تصغرني بأربعة أعوام.

- هل تعمل أم مازالت طالبة؟

- تعمل مدرسة موسيقى.

سأله القسيس بغتة:

- أين تصلي الأسرة؟. في أي كنيسة؟

انتبه سعيد للسؤال المباغـت ودارت برأسـه الظنـون. القسيس يريد أن يصل إلى أسرته لممارسة الضغط عليه. أجابـه بعد تفكير:

- لا أعرف.

ابتسم القسيس ثم سأله بصراحة:

- ما عنوانك يا سعيد؟... أنت تسكن مع الوالدة والأخـت طبعاً.

ناوره سعيد متسائلاً:

- ما فائدة كل هذه الأسئلة؟

ابتسم القسيس وهو يجيبه:

- اعتبرها فرصة للتعارف.

ران صمت بينهما للحظات قطعه القسيس بمعاودة السؤال:

- لم تخبرني عن عنوانك.

فكر سعيد قليلاً ثم قرر أن يتحدث بصراحة مع القسـيس. قال له:

- لنكن صرحاء. حضرتك تريد معرفة عنواني والكنيسة التي تصلي فيها الأسرة لتصل إلى أسرتي كي تمارس الضـغوط علي لإثنائي عن عزمي. أن أوضح لك أنني لن أبلغـك بعنـواني وأنني لا أريدك أن تتصل بأسرتي. هذا شأني الخاص وأنا رجـل بالغ رشيد.

أجابه القسيس بوضوح:

- أستاذ سعيد، لابد أن تبلغني بعنوانك.

نهض سعيد ثائرا وتوجه إلى الموظف المختص قائلاً:

- سيدي، أنا لا أريد أن أكمل هذه اللقاءات.

أجابه الموظف بصوت خفيض:

- لابد أن تتم هذه اللقاءات. أرجو أن تتفهم هذا.

توجه القسيس بالحديث إلى الموظف المختص:

- أرجوك إقناعه بالتعاون. ليته يطلعني على بطاقته الشخصية.

أجابه سعيد بحدة.

- ليست معي البطاقة الشخصية.

تدخل الموظف لفض الاشتباك قائلاً:

- أستاذ سعيد. من فضلك أحضر لي صورة من بطاقتك الشخصية في المرة القادمة.

انتهى اللقاء بهذا الطلب من الموظف المختص. خرج سعيد ثائرا لا يدري كيف يتصرف في هذه الورطة. هو لا يريد ضغوطًا إضافية من والدته. لن يتغير في الأمر شيء. يرغب في إنهاء الأمر بسلام أولاً ثم يبلغها بعد ذلك دفعة واحدة بعد إنهاء الجميع الإجراءات الرسمية. سيكون ذلك أفضل كثيرا وأسهل عليه، حيث إن الجميع سيرضخون لأن الأمر قد نفذ.

(١٢٢)

قضى سعيد الليلة وهو يقلب الأمر من كافة جوانبه محاولاً الخروج من ذلك المأزق. هداه تفكيره أخيرا إلى أن يغير البطاقـة الشخصية. سيستخرج بطاقة شخصية جديدة على عنوان صـديقه مدحت بمصر الجديدة. مدحت صديق سعيد منـذ التحاقـه بكليـة التجارة. يعيش بمفرده بشقة الأسرة بالقرب من ميدان سفير بمصر الجديدة، وذلك بعد وفاة والدته منذ عامين.

بمجرد أن وصل إلى الشركة، اتصل بمدحت في عملـه. مدحت رفيق دائم لسهرات الأوبرج الشهرية التي اعتـاد عليهـا سيعد وأصدقاؤه المقربون أصحاب المزاج. يسـهرون الخمـيس الثاني من كل شهر سهرة محترمـة بـالأوبرج. الخمـيس الأول مخصص لحفلات الست أم كلثوم. مدحت على علـم بموضـوع سعيد ونبيلة وبقرار سعيد بإشهار إسلامه وزواجه منها.

اتفقا على اللقاء مساء. أبلغ سعيد مـدحت برغبتـه فـي استخراج بطاقة شخصية جديدة على عنوانه وشـرح لـه الأمـر بالتفصيل. رحب مدحت برغبة سعيد الذي انطلق منذ صباح اليوم التالي في عمل إجراءات استخراج البطاقة الجديـدة، مـن عمـل محضر بضياع بطاقته إلى استخراج شهادة إدارية بتوقيع اثنين من

الموظفين بأنه يقيم بالعنوان الجديد بمصر الجديدة. استخرج فـي النهاية البطاقة الجديدة والتي تفيد بأنه يقيم بحي مصر الجديدة.

(١٢٣)

ذهب سعيد بعد الحادية عشرة بقليل يوم الثلاثاء التالي إلى مديرية الأمن. كان القسيس الذي وصل قبله منتظرا إيـاه علـى طاولة الاجتماعات، بينما انهمك الموظف المسئول فـي فحـص مجموعة من الأوراق أمامه. حياه سعيد ثم توجه إلى القسيس الذي نهض لاستقبال سعيد ومصافحته.

جلس سعيد على طاولة الاجتماعات وقبل أن يتوجه إليـه القسيس بأسئلته، استخرج صورة البطاقـة الشخصـية الجديـدة وسلمها للقسيس قائلاً:

- تستطيع أن تحتفظ بها.

نظر إليه القسيس بسرعة ثم ردها لسعيد وهو يقول له:

- لا يا بني... لا داعي للاحتفاظ بها. نحن لسـنا جهـة حكومية ولا سلطة لنا على ذلك. أردت فقط أن أعرف العنوان.

صمت القسيس قليلاً ثم قال له بتردد:

- أنت تعرف طبعا أن تغيير الدين ليس بالأمر البسـيط. هل لي أن أسألك عما دعاك إلى اتخاذ هذه الخطوة؟

استراح سعيد لسؤال القسيس المباشر هذه المرة وأجابـه على الفور:

- السبب هو الزواج. أحب فتاة مسلمة، لذلك قـررت أن أشهر إسلامي وأتزوجها. لا توجد طريقة أخرى. ثم إنني، وعلـى المستوى الشخصي، أرى أن جميع الأديان تدعو إلـى عبـادة الله وإلى القيم النبيلة. سيدي، صدقني، فأنا لا أستطيع أن أتخيل حياتي ومستقبلي مع أية امرأة أخرى، سوى تلك التي أحببتها. ارتبطنـا منذ سنوات طويلة وتعلق بعضنا ببعض تعلقًا لا يفصـمه سـوى الموت.

صمت القسيس برهة ثم سأله:

- وهل يعرف أهلها قراركما هذا؟

أجابه سعيد بأسى:

- يعرفون ويرفضون هم أيضا.

سأله القسيس بفضول:

- ولماذا يرفضون؟

أجابه سعيد بيأس:

- لأنهم يعرفون والدتي وأختي. عِشرة عمر.

أجابه القسيس قائلاً:

- معهم حق يا بني. العِشرة لها حق. بالإضافة إلى أنكـم ستواجهان بالكثير من العقبات.

- هذا قدرنا... ماذا يفعل الإنسان أمام قدره؟

انتهى اللقاء الثاني وبقي لقـاء أخيـر بعـدها بأسـبوع.
انصرف القسيس وهو راض بحصوله على عنوان سعيد آملاً في سرعة التحرك للوصول إلى أسرة سعيد عن طريق كنائس مصر الجديدة المجاورة لعنوانه.

(١٢٤)

بدأ العام الدراسي الجديد. استهل مجدي وورورو العام بأمل الانتهاء منه ومن الدراسة جميعا بسلام والحصول على شهادة البكالوريوس للفكاك من الدراسة والواجبات واللوحات الهندسية وعذابها.

انتظرت نبيلة بقلق إرسال خالها لتأشيرة الزيارة لليبيا وهي في حالة من الترقب والعصبية. تابعت خطوات سعيد خطوة بخطوة وتحايله بتغيير بطاقته الشخصية على عنوان مصر الجديدة. ترقب بتوتر موعد نهاية لقاءات سعيد مع القسيس وإنهائه لإجراءات إشهار الإسلام. تمنت أن ينتهي منها قبل سفرها إلى ليبيا.

كانت نبيلة تعيش منعزلة داخل نفسها، خاصة بعد بداية العام الدراسي وانشغال مجدي بالكلية والدارسة. تقضي معظم وقتها داخل غرفتها. تتحاشى الحديث مع الست عائشة. تتجنب رؤية والدها حتى لا تكتوي بنظراته الحزينة، والتي تحمل الكثير من المعاني. كانت تذيبها نظرات فهمي أفندي. ترى سعيد لماما ولمدة قصيرة لتعرف منه الأخبار ولتتكلم. كانت تحتاج إلى الكلام. أن تتكلم مع من يمكن أن يستمع لها. لقد وصلت إلى منطقة اللاعودة. سواء لديها أكانت مصيبة أم مخطئة. لا سبيل

إلى التراجع. دارت العجلة وبدأ صوت هـديرها يرتفـع ويصـم الآذان. تشعر بالوحشة. عز نومها واقتربت دمعتها. تنتبه فجأة إلى الدموع تسيل من مآقيها. بكاء لا إرادي. اللعنة على هذه الحيـاة. نتعذب من أجل قيم جميلة إيجابية. الحب والدين. الدين يدعو إلى كل ما هو حق وعدل وجمال، فتكون النتيجة أن نكتوي بـاختلاف الأديان. لماذا لا يجعل الله الناس جميعا دينًا واحدا، مادامت الغاية واحدة؟ كانت ستنتفي الكثير من الشرور. لا اضطهاد دينـي و لا حروب صليبية ودينية بين كاثوليك وبروتستنت أو سنة وشيعة، أو شعب الله المختار والعالم كله.

(١٢٥)

وصل خطاب تعيين زاريه. تم تكليفـه مهندسـا بشـركة الحديد والصلب المصرية بالتبين بحلوان. تذكر شـوقي صـديقه والذي كان يسبقه بعام في الكلية وتم تعيينه أيضا بنفس الشركة في العام الماضي. انتظر حتى المساء ثم اتصل بـه تليفونيـا ليبلغـه الخبر، وليستفسر منه عن كيفية الوصول إلـى موقـع الشـركة بالتبين. استفسر منه متعجبا عن تكليف مهندسين مـدنيين للعمـل بشركة الحديد والصلب، شوقي مهندس ميكانيكا ومن المنطقي أن يعمل بالحديد والصلب. أفاده شوقي بوجود إدارة للأعمال المدنية بالشركة تقوم بالتصميم والإشراف على تنفيذ احتياجات الشـركة وتوسعاتها من مبان وأسوار ورق داخلية وخلافه. علم من شوقي أن سيارات الشركة تقوم في السابعة صباحا مـن ميـدان بـاب الحديد، وأنه يمكنه أن يصطحبه معه بالسيارة التي يستقلها في أول يوم له، بعدها سوف تحدد له الشركة السـيارة التـي سيسـتقلها بانتظام. اتفقا على اللقاء في اليوم التالي عند أول كوبري شـبرا، ليرافقه إلى مكان قيام الأتوبيسات.

في السابعة إلا ربعا، كان زاريه ينتظر عند مطلع كوبري شبرا. مشاعر مختلطة تعتمل بداخل. أول يوم في حياته العمليـة. مرحلة جديدة تبدأ في حياته، ينتقل فيها من طالب بكلية الهندسـة،

فخريج ثم باشمهندس قد الدنيا. تعالَ يا باشمهندس... تفضـل يـا باشمهندس... هل تسمح لي يا باشمهندس بإجـازة غـدا لقضـاء بعض المصالح... لا مانع... قدم طلبا وسأعتمده لك. أرسل لـي الأسطى محمود على وجه السرعة...

انتبه على صوت شوقي وهو يصيح فيه:

- خير يا باشمهندس... فيم تسرح؟... حب جديد؟

ابتسم زاريه وعلق قائلاً:

- ألعب باشمهندس.

سأله شوقي:

- لا أفهم، ماذا تعني؟

أجابه زاريه:

- يعني... أتخيل نفسي باشمنهدس لأول مـرة... آمـر وأنهي.

قال شوقي:

- لا تتعجل الأمر... سوف تكفر من الشغل فيما بعـد... هيا أسرع حتى لا تفوتنا السيارة.

جاء يوم الثلاثاء أخيرا. موعد اللقاء الأخير بـين سـعيد والقسيس. لن يلقاه بعد ذلك وسينطلق في إتمام إجراءاته.

اجتمع القسيس بسعيد. لم يتمكن طبعا من اقتفاء أثر أسرة سعيد. وصل إلى خط النهاية دون أن يظفر بمعلومة مفيدة يمكـن

أن تقوده إلى أهل سعيد، لعلهم ينجحون في إثنائه عن عزمه. كان لقاء هادئًا، حيث بدا واضحا عدم جـدوى مواصـلة المحاولـة، وخاصة أنه اللقاء الثالث والأخير، ولن تكون هناك مهلة أخرى.

استلم سعيد شهادة من الموظف المخـتص تفيـد إنهـاء إجراءات إشهار إسلامه. طلب منه التوجه إلى مأمورية الأحـوال الشخصية بالشهر العقاري لإصدار الشـهادة الرسـمية بإشـهار الإسلام، لاستخدامها بعد ذلك في تغيير شهادة الميلاد، ثم استخراج البطاقة الشخصية بالديانة الجديدة.

أخيرا، اقتربنا من نهاية المطاف. قالها سعيد لنفسه وهـو ينزل درج مأمورية الشهر العقاري للأحوال الشخصية، بعـد أن تسلم الشهادة الموثقة. كانت نبيلة على علم بذهابـه إلـى الشـهر العقاري لاستلام الشهادة. اتفقت معه على أن تلقاه في تمام الساعة الثانية ظهرا بكافيتريا فندق إفرست أعلى عمارة رمسـيس ببـاب الحديد. وصلت نبيلة فوجدته في انتظارها. نهض باشا لاسـتقبالها فأدركت أنه قد وفق في إنهاء الإجراءات. أطبقت بكفيها على كف سعيد وهو يصافحها واعتصرها بقوة، مودعة فيها كـل فرحتهـا الداخلية وحنينها إليه وهو يقول لها:

- معي الآن الشهادة الموثقة. ها هي... لم يبـق سـوى خطوتين روتينيتين لتغيير شهادة الميلاد والبطاقة الشخصية.

جلسا يلهثان من فرط الانفعال. جاءهما الجرسون فطلبـا فنجانين من الشاي. ران صمت مطمـئن بينهمـا قطعـه سـعيد متسائلاً:

- يبقى أن أفكر في توقيت إبلاغ ماما بالأمر وأن أحتشـد للموقف.

أجابته نبيلة:

- لندع ذلك الآن. سنفكر في ذلك فيما بعد. لنعطِ أنفسـنا فسحة قصيرة من الوقت، نلتقط فيها أنفاسنا.

قال لها سعيد:

- يجب أن نحتفل بالمناسبة.

- لنلتق في المساء.

- الساعة السادسة.

- أليس مبكرا.

- أريد أن أشبع منكِ.

- ليكن... أين نلتقي؟

- فندق سميراميس.

- نايت آند داي؟

- أيوجد غير هذا مكان يليق باحتفالنا؟

- كم شهد من معاناة.

- وكم عايش من دفء.

غادرا في طريقهما إلى شارع الزهور حتى يستعدا للقـاء السادسة.

(١٢٧)

عادت نبيلة إلى البيت لتجد برقية من خالها شريف تفيدها برقم تأشيرة الدخول وتاريخ إرسالها إلى السفارة الليبية بالقـاهرة، وتطلب منها الذهاب إلى السفارة لاستلام التأشيرة. أمعقول هـذا؟ سألت نبيلة نفسها متعجبة. هـل تنفـتح جميـع المسـالك دفعـة واحدة؟... في يوم واحد. من شدة فرحتها كانت تتمنى أن تصـعد إلى سعيد لتبلغه بالخبر. قاومت نفسها بصعوبة شـديدة. السـاعة السادسة ليست ببعيدة... ماذا أفعل؟...

سآخذ حماما سريعا ثم أبدأ في الاسـتعداد للموعـد... لا أستطيع الانتظار... هل أذهب مبكرة بعض الشيء؟... سعيد تعود أن يذهب مبكرا عني حتى يكون فـي انتظـاري... لا يحـب أن أنتظر حضوره بمفردي... لو ذهبـت مبكـرا فسـألقاه لأبلغـه بالخبر... لا أستطيع أن أحتمل السعادة... لكم أتمنى أن يشاركني فيها سعيد الآن... سأسافر إلى ليبيا... سأبحث عن عمل هناك... شرشر سيساعدني... سأبحث عن عمل أيضا لسعيد... سـيجيء إلى ليبيا ليلحق بي... نتزوج هناك... بعيدا عن المشاكل... بعيدا عن الناس جميعا... سنبدأ حياتنا هناك. نعيش هناك أطول فتـرة ممكنة... سنستأنس بشرشر وكريمة... وسيكون لنا أصـقاؤنا... سيكون لنا أطفالنا... أريد بنتًا في البداية... ماذا أسميها؟... يجب

أن يكون اسما محايدا... لا هو بالمسلم ولا بالمسيحي... يصـلح للاثنين... أسميها مثلاً... فريدة... ما أجمـل اسـم فريـدة... أو سارة... نادية مثلاً... أنا نادية حلـوة وهاديـة ومصـاحبة كـل الأطفال... يسمعوني ويحبوني... علشان صوتي موش بطّـال... بابا شارو كمان... بيرحب بصداقتكم... بعـدها نخلـف ولـد... نسميه كـريم. رامـز... سـمير... كلهـا أسـماء لازم تكـون Neutral... ياه... معقول دا.

(١٢٨)

في صباح اليوم التالي، ذهبت نبيلة إلى السـفارة الليبيـة بصحبة سعيد الذي أخذ إجازة من العمل لمدة أسبوع لينتهي مـن إجراءات استخراج شهادة ميلاد جديدة وتغيير البطاقة الشخصـية. كانا قد اتفقا بالأمس أثناء لقائهما في المساء، على الذهاب معا إلى السفارة الليبية للحصول على التأشيرة. نبيلة استعدت باسـتخراج جواز سفر لها منذ بزغت فكرة سفرها إلى خالها بليبيا.

في تمام الثامنة صباحا، التقيا على محطة الأتوبيس التـي اعتادا اللقاء عندها استقلا سيارة تاكسي إلى مقر السفارة الليبيـة. اخترقا الزحام أمام الباب واسـتطاعا بصـعوبة الوصـول إلـى الموظف المختص بالرد على استفسارات التأشيرات. سلمه سـعيد البرقية التي تحتوي على رقم وتاريخ التأشيرة فاستأذنهما ودخـل إلى غرفة مجاورة. غاب قليلاً ثم عاد وأبلغهما أن التأشـيرة لـم تصل بعد. طلب منهما العودة بعد يومين للاستفسار مرة أخرى.

أصيبا بخيبة أمل. كيف يقول الرجل إنها لم تصل مـع أن برقية شريف واضحة. يقول إنه تم إرسـال التأشـيرة؟... هـل يرسلونها على ظهر سلحفاة؟... خرجا مـن السـفارة محبطـين. حاول سعيد أن يسري عنها فقال لها:

- ليست مشكلة أن نعود بعد غد. لا تسمحي لحدث بسيط كهذا أن يعكر صفو سعادتنا. لنذهب الآن إلى السـجلات بالقلعـة وننهي موضوع شهادة الميلاد ثم نتناول الغداء معا.

أجابته نبيلة بعد لحظات صمت:

- يجب أن أكلم ماما أولاً لأبلغها بأني سأتأخر في العودة.

(١٢٩)

بدأت نبيلة في الاستعداد للسفر بعـد أن حصـلت علـى تأشيرة الدخول. قامت بشراء ما ينقصها من احتياجـات. اهتمـت اهتماما خاصا بملابس الشتاء بناء على ملاحظـة شـريف لهـا. طرابلس أبرد من القاهرة وتكثر فيها الأمطار مثل الإسـكندرية. استعدت لإقامة طويلة وحاولت أن تدقق قدر الطاقة فيما يمكن أن تحتاجه حتى تأخذه معها. لا تريد أن تضطر إلـى الشـراء مـن طرابلس، خاصة في الفترة الأولى لإقامتها وحتـى توفـق فـي الحصول على عمل، بالإضافة إلى أنها ستحتاج إلى الادخار فـي البداية لاحتياجات الزواج ومصروفاته. لا تريد أن تثقل على خالها شريف بأعباء إضافية. يكفيه استضافتها حتى توفق في الحصـول على عمل ومجيء سعيد.

حجزت تذكرة الطائرة وحولت مبلغ الخمسـة الجنيهـات المسموح بها من البنك الذي سلمها أحـد عشـر دولارا مقابلهـا. اشترت هدايا لشريف وكريمة وأصبحت الآن مستعدة تماما للسفر.

قابلت سعيد ليلة السفر مبكرا حتى تستطيع العودة لـوداع صديقاتها اللاتي كن سيحضرن لزيارتها وقضاء السـهرة عنـدها لوداعها. اتفقت مع سعيد، الذي أنهى جميع الإجـراءات وتسـلم بطاقته الشخصية الجديدة، على أن يبلغ والدته بالأمر بعد سفرها،

بعد أن يحاول التمهيد لها حتـى لا تصـيبها صـدمة. نصـحته بالاستعانة بآمال أخته وترتيب الأمر معها جيدا.

ودعت سعيد وهي مفعمة بالثقة بالالتقاء قريبـا. أوصـته بالانتظام في مراسلته وإبلاغها بكـل صـغيرة وكبيـرة تحـدث بالقاهرة. أكدت له أنها ستبذل كل جهدها للبحث عن عمل لهمـا، وأنها واثقة من مساعدة شريف الجدية.

(١٣٠)

بدأ زاريه إجراءات هجرته إلى أمريكا بمجـرد ظهـور النتيجة. ذهب إلى السفارة الأمريكية بجـاردن سـيتي وسـحب استمارات الهجرة وملأها بعناية وقدمها للسفارة. بعـد أن تسـلم عمله بشركة الحديد والصلب، أبلغ أنه سوف يمر علـى الأقسـام المختلفة في الفترة الأول لتسلمه العمل، ليطلع على العمل بكل قسم وطبيعته، ثم ينتهي به المطاف في إدارة الهندسة المدنية. مـروره على الأقسام وقضاؤه أسبوعين بكل قسم سـوف يسـاعده علـى تصور تفاصيل العمل بالأقسام المختلفة ومراحـل تصـنيع خـام الحديد، منذ وروده من مناجم الشركة بأسوان بواسطة خط السـكة الحديد الخاص بالشركة، والذي يخترق موقعهـا، وحتـى إنتـاج الصلب كمنتج نهائي. بدأ بقسم التلبيد الذي يستقبل الخـام. قسـم يصطبغ كل ما فيه باللون الأحمر، لـون تـراب خـام الحديـد، الماكينات والمكاتب والمباني والعاملون، يصطبغون جميعا باللون الأحمر. ضايقته فترة الأسبوعين التـي قضـاها بـه ورأى أنـه استهلال سيء يبدأ به حياته العملية. انتقل بعـدها إلـى الأفـران العالية، فأقسام الصلب والدرفلـة لحديـد التسـليح والقطاعـات المختلفة. كل قسم أمضى فيه مدة أسبوعين، اطلع في تلك الفتـرة على تفاصيل صناعة الحديد والصلب وتعرف على العاملين مـن

زملائه المهندسين. شاهد أيضا توسعات الشركة التي كانت تحـت الإنشاء، والتي ساهم فيما بعد بعمله في تصميم بعـض أجزائهـا وملحقاتها والإشراف على تنفيذها. عالم جديد رحب يلجه للمـرة الأولى. شاهد وسمع ضخامة وصخب الصناعة وأحـس باتسـاع كبير لمداركه. خبراته فيما مضى انحصرت في الدراسة النظرية والثقافة العامة. يتلقى العلم في قاعات المحاضرات والمعامل ويقرأ في غرفته الحميمة بشارع الزهور. يذهب إلى السينما والمسـرح أو قاعات الكونسير. يقف الآن وسط عمدة الصـناعات الثقيلـة. يشاهد الحديد والنار يتأججان لينتج عنهما ما يسـاهم فـي صـنع الحياة وتقدم الحضارات. شعور بالأهمية انتابه رغم أنه لم يبدأ في العمل الفعلي بعد. مازال في مرحلة التعرف والتدريب، لكنه شعر أنه ينتمي إلى هذا الصرح وسيشارك في دورانه لفترة من الوقت، ولو بنصيب محدود.

أخيرا استقر به المقام في إدارة الهندسة المدنيـة. ألحـق بالعمل في المكتب الهندسي للتصميمات وأثبت كفاءة واضحة فـي مدة وجيزة، رسخت أقدامه في المكتب الهندسي. عنـدما صـدر الأمر بإلحاقه بالمكتب الهندسي، طلب من مدير الإدارة أن يسـمح له بالمشاركة في الإشراف على تنفيذ الأعمـال التـي يقومـون بتصميمها، ولو لفترة محدودة يوميا، حتى يحصل أيضا على خبرة في التنفيذ، تدعم خبرته في التصميم. وافق مـدير الإدارة علـى

ذلك، على أن يترك له تحديد الوقت الـذي سيخصصـه لعملـه الأساسي في التصميم، والوقت الذي سيتفرغ فيه لمشاركة زملائه في الإشراف على تنفيذ المشروعات. كان يطمـع فـي أن يلـم بخبرات متكاملة كمهندس، تصميما وتنفيذًا على قدر استطاعته.

عمل زاريه بجدية ودأب كعادته دائما. كان واضحا فـي ذهنه أن فترة عمله بشركة الحديد والصلب هـي فتـرة إعـداده كمهندس فعلي واكتسابه للخبرات اللازمة قبل هجرته إلى أمريكا. بذل جهدا مضاعفًا في التحصيل والاستيعاب ولـم يتـوان عـن الاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة تتعلق بالعمل. ضاعف أيضـا جهوده في تقوية مستواه في اللغة الإنجليزية. ساعده علـى ذلـك تعوده على القراءة وإقباله عليهـا. أصـبح يقـرأ كثـيرا باللغـة الإنجليزية. اشترى كمية ضخمة من الروايات العالميـة وواظـب على قراءتها مستغلاً فترتي الذهاب والعودة من الشـركة يوميـا. ساعة الذهاب صباحا وساعة العودة بعد الظهر، يقضيهما بأتوبيس الشركة منهمكًا في القراءة. استطاع أن يقرأ عـددا كبيـرا مـن الروايات دعمت إتقانه للغة الإنجليزية تمهيدا للهجرة.

باختصار وإجمال، وضع زاريه خطة محكمة لاكتسـاب الخبرة المهنية وامتلاك ناصية اللغة الإنجليزية، قبل أن يشرع في رحلة الهجرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية. كان يأمل فـي أن يوفق في الحصول على عمل هناك بمجرد وصوله، حتى يـتمكن

من ترتيب حياته على وجه السرعة واستدعاء مدام أنوش وأناهيد ومسيو هايج خاله للحاق به في أمريكا.

(١٣١)

انغمس مجدي ورورو في الدراسة وفي الاستعداد لإعداد مشروع التخرج... صمم مجدي على الانتظام بجدية منـذ بدايـة العام الدراسي. يريد أن ينتهي من الدراسة ويحقق حلمه بالسـفر إلى الخارج. مجدي لا يرغب فـي الهجـرة. لا يتصـور نفسـه مهاجرا. لا يستوعب أنه يمكن أن يحمل جواز سفر لجنسية أخرى غير الجنسية المصرية. شعوره لا ينبع من أية دوافع تعصـبية أو عصرية، إنما هو مجرد شعور فطري بأنه ولـد مصـريا علـى أرض مصر. حقيقة لا يمكن تغييرها شأنها شأن الحقائق، يشـعر أنه لا يستطيع أن يكون خلاف ذلـك. فقـط. يتمنـى أن يسـافر للخارج، يتجول ببلاد الله، يتعرف على خلق الله ويشوف الـدنيا. يعيش لفترة في الخارج، طالت أو قصرت، يعود بعده للاسـتقرار بين أهله وأصحابه وناسه. وجود خاله شريف بطرابلس وعلاقتـه الحميمة به تسمح باحتمال أن تكون ليبيا محطة أولى مؤقتة لـه. يدرس الأحوال هناك، يتوقف بها قليلاً ثم يسافر بعدها إلى أوربا، يستمتع بحضارتها وفنونها وثقافاتها وناسها، ولو أنه يفضل التوجه رأسا إلى أوربا وعدم الاضطرار إلى المرور على ليبيا. لم يفكـر مجدي في المستقبل أبعد من ذلك. ليس له طموحات مادية كبيرة. يريد أن يعش ويستمتع وينهل من منابع المعرفة، ثم يعمل عمـلاً

يحبه. الحياة عنده يجب أن تكون كذلك. لا يسعى لأن يكون غنيـا ولا لأن يمتلك قصرا أو حتى فيلا. لا يهتم بقيادة سـيارة فـاخرة آخر موديل. يكفيه سيارة صغيرة تقله ومسكن مريح بسيط، ذلـك يفي بالغرض. المهم أن يحيا حياة هادئة خالية مـن الصـراعات والتنافسات المدمرة.

حرص على أن يكتفي بلقاءات الخميس مـع كريسـتينا. كانت أحيانًا تمر في وسط الأسبوع وتخرج إلى شرفة مدام هيلينا لتعلمه بحضوره فينزل للقاءها. أفهمها أنهما سيكتفيان بلقاء نهايـة الأسبوع فقط لانشغاله بالبكالوريوس والمشروع. تعددت لقاءاتهما الجنسية بعد تجربتهما الأولى. استعرت الرغبـة بينهمـا بعـدما تباعدت الذكريات المؤلمة لحملها وإجهاضها. تململـت الغريـزة فيهما وترعرع النسيان بالزمن. كانا ينتهزان أية فرصـة تسـنح للالتقاء، والارتواء. سفر أمها إيرين وعبـاس مـثلاً، أو توفيـق مجدي في توفير شقة عن طريق أصدقاءه. كانا يحرصـان علـى الاحتياط والحذر، لعدم تكرار خطأ الحمل وتجربة الإجهاض مرة أخرى. واظب مجدي على استخدام عوازل منع الحلم وانغمسا في ممارسة الحب ممارسة كاملة.

(١٣٢)

كانت مواجهة صاخبة بين سعيد والست عايـدة رزق الله والدته. بعد تمهيد وتردد، استجمع سعيد كل طاقاته وقال لأمه:

- أنا ونبيلة مرتبطان بعلاقة حب منـذ فتـرة طويلـة... وسوف نتزوج.

أُخذت الست عايدة بالصدمة وسألته لا شعوريا:

- نبيلة من؟

أجابها سعيد بصوت مرتعش:

- ابنة الست عائشة وفهمي أفندي.

أسكتت الصدمة الست عايـدة لبرهـة تسـاءلت بعـدها باستنكار:

- كيف... ونبيلة مسلمة؟

صمت سعيد قليلاً ثم أجابها وقلبه يتفجر داخل صدره:

- لقد أشهرت إسلامي لأتزوجها.

شهقت الست عايدة شهقة ملتاعة وهي تقول:

- لا لا... لا... غير معقول... ماذا تقول يا سعيد؟... هل أسلمت فعلاً؟... انجديني... يا عذراء...

أجابها وهو في غاية الارتباك:

- ماما... أرجوك أن تتفهمـي... أنـا أحـب نبيلـة ولا أتصور الحياة بدونها... لقد أقدمت على هذه الخطوة بعد معانـاة شديدة لي ولنبيلة... لقد حاولنا الابتعاد بعضنا عن بعض مرارا... دون جدوى... أرجوكِ يا ماما أن تضعي نفسك مكاننـا... مـاذا كنت أفعل وأنا لا أتصور شريكة حياة لي سواها... إنها حياتنا... أنا أعلم مدى الألم الذي سببته لكِ... أرجوكِ... اعذريني... هناك مواقف في الحياة لا نملك إلا أن نعيشها... نكتوي بنارها ونتـألم لها... أنت أمي وستظلين أمي، وأنا ابنك... لم يتغيـر شـيء... مجرد إجراء يسمح بإتمام إجراءات الزواج...

لم تكن الست عايدة تستوعب كلمة مما قاله سعيد. انفجرت في بكاء حار مؤلم ذاب له قلب سعيد. كانت تبكي وهـي تكـرر القول:

- لماذا فعلت ذلك بنا يا سعيد؟... هل نهون عليـك أنـا وأختك؟... ضاع مستقبلها... لماذا يا سعيد... لم أعهدك قاسيا إلى هذا الحد... بعد كل هذا التعب والعمر، أنتهي إلى هذا الموقف... لماذا فعلت بنا ذلك يا سعيد؟... لماذا؟... سامحك الله.

انهار سعيد باكيا. لم يحتمل قسوة الموقف. احتضنها بقوة وهو يربت عليها. اختلطت دموعهما وانهارت الست عايدة بـين ذراعيه. تلقفها وسندها حتى أجلسها على الفراش. كانـت تبكـي وهي مستكينة بين ذارعيه. لا تستطيع أن تتوقـف عـن البكـاء،

وكذلك سعيد. لم تفلح الكلمات التي تفوه بها سـعيد بعفويـة فـي إضفاء السلوى على قلب الست عايدة الملكوم.

(١٣٣)

كانت مهمة صعبة على سعيد وآمال. لازمت الست عايدة الفراش لثلاثة أيام متواصلة وهي تبكي بكاء مريـرا لا ينقطـع. تواصل شريط حياتها أمام عينيها منذ وفاة زوجهـا. اسـترجعت المعاناة التي عاشتها لتربية الأولاد وتعليمهم. استعادت ذكريـات تخرج سعيد وآمال وإحساسها بأنها قد وصلت أخيـرا إلـى بـر الأمان. أين هو الأمان في هذه الدنيا؟... كررت التساؤل في ذهنها مئات المرات. أين هو الأمان كانت تشعر بإحباط شـديد وحـزن موجع. لم تستطع تناول أي طعام... فقدت شـهيتها بـل وحتـى رغبتها في الحياة... في اليوم الثالث حاولت ابتلاع لقمة صـغيرة بعد توسل آمال وإلحاحها. لم تستطع إكمالها وتقيأتهـا ورفضـت معدتها أي طعام. خشيت عليها آمال من الهزال استنجدت بالسـت ماري خوري.

كانت فترة عصيبة في بيت الست عايدة رزق الله.

أعدت الست ماري خوري دجاجة مسلوقة مسـاء اليـوم الثالث. استطاعت بصعوبة أن تطعمها وجبة صغيرة، حتى يمكن لمعدتها أن تتحملها وسط معاناتها وتوترها الشديدين.

(١٣٤)

مرت الأيام وئيدة ثقيلة في بيت الست عايدة رزق الله. تناوب سعيد وآمال والست ماري خوري على ملازمتها والاهتمام بها. تحدث سعيد معها كثيرا، وطمأنتها آمال إلى أنها متفقة على الزواج مع مدرس زميل لها وأخته تلميذة لديها، وأنه على علم بالموضوع. أخذت آمال تجاهد في أن تسري عن أمها بأن تعدد لها الكثير من الحالات المماثلة لشباب من الجنسين تزوجوا رغم اختلاف أديانهم. أوضحت لها أن زميلها الذي اتفقت معه على الارتباط شخص متفتح وتفهم الموضوع بيسر، وأن ذلك لن يؤثر على قراره بالارتباط بها. أصبح الآن موضوع سعيد ونبيلة متداولاً في البيت كله بعد سفر نبيلة ومفاتحة سعيد لوالدته. لامته الست ماري خوري على فعلته وما سببه لأمه وأخته من آلام. تحمل سعيد بصبر لوم الجميع له، مسيحيين ومسلمين. قابلته الحجة فريدة أثناء نزوله على الدرج فدعته إلى شقتها. قالت له إنها تريد أن تتكلم معه كلمتين. الحجة فريدة مسلمة وحجت إلى بيت الله، مع ذلك عاتبته عتابا شديدا على ما أقدم عليه. تكلمت معه كثيرا عن تضحيات أمه من أجل تربيته وتنشئته هو وأخته بعد وفاة أبيه. قالت له إنني أعرف أنك أقدمت على إشهار إسلامك لتتزوج من نبيلة وتحل المشكلة وليس بسبب إيمانك بدين الإسلام.

احتدت عليه في نهاية الحديث حتى أشرف سـعيد علـى فقـدان أعصابه معها، لكنه تماسك بصعوبة في اللحظة الأخيرة. الحاجـة فريدة محبوبة في البيت كله ولها مكانة الأم الكبرى للجميع. الست بطة أعرضت عنه عندما صادفها عائـدة مـن الخـارج، أدارت وجهها وهي تقول"إخص عليك، ملعون في السماء والأرض ليـوم الدين". خلاصة الأمر، أن سعيد أمضى فترة مريرة بعد مفاتحتـه لأمه وانتشار الخبر، واجه فيها هجوم الجميع ولـومهم، أصـبح يتمنى أن تنشقّ الأرض وتبتلعه، يريد أن يختفي عن أعين الجميع في أسرع وقت ممكن. تمنى أن توق نبيلة في الحصول على عمل لها بسرعة، وفي الحصول على فرصة له أيضا، حتى يشرع فـي السفر إلى ليبيا. كان يتوق إلى اللحظة التي يبتعد فيها عـن كـل الضغوط العاطفية والنفسية والعصبية التـي يتعـرض لهـا مـن الجميع. تمنى وجود نبيلة في جانبه في تلك اللحظات، تشـد أزره وتواسيه. كم كان وحيدا ومتألما وكارها لحياته، في ذلـك الجـو العاصف. كان يشعر بوحشة مريرة. يقف وحيـدا فـي مواجهـة الجميع.

(١٣٥)

انتشار الخبر سبب قلقًا أشد وكربا في بيت الست عائشة. اتضح للجميع أن سعيد ونبيلة رسما خطتهما معـا وشـرعا فـي التنفيذ. سفر نبيلة إلى ليبيا مدبر وجزء من الخطة. سيسافر سعيد إليها بعد أن أشهر إسلامه ويتزوجان هناك. لابد أن شريف علـى علم بذلك وأن الخطة كلها تمت بمباركة منـه. انقبضـت السـت عائشة وفهمي أفندي. شعرا باليأس والإحباط. سبقَ السيفُ العذَلَ. اختلت الست عائشة بمجدي محاولة اكتشاف ما حـدث. لابـد أن مجدي على علم بالأمور. مجدي قريب من أخته نبيلة، والاثنـان متعلقان بشريف. بسط مجدي الأمر لوالدته بمنطقه الواقعي. اثنان يحب بعضهما البعض ويريدان أن يرتبطا ليكونا أسـرة. سـعيد أشهر إسلامه. ابنتك ستتزوج شابا من دينها الآن وتحبه. لا توجد أية مخاطرة للأسرة. الخسارة لأسرة سعيد وهو يتعامل معها الآن. نبيلة ستتزوج سعيد، ولا تتخذا موقفًا منها لا طائل من ورائـه. لا تخسري ابنتك.

(١٣٦)

عزيزي سعيد

لا أستطيع أن أصف لك فرحتي بوصـولي إلـى ليبيـا وخلاصي من الضغوط النفسية الرهيبة التي تعرضت لهـا فـي القاهرة. أشعر أن العجلة بدأت في الدوران. عجلة حياتنـا معـا. بدأت أول خطوة، وكما يقولون... رحلة الألف ميل تبدأ بخطـوة. أستجمع أفكاري بصعوبة لأكتب لك... تختلط الأفكـار بالأمـاني بأحلام اليقظة، بالأمل وبالحنين إليك... أسأل نفسي أحيانًـا، هـل كان من الممكن أن نفترق؟... وأرتعد... أتذكر إرادتك وإصرارك وحنانك الدافق وحمايتك لحبنا... فأخجل... وأتبـين كـم كنـت مخطئة... من المستحيل أن يحسب الإنسان حياته بطريقة علميـة فقط... خطأ جسيم... ما أسوأها حسبة أن نكون عمليـين بقسـوة وجفاف، أين آدميتنا من كل ذلك؟... أعترف لك بـأنني أخطـأت الحساب، وأعدك أن أحاول جاهدة، ألا أخطئ في حساب حياتنـا في المستقبل، وسأظل معترفة بجميلك في صون حياتنا حتى آخر العمر.

منذ وصولي قبل أسبوع وأنا أستجمع عقلي المشتت لأكتب إليك، لكني فشلت في كل مـرة، أمسـك القلـم وأضـع الأوراق أمامي... ثم... يا مولاي كما خلقتني... لا أستطيع أن أكتـب إلا

المفتتح... عزيزي سعيد... ولا يفتح على ربنا بأكثر مـن ذلـك. اليوم فقط استطعت أن أبدأ... قلت... سأحكي لك عن مشـاعري في البداية وبعدها... يحلها ربنا... حتى لو كانت مشاعر مرتبكـة ومبعثرة... أحكي لك عن سفري ووصولي مثلاً... تصور أنـي نمت في الطائرة لمدة ساعة ونصف... مع أنها تجربتي الأولـى في ركوب الطائرات. وصلت الساعة السادسة بتوقيت طـرابلس. كانت رحلة الطائرة ممتعة للغاية، بما فيها النوم، لا يظهـر لنـا سوى الصحراء بعد مرورنا على الإسكندرية، والتي تبدوا رائعـة من الجو وهي تحتضن البحر. لم أجد أحدا ينتظرني بالمطـار... تصوروا أني سأصل الساعة السابعة... خطأ غيـر متوقـع مـن شريف ودقته... قضيت ساعة بالمطار أنتظرهم لتوقعي احتمـال حدوث مثل هذا الخطأ... أظهر المحيطون بي خلال تلك السـاعة اهتمامهم وكرمهم الشديد. يبدو لي من الانطباع المبدئي أن الشعب الليبي مضياف وخدوم. حضر شرشر وكريمة وإحدى صـديقاتها بعدما بدأ قلقي يزداد. ذهبت معهم إلى البيت. كان استقبالهم لـي رائعا. أحضرت لي كريمة معها إلى المطار باقـة جميلـة مـن الورود.

بدأنا الترتيب لتقديم أوراقي لعدة جهات هنا، لكنني علمـت أن شهاداتي التي أحضرتها معي يجب أن تكـون معتمـدة مـن السفارة الليبية بالقاهرة. سأرسل لك الشهادات، وهي معتمدة مـن

الجامعة فقط. يقال إنك بجب أن تعتمدها مـن وزارة الخارجيـة المصرية قبل تقديمها إلى السفارة الليبية للاعتماد. أرجو أن يكون ذلك في أسرع وقت ممكن حتى أستطيع التقديم للحصـول علـى عمل بسرعة. سأقدم أوراقي إلى بعض المدارس الخاصة للعمـل كمدرسة فرنسي، أيضا سأتقدم إلى بعض الشركات التي قد تحتاج إلى سكرتيرة تجيد الفرنسية.

أرجو أن ترسل لي أيضا شهاداتك معتمدة مـن السـفارة الليبية، شهادة التخرج وشهادة خبرة من شركة لوفتهانزا.

لا أستطيع أن أصف لك فرحتـي... شـاركني الفرحـة بخطاب ترسله لي سريعا... آه... كدت أنسى.

يحسن أن تبدأ فورا في إجراءات استخراج الباسبور ومـا إلى ذلك. اكتب لي على عنوان شرشر وهو:

شريف عبد الحليم

ص.ب ١١٢٤ طرابلس – ليبيا

أنتظر خطابك باشتياق عارم، وإلى لقاء قريب.

نبيلة

(١٣٧)

نبيلة العزيزة.

أشواقًا غير محدودة أبعثها إليك، تحية وإعزازا أبعثها إلى شرشر وكريمة، من شاركونا في تدارس موضـوعنا المشـترك بتعاطف يثير لدي الاحترام والتقدير.

وصلني خطابك اليوم السـاعة الثانيـة ظهـرا، وجدتـه بصندوق الخطابات عند عودتي. لا أستطيع أن أشرح لك وقعـه علي، الساعة الآن الرابعة وأنا أكتب، أمضيت الوقت من الثانيـة وحتى الرابعة، وأنا أدور حول نفسي... لا أستطيع أن أقعد علـى بعضي لأكتب لك الرد. انتظرت خطابك في الأيام الماضية بتوتر لا يحتمل تكونت صداقة بيني وبين صندوق الخطابـات... فـي بعض الأحيان، لا أصبر حتى أرتدي ملابسي لكي أنزل للاطمئنان عليه... بل أندفع فجأة نازلاً بالبيجاما، لكي أطمئن عليه... فأجـده للأسف فارغًا سخيفًا... حتى أصبح الفعـل ميكانيكيـا... أنـزل فجأة... أفتحه... أُصدم لفراغه... أعيد غلقـه كسِـيفًا. أهـرول صاعدا قبل أن يلمحني أحد على السلم بملابس البيت... أعود إلى حجرتي مغتاظًا... وهكذا أخبار فرحتك تهزني مـن الأعمـاق... انطلاقك القديم... لا أستطيع انتظار الوقت الـذي تتهـادى فيـه الخطابات حتى يصلك خطابي هذا وتقرئيه... أود أن أشـد علـى

يدك فورا مهنئًا... لو تصل كلماتي إليك في طرابلس فور كتابتها، لكنت أسعد السعداء.

عزيزتي نبيلة.

الأيام تمر علي بطيئة بطئًا أسطوريا، هل تذكرين الاتزان والتعقل والرزانة التي كنت أكلمك عنها في الفترة الأخيرة... كـل هذا تبخر من حيث لا أدري... أصبحت في حالة من الهوس مرة أخرى، بصورة تشبه فترة أول علاقتنا معا... أرجـو أن تسـاعد خطاباتك على تهدئتي، ما رأيك في هذه الديبلوماسية؟... ملعوبة. أرجو أن تكوني كريمة في الكتابة. اكتبي لي كثيرا.

وصلتني الشهادات مع خطابـك وسـوف أعتمـدها مـع شهاداتي بأسرع ما يمكن وأرسلها لكِ.

سأرسل خطابا لشرشر أشكره فيه. إذا أسـعفني الوقـت فسأكتبه اليوم... لست متأكدا... فالساعة الآن الخامسة والنصـف. أريد أن أذهب الآن إلى بوستة العتبة لأسجل خطابك خشية ضياع البريد. بوستة العتبة ينتهي العمل فيها السـاعة السـابعة. إن لـم أستطع كتابته اليوم، فعلى الأكثر غدا. أرجـو إبلاغـه تحيـاتي وتقديري لحين وصول خطابي. سلامي الخاص لكريمة وقبلاتـي لكِ.

سعيد

ملحوظة:

أبلغت ماما بالموضوع وكانت حكاية... لا أريد أن أشغل بالك بالأمر، لكني أبذل قصارى جهدي لاستيعاب الصدمة بمعاونة آمال. الست ماري خوري تلازمها معظم الوقت. قد يكـون مـن المفيد أن تكتبي إليها في المستقبل... سأبلغك في حينـه... علينـا مسئولية كبرى تجاه الجميع. إلى اللقاء قريبا.

سعيد

(١٣٩)

عزيزي سعيد

وصلني خطابك أخيرا بعدما نشف دمي. البريـد يتـأخر بصورة لم أكن أتوقعها أشتاق إليك بدرجة لا يمكن أن تتصورها. أفكر فيك طول النهار وأحاول أن أتخيل ماذا تفعل في القاهرة في كل لحظة. أين أنت؟. أتخيل خط سيرك اليومي. موعد استيقاظك، موعد نزولك للشركة. أتصورك وأنت في المكتب، أثناء عودتـك إلى البيت، في المساء أخمن، تُرى أين أنت؟... هل أنت خـارج البيت؟. هل ذهبت إلى نايت آند داي، مكانك المفضل؟... وهكـذا حتى أستسلم للنوم.

أرجو أن تكون قد اعتمدت شهادات التخـرج وأرسـلتهم إلي. ليتك تكون قد انتبهت إلى أن يكون اسمك ثلاثيـا فقـط فـي الشهادات وليس كاملاً، حتى لا تظهر أية مشاكل محتملة، وأنـت تعرف طبيعة المجتمع هنا. أتمنى أن أكون قد وفقت في التعبيـر بوضوح عما أفكر فيه، كما أن الشهادات باللغة العربية مفضلة هنا عن أن تكون باللغة الإنجليزية. إذا كانت الشهادات التي أرسـلتها خلاف ذلك، فأرجو أن تستخرج شهادات أخرى باللغـة العربيـة، ويكون اسمك فيها ثلاثيا فقط، يعني سعيد رمـزي نجيـب فقـط. أرجو أيضا أن تحاول ترتيب نفسك للسفر من الآن، حتى تكـون

مستعدا تماما عندما يحين موعد سفرك. أعنـي أن تبـدأ بشـراء الأشياء الضرورية التي تحتاجها للسفر. أقترح أن تبـادر بشـراء أقمشة بنطلونات وتعطيها للترزي لتفصيلها، حتـى لا تتعطـل إذا وفقنا في الحصول على عمل سريعا. شرشر يتوقع أن نوفق فـي الحصول على عمل في خلال شهر تقريبا من وصول الشهادات.

شرشر ترك بيته الذي كان يسكن فيه وانتقل إلـى فـيلا بمنطقة سكنية هادئة اسمها مدينة الحدائق تشبه المعادي إلى حـد كبير. الحياة هنا سهلة وبسيطة. شرشر له صديق يعمـل بشـركة سيارات عندها توكيل ماركة سيارات جميلة اسـمها Sunbeam، أعجبتني جدا. قالوا لي إننا نستطيع شراء سـيارة آخـر موديـل بالتقسيط بمجرد وصولك. لو كنت قد اشتريتها بمجرد حصـولي على عمل، لكني أفضل أن نركبها معا في البداية ثم تعلمني أنـت القيادة. لا تنس أن تستخرج رخصة قيادة دولية.

لك أشواقي الكثيرة وحبي.. أرجو أن تبلغ سـلامي لكـل الناس في القاهرة... القاهرة وشبرا خصوصا... من الصعب على المرء فعلاً يا سعيد، الشعب المصري خامة ممتازة... عظيمـة... شعرت بذلك فقط بعدما سافرت... فهمت معنى أن تكون لشـعب حضارة قديمة... طبعا أنا أحكم من خلال تجربة صـغيرة ومـدة قصيرة... لكن مصر أم الدنيا فعلاً... طبعا يمكن أن تضحك علي

وتقول إن هذا الكلام مبعثه الحنين أو إحساس الغربة... قـل مـا تشاء... سيظل رأيي في كل لحظة في حياتي.

سعيد العزيز

انتظر منك خطابا بسرعة، وأرجـو أن يكـون خطابـك طويلاً ومفصلاً... تكتب فيه كل شيء، عنـك وعـن مشـاعرك وأحاسيسك وأفكارك وخلجات نفسك جميعا. لا تبخل علـي بهـذا الطلب، فأنت أبو الكرم كله... قبلاتي وأشواقي وإلى لقاء قريب.

نبيلة

(١٤٠)

عزيزتي نبيلة

قبلاتي الحارة أبعثها لك وكلي حنين واشـتياق لرؤيتـك الخطابات تتأخر فعلاً في الوصول. حسبت المدة التي يسـتغرقها فوجدتها تفوق الأيام العشرة. اعملي حسابك على ذلـك حتـى لا تقلقي.

مرفق مع رسالتي شهادات التخرج الخاصة بي وبك بعـد اعتمادها من وزارة الخارجية والسفارة الليبية بالقاهرة. شـهاداتي الاسم فيها ثلاثي، فعادتي منذ الصغر استخدام الاسـم ثلاثيـا... الحمد لله على ذلك، فلن نحتاج للانتظـار لاسـتخراج شـهادات أخرى... يبدو أن جدي الأكبر سيؤرقني بعض الشيء.

كيف حالك؟... أشـتاق لرؤيتـك جـدا. ومعاكسـاتك... وعاجبك ولاّ لأ... والكثير من لمحاتك وقفشاتك... اكتبي لي كيف تقضين وقتك بالتفصيل؟... هل تعرفين أنني أشعر بنفسي كضيف في القاهرة، طالت مدة غيابه ووجب أن يرجـع إلـى طـرابلس، فالأعمال والبيت يجب أن يطمئن عليهم... والمدام زمانها زهقـت لوحدها.

مبروك الفيلا الجديدة. على فكرة. أريد أن أسـألك، هـل يمكن إرسال التلغرافات على عنوان صـندوق البريـد؟. أرجـو إبلاغي لأنني غير معتاد على حكاية صندوق البريد هذه.

إيه العز دا يا بولة... Sunbeam حتى واحدة؟... طيـب نقول فيات الأول مثلاً أو حاجة متواضعة قليلاً... ربنا يسـهل... سأستخرج طبعا رخصة قيادة دولية. سألت فقيل لي مـن نـادي السيارات. أريد أن أعرف، هل احتمال توفيقنا في الحصول علـى عمل يعتبر احتمالاً كبيرا؟... بدأت أقلق عندما أفكر في الأمر.

الأخبار بمصر وبشبرا عادية. الأحداث اليومية الروتينية. نادر يرسل لك السلام. لا يوجد الكثير الذي أستطيع أن أكتبه عن مشاعري وأحاسيسي وأفكاري وخلجات نفسي كمـا طلبـت. مـا حكاية خلجات نفسي هذه؟... دمها ثقيل حبتين... لذلك لن أحكـي لكِ عنها... هاها. مشاعري مختلطة وأحاسيسـي مرتبكـة أمـا أفكاري فيه في غاية التشويش... أفكر فيكِ على الـدوام وأعـيش بروحي معك في طرابلس رغم وجودي الجسدي في القاهرة.

قبلاتي وأشواقي لكِ وأطيب تمنياتي لشريف وكريمة مـع محبتي.

سعيد

(١٤١)

بعد أن توسط حسين صديق سالم له للعمل بالشركة التـي يعمل بها، تم تعيين سالم في وظيفة كتابية بالأرشيف. بـدأ سـالم يحل على الحجة فريدة لتوافق على زواجه من نفيسة أخت حسين. ثارت عليه الحاجة فريدة وهي تقول:

- هل تستطيع أن تفتح بيتا يا عويل؟

قال لها سالم بمسكَنَة:

- نسكن معكِ في البداية إلى أن تتحسن الأحوال.

سألته الحاجة فريدة بنفاد صبر:

- وكيف ستتحسن الأحوال؟

أجابها سالم:

- نفيسة ستحصل على دبلوم التجارة هذا العام. سـتعمل وتساعدني. لا أستطيع أن أعيش بدونها.

قالت الحاجة:

-انتظر حتى تنتهي من دراستها أولاً.

قال سالم:

- أخطبها الآن والزواج بعد الشهادة.

أجابته الحاجة بحزم:

- لن يحدث شيء قبل أن تنهي دراستها.

- أخطبها الآن والزواج بعد الشهادة.

أجابته الحاجة بحزم:

- لن يحدث شيء قبل أن تنهي دراستها.

(١٤٢)

عزيزي سعيد

لا تمر لحظة من النهار أو الليل دون أن أفكر فيك. لقـد استعمرتني تقريبا. أحيانًا ألعن الحب الذي مسح نافوخي وأجهـز على شخصيتي. لك وحشة كبيرة. أحيانًا أتمنى لو أستقل الطـائرة إلى القاهرة لمدة ساعة واحدة لأراك ثم أعود مرة أخرى.

ترانزيت يعني. لولا التكاليف التي لا أقدر عليهـا لكنـت فعلتها.

وصلت الشهادات وبدأ شرشر مسـاعيه لـدى أصـدقائه للبحث عن عمل لكلينا. قل يارب. شرشر محبوب هنا وله معارف كثيرون من أهل تلاميذه في المدرسة. تلاميذه يعشقونه لأنه يعمل كمرب بجد وليس كمدرس فقط. يرتب أحيانًـا رحـلات لتلاميـذ فصله ويقضي النهار معهم. يشجعهم علـى القـراءة وممارسـة الهوايات.

تسألني كيف أقضي وقتي بالتفصيل، شُـف يـا سـيدي، أستيقظ حوالي الثامنة صباحا. أشرب الشاي ثم أفطر في التاسعة. أشارك كريمة بعد ذلك في الأعمال المنزلية، بعد ذلك أقرأ حتـى موعد الغداء. أحيانًا أدخل المطبخ مع كريمة، على فكرة كريمـة طباخة ماهرة وتعلمت منها بعض الأصناف. يعني لن تجوع بعـد

الزواج. بعد الغداء ننام القيلولة ثم أستيقظ حوالي الخامسة. أعاود القراءة مرة أخرى. أقرأ كثيرا هذه الفترة. أنهيت روايـة عناقيـد الغضب لشتاينبك. رواية أكثر من رائعة، هزتني مـن الأعمـاق. مكتبة شريف عامرة ما شاء الله. أقرأ الآن كتاب سندباد مصـري للدكتور حسين فوزي وهو كتاب شيق جدا. أشارك كريمة أحيانًـا في الخروج بعد الظهر. نذهب إلى السينما أو نخرج فـي نزهـة بالسيارة بصحبة شريف. أنام عند منتصف الليل. هـذا وصـف تفصيلي ليوم من أيام نبيلة فهمي عبد الفتاح في مدنية طرابلس.

كنت أريد منك شراء بعض الأشياء اللازمة من القـاهرة قبل حضورك وبعض الهدايا لشرشر وكريمة. أدون كل ما أتذكره حتى لا أنسى شيئًا. هل تفضل أن أرسل لك قائمة المشتريات الآن أم نؤجلها حتى يتحدد سفرك؟ أفضل أن أرسلها لك فـي خطـابي القادم حتى تشتريها على مهل بدلاً من ارتباك ما قبل السفر.

ما أخبار حموضة معدتك؟. هل مازلت تشـكو منهـا؟... أرجو أن تستشير طبيبا قبل حضورك حتى نطمئن.

الشيء الذي أرجو شراءه من الآن هو الأسطوانات. أرجو أن تنتقي مجموعة من الأسطوانات الكلاسيك من مكتبة الشرق. لا أعتقد أن أسطوانات الموسيقى الكلاسيك متوافرة هنا بتنوع جيـد وسعر معقول. كنت قد سألتني إذا كانت البرقيـات تصـل علـى عنوان صندوق البريد أم لا. أي شيء يمكن إرساله على عنـوان

صندوق البريد. الرسائل والبرقيات والطرود. سألتني أيضا عـن احتمال حصولنا على عمل وهل هو احتمال كبير أم لا؟

طبعا لا أستطيع أن أعطيك إجابـة شـافية. الاحتمـالات معقولة حسب رأي شرشر. ربنا يسهل.

قبلاتي الحارة وأشواقي الكثيرة أبعثها إليك وإلى اللقاء.

نبيلة

(١٤٣)

- الحقي يا ستي. مسيو هايج تعيشي أنتِ.

طرقت زينب ابنة عم السيد البواب أبواب العمارة، تبلـغ الجماعة بنبأ وفاة مسيو هايج المفاجئة وهي في اضطراب عظيم. دخلت مدام أنوش لإيقاظه من نوم القيلولة ليـذهب إلـى عملـه فوجدته قد فارق الحياة. ممات وهو نائم. هزته عدة مـرات فلـم يستجب. نادت على أناهيد منتحبة تستنجد بها. لم يكن زاريه قـد حضر من الشركة بعد. صرخت أناهيد وجرت إلى شقة جـارتهم الست أسماء أم مازن تستغيث بها باكية. قابلت زينب نازلة الدرج، التي صرخت بمجرد سماعها الخبر واستدارت عائدة تطرق أبواب الجيران لتبلغهم بالخبر المشئوم.

امتلأت شقة مدام أنوش بسكان العمارة. أحضرت الست أم مازن كراسي بيتها ونزلت صف صف وصـالح بكراسـي شـقة الحاجة فريدة. أحضرت صباح بقية الكراسي مـن شـقة السـت عائشة. صفت الكراسي بالصالة وبالغرفة المقابلـة لـه. جلسـت الحاجة فريدة والست بطة بجـوار مـدام أنـوش يحيطـان بهـا ويواسيانها. دخلت الست عايدة رزق الله لعزاء مدام أنوش. سلمت على الجماعة وعند مصافحتها للست عائشة سحبتها الست عائشة إليها لاحتضانها. تمنعت للوهلة الأولى ثم استسلمت لها. احتضنتها

الست عائشة بحنان وربتت عليها. بكت الست عايدة طويلاً وهـي مستسلمة لحضن الست عائشة. لم يكن واضحا، هل تبكي السـت عايدة على وفاة مسيو هايج أم أنها استرجعت أحزانها بفقدها لابنها سعيد كما تعتقد. انهمك الجميع في واجب العزاء وتولـت السـت أسماء عمل القهوة بالبن المحوج في شقتها المقابلة. قامت صـباح ووهيبة بالمرور بصواني القهوة على المعزين.

دخل زاريه عائدا من الشركة فأخذته الصدمة من منظـر الشقة وهي تمتلئ بالمعزين. لمح أمه وأخته قامت الحاجة فريـدة لعزائه ففهم منها أن خاله المسجي فيها جثمانـه مغطـى بمـلاءة بيضاء. رفع طرف الملاءة عن وجه خاله ونظر إليه مليا. كـان هادئًا مطمئنًا للمرة الأولى. فرت دمعة من عين زاريه، العـارف لفضل خاله في مساعدة أمه على تربيته هو وأخته أناهيد بعد وفاة والده. أعاد الغطاء مرة أخرى بهدوء واستدار مغادرا الغرفة. في اليوم التالي تم دفن جثمان مسيو هايج بمقابر الأرمن وتقبـل فيـه سكان العمارة العزاء بعضهم من بعض.

(١٤٤)

عزيزتي نبيلة

يتكرر أن أفتح درج مكتبي وأسحب منه المظروف الـذي أحتفظ فيه بخطاباتك، وبصورنا التذكارية معا. الكارت الذي كتبته لي عشية سفرك. أقرأه مرة. أقلب في الصور مـرات. تـدفعني رغبة عارمة لا تقاوم أن أراكِ... نتسـامر معـا... نصـمت... نصخب... أن تُخرجي لي ما في جعبتك من الشيكولاتة... ألتهمها كلها... ثم أسرع بعيدا بأفكاري... أعدد الكثيـر مـن اللمحـات المشتركة بيننا... يتدافع إلى ذهني شريط الأحـداث الأخيـرة... أتذكر الخطوات والإجراءات التي أتممتها، والتي مازلت بصـدد إتمامه... ما ينبغي تخطيه من مراحل قبل أن نلتقي، فأشتعل تطلعا وقلقًا واشتياقًا... الزمن يمر غاية في البطء والبرودة... واللامبالاة بالبشر.

تقولين لي إنك أتممت قراءة شتاينبك وتقرئين الآن سندباد مصري... يا بختك... أنا لا أقرأ شيئًا سوى العناوين العريضـة للصحف، وبعض لافتات المحلات أثناء انتقـالاتي فـي شـوارع القاهرة. لا أملك أي تركيز ذهني، وقتي مشغول جـدا بالمشـاكل والإجراءات واستخراج الشهادات واعتمادها، إلى جانـب العمـل بالشركة. بالنسبة لموضوع معدتي، فقد حجزت موعدا يوم الجمعة

لعمل أشعة باريوم بمستشفى دار الشفاء. سأبلغك بالنتيجة بعـدها. يستحسن أن ترسلي لي قائمة المشتريات التي تحتاجينها مـن الآن حتى أقوم بشرائها على مهل، بالنسبة للأسطوانات الكلاسيك، فقـد تطوع الأصدقاء بشرائها لي كهدية زواج. نادر يرسل لك سـلاما حارا ويتمنى لك التوفيق في إيجاد العمل بسرعة.

أتحرق شوقًا لرؤيتك. ما أخبار مساعي البحث عن عمل؟ ألا توجد بادرة أمل بعد؟. يتزايد قلقي جدا مـع مـرور الأيـام. للأسف الشديد، توفي مسيو هايج أخو مدام أنوش فجأة وهو نـائم. اكتشفت مدام أنوش موته وهي توقظه بعد نوم القيلولة. علمت أن والدتك سلمت على ماما في العزاء بحرارة واحتضـنتها طـويلاً. الجليد يذوب تدريجيا.

محبة وأشواقًا وقبلات حارة أبعثها إليـك وفـي انتظـار خطابك بشغف واشتياق. قبلاتي وأطيب تمنيـاتي لـكِ وسـلامي لشريف وكريمة.

سعيد

(١٤٥)

فقدت مدم هيلينا نضارتها تماما بعد حادثة وفـاة ابنتهـا ستاسيا. استسلمت للشرود الدائم. تجلس بمفردهـا سـاهمة فـي غرفتها معظم الوقت. لا تميل إلى التحدث وترد بإجابات مقتضبة دائما على الأحاديث الموجهة إليها. ازداد وزنها بشكل ملحوظ ولم تعد تهتم بزينتها ومظهرها. كانت الخالة فاطمة وزينب تزورانهـا بانتظام. يتذكرن ستسايا وأيامها ويأخذن في البكاء. تتناوب علـى زيارتها الحجة فريدة والست بطة وإلين. يحاولن جميعا أن يسرين عنها بشتى الطرق دون استجابة منها. لعن صالح حظـه العـاثر الذي أفقده مدام هيلينا بموت ستاسيا. عانده القدر فـاختطف منـه الكنز الذي عثر عليه واستعان به على كبته ومراهقتـه البائسـة. أصبحت مدام هيلينا بعد الواقعة هرمة بدينة ذاهلة، بعد أن كانـت شعلة من الحيوية والنضارة والإقبال على الحياة. انطفأت المـرأة تماما بعد وفاة ابنتها الأثيرة لديها.

(١٤٦)

عزيزي سعيد

أزف إليك نبأ الموافقة على تعييني سكرتيرة بشركة تحتاج إلى إجادة اللغة الفرنسية. سأتبع برقيتي هـ ـذه بخط ـاب مفصـ ـل. مبروك لنا.

نبيلة

(١٤٧)

سعيد الحبيب

لا أستطيع أن أتمالك نفسي من الفرحة. أتقافز وأدور حول نفسي من فرط السعادة. أخيرا ستتحقق خطتنا كما رسمناها بمنزل خالي شريف أثناء زيارته للقاهرة. تلك الزيارة التي غيرت مجرى حياتنا. شُف يا سيدي.

كنت قد قدمت عدة طلبات للعمل ببعض الشـركات التـي يعرف شرشر أصحابها أو بعض المسئولين بها. قدمت كذلك طلبا للعمل مدرسة فرنسي بمدرسة أجنبية للأطفال. اليوم أبلغني شرشر بقبولي للعمل كسكرتيرة بشركة تقوم بتمثيل مجموعة من الشركات الفرنسية كوكيل لها، أن الشركة تحتـاج إلـى سـكرتيرة تجيـد الفرنسية. يجب أن نحرك الآن بسرعة. إجـراءات الإقامـة هنـا صعبة بالنسبة للمرأة غير المتزوجة. يسـهل الأمـور كثيـرا أن نتزوج بسرعة. لذلك أرجو أن تقوم بعمل توكيل لخالي شـريف، لإتمام إجراءات الزواج بالتوكيل. اسم خالي الكامل هو، شـريف محمد عبد الحليم، جواز سفر مصـري رقـم ٣٢٧٢٦. وتكـون صيغة التوكيل كالتالي:

وكلت أنا سعيد رمزي نجيب، السيد/ شريف محمد عبـد الحليم، جواز سفر مصري رقم ٣٢٧٢٦ أو من يوكلـه، تـوكيلاً

خاصا في زواجي من ابنة أخته الآنسة البكر نبيلـة فهمـي عبـد الفتاح.

ويجب أن يكون بهذه الصيغة بالضبط، لأن خالي سيكون وكيلاً لي، وسيقوم بتوكيل شخص آخر ليكون وكيلاً لك.

سوف يقوم شرشر بعمل دعوة لك وإرسالها على السفارة الليبية بالقاهرة حتى نكسب الوقت.

أرجو إرسال توكيل الزواج بأسرع ما يكن، كما أرجو أن تستخرج الباسبور إذا كنت لم تستخرجه بعد وتقدم علـى تأشـيرة خروج للسياحة.

الأشياء التي أريدك أن تحضرها معك بترتيـب أهميتهـا كالتالي:

١- بدلة جديدة سوداء كحلي لك للمناسبات الرسمية.

٢- غيارات داخلية لك.

٣- بيجامات، واحدة شتوية شيك وأخـرى صـيفية علـى الأقل.

٤- حذاء جديد أو اثنان.

٥ – لا تكثر من شراء القمصان. يكفـي مـا عنـدك، لأن القمصان هنا من النوع الذي لا يكوى، والكوة هنا غالية جدا. الكل يكوي في بيته.

٦- روب دو شامبر لك.

٧- طقمين ملايات سراير من الصالون الأخضر.

٨- فوطة وجه.

٩- شنطتان لونهما أسود لي. واحدة سبور والثانية عادية.

١٠- حذاء أسود لي مقاس ٣٨.

١١- مجموعة كتب.

١٢- هدايا لشريف وكريمة على ذوقك.

جاءتني فكرة وأريد أن أناقشها معك. هل يمكن أن تتحـدث مع شركة لوفتهانزا، وتقترح عليهم نقلـك إلـى فـرع الشـركة بطرابلس؟ احتمال أن يوافقوا فتكون مشكلة العمل لك قـد حلـت. على العموم فكر في الاقتراح. أتركك الآن وإلى لقاء قريب.

نبيلة

(١٤٨)

كان القدر كريما مع سكان العمارة فأهداهم صالح الصـغير طفلاً وليدا، عوضا عن الراحل مسيو هايج. شعرت زينب ابنة عم سيد البواب بأعراض الولادة. أرسلت الخالة فاطمة ابنهـا علـي ليستدعي الحاجة بهجة القابلة. كانت ولادة سهلة. في اليوم التـالي حدث خلاف حول تسمية الوليد. أبوه مصطفى يريد تسميته علـى اسم الكابتن الضظوي، ثعاب الملاعب. الخالة فاطمة لـم يعجبهـا الأمر ونهرته، قالت له إيه العبط دا، تريد أن يناديه العيـال فـي الشارع تعال يا ضظوي... روح يا ضظوي... شُف اسم لاعـب آخر يكون معقولاً. انتهى الأمر. برضوخ مصطفى واختيار اسـم صالح، تيمنا بالكابتن صالح سليم. وافقت الخالة فاطمة على اسـم صالح وقالت هذا اسم مبروك، على اسم النبي صالح.

نظر مصطفى بأسى إلى صورته هو والكـابتن الضـظوي بجوار راية الكورنر، والمعلقة على الحائط بالقرب مـن الراديـو وهز رأسه متعجبا من جبروت الخالة فاطمة.

(١٤٩)

سارت الأمور سيرا حسنًا في حكاية نبيلة وسعيد. صالحهم الحظ بعد معاناتهم الطويلة. أرسل سعيد توكيل الزواج المعتمد إلى شريف، الذي قام بإتمام إجراءات الزواج بالتوكيل. أصبح سـعيد ونبيلة زوجين أخيرا. أنهت نبيلة إجراءات إقامتها وتسلمت عملها. بعد استلامها العمل بفترة وجيزة، نجح شريف في الحصول على عقد عمل لسعيد كمحاسب بشركة مقاولات ليبية بطرابلس.

بدأ سعيد يعد نفسه للسفر، وأخذت نبيلة تسعى في البحـث عن مسكن لهما. قبل وصول سعيد، كانت نبيلة قـد وفقـت فـي الحصول على شقة بالقرب من سكن شريف بمدينة الحدائق. شقة بالطابق الأول من بناية تتكون من طابقين، ثلاث غرف وصـالة ومنافعهم، تطل على حديقة صغيرة محيطة بالمنزل.

وصل سعيد أخيرا وكان اللقاء حارا بالمطار. انتظرته نبيلة بصحبة شريف وكريمة. توجه الجميع إلى منزل شريف للاحتفال بوصول سعيد وزواجه من نبيلة. وصلوا إلى منزل شريف قبـل العاشرة مساء بقليل واستمر احتفالهم الصغير إلى ما بعد منتصف الليل. قام شريف بعده بتوصيل سعيد ونبيلة بسيارته إلـى بيتهمـا الجديد، والذي كانت نبيلة قد قامت بتجهيزه تجهيزا متواضعا على وجه السرعة ليبدأ فيه حياتهما. اقترضت من شريف مبلغًا اشترت

به لوازمهما الأساسية، سرير ودولاب صـغير، بالإضـافة إلـى بوتاجاز صغير وسخان كهربائي. أجلت شراء الثلاجـة، الوقـت شتاء ويكن الاستغناء عنها في البداية. وصل سعيد بعد بداية العام الجديد بقليل.

بدأت بوصوله فصول حياة جديدة مليئة بالتفاهم والسـعادة. سيمضيان بليبيا ثمانية أعوام. سيرزقان بفريدة وكريم. سـيعودون جميعا إلى مصر عندما تصل فريدة إلى سن الدراسة. سـيدخران مبلغًا من المال يمكن سعيد من تأسيس شركة تجاريـة بمصـر، بالتعاون مع شركة إنجليزية، تعرف عليها سعيد بليبيا عندما كانت على علاقة عمل بالشركة التي عمل بها. اتفق سعيد مع الشـركة الإنجليزية قبل عودته على التعاون معا للعمل بالسوق المصـرية. شركة تنتج المعدات الثقيلة المستخدمة في أعمال المقاولات.

سارت حياة الأسرة سيرا موفقًا وساعدت الأيام على نسيان الآلام التي تكبدتها الأسرتان، أسرة الست عائشة وفهمي أفنـدي، وأسرة الست عايدة زرق الله، لم يكن الأمر سهلاً بطبيعة الأحوال، لكن مثابرة سعيد ونبيلة مع الأسرتين، ومـيلاد الأحفـاد، فريـدة وكريم، تكفلا بمسح أحزان الماضي وإشباع المستقبل بالأمل.

(١٥٠)

بدأت الحياة تعود إلى إيقاعها المعتاد بعد سفر سعيد إلى ليبيا وإتمام زواجه من نبيلة. انتظمـت المراسـلات بـين طـرابلس والقاهرة. ألانت الغربة القلوب وأججت مشـاعر الحنـين فتسـيد التسامح. بدأت نبيلة في الكتابة إلى الست عايـدة زرق الله وإلـى آمال. ولها رد متحفظ من الست عايدة في البداية، سـرعان مـا تخلت الردود عن تحفظها في الخطابات التالية. واظبت آمال على مراسلة نبيلة وسعيد. بدأت نبيلة تستعين بشـهامة السـت عايـدة وأخذت تطلب منها في خطاباتها وصفات الطعام التي اعتاد عليها سعيد في بيت العائلة ويشتهيها من آن لآخر. أرسلت الست عايدة وصفات الطعام الأثيرة لدى سعيد. كانت معلومات نبيلة في الطهي محدودة استعانت بكتاب أبلة نظيرة في البداية، إلى جانب وصفات الست عايدة التي ترسلها لها فـي خطاباتهـا. تواصـلت أيضـا خطاباتهما إلى الست عائشة وفهمي أفنـدي، اعتـادا أن يراسـلا مجدي بغض النظر عن انتظامـه فـي الكتابـة لانشـغاله فـي البكالوريوس ومشروع التخرج.

(١٥١)

شارف العام السادس على الانتهاء. انهمك مجـدي ورورو في الاستعداد لامتحانات التخرج. كلاهما يتوق إلى الانتهاء مـن دراسته وبدء حياته العملية. مجدي يخطط للسفر إلى إنجلترا. اتفق مع صديقه جورج، الذي يعمل بلندن مذ ترك الدراسة فـي كليـة الحقوق قبل ثلاث سنوات، على السفر إليه بمجرد ظهور نتيجـة الامتحانات. كان جورج قد رسب في السنة الأولى بكلية الحقـوق عامين متتاليين، استغلقت عليه دراسة الحقوق. سافر إلى لندن في الإجازة الصيفية ولم يعد منذ سفره. راقت له الحياة هناك. تنقـل بين العديد من الوظائف البسيطة واستقر به المقام في وظيفة طـاهٍ "شيف" بسلسلة مطاعم Pizza Land. استأجر شقة صغيرة فـي Earl's Court في عمارة يتجمع فيها الشباب المصريون الـذي يعملون في pizza Land، والشابات الأستراليات اللاتي يعملـن بنفس السلسلة كجرسونات. يعيش جورج منذ فترة مـع صـديقته جين الأسترالية، والتي استقر عليها بعد رحلة شقاوة طويلـة مـع بنات لندن.

كان رورو أفضل حظًا. له قريب لأبيه يمتلك مكتبا هندسيا كبيرا ببيروت وله فروع متعددة بالبلاد العربيـة. فـي زياراتـه المتعددة للقاهرة، وعد رورو بإلحاقه بمكتبـه ببيـروت بمجـرد

تخرجه. المكتب به عدد كبير من المهندسين ويحتاج إلى المزيـد، نظرا لتوسع أعماله في السعودية ودول الخليج. فرصـة سـانحة للعمل بالخارج بعقد عمل مضمون بمكتب أحد أقربائه. فرصة قلما تسنح لخريج جديد. وأين؟... في بيروت... أشعلت هذه الفرصـة الحماسة والهمة في نفس رورو ودفعته إلى احتمال الملـل الـذي يعتريه سريعا من جراء الدراسة والاستغراق في همومها. ها هي الامتحانات على الأبواب، خطوة بسيطة وينتهيان مـن الدراسـة أخيرا، يبدآن بعدها في تحقيق آمالهما بالسفر والانطلاق.

(١٥٢)

تمت الموافقة على هجرة زاريه إلى أمريكا. بدأ في تجهيز نفسه للسفر، بينما انهمـك مجـدي ورورو فـي أداء امتحانـات البكالوريوس. استخرج زاريه عدة نسخ مـن شـهادات التخـرج وشهادات التقديرات التفصيلية للعلوم المختلفة باللغـة الإنجليزيـة وقام باعتمادها جميعا من وزارة الخارجية ومن السفارة الأمريكية بجاردن سيتي. بدأ في شراء احتياجاته الأساسـية لفتـرة إقامتـه الأولى بأمريكا لحين استقراره وحصوله على عمل مناسب. يجب أن يكون مجهزا بكل ما يحتاجه، حتى لا يضطر إلى الشراء هناك واستنفاد نقوده. يجب أن يحاول المحافظة على المبلغ الذي سيأخذه معه لأطول فترة ممكنة حتى يحصل على عمل هناك يتكسب منه.

قرر زاريه أن يرجئ موعد السفر لحين انتهـاء مجـدي ورورو من تقديم مشروع التخرج حتى يتمكن من معاونتهما فـي إنهاء المشروع. كان قد أنهى استعداداته للسفر قبل موعـد تقـديم المشروع بأسبوعين. حدد موعد سفره بعد تقديم المشروع بثلاثـة أيام. أراد أن يقضي هذه الأيام الثلاثة معهما بعد أن يفرغـا مـن تقديم المشروع ويتفرغا له. من يدري؟... متـى سـيلتقون مـرة أخرى... سيكون زاريه في أمريكا ومجدي في لندن ورورو فـي بيروت. ترى متى ستسمح ظروف العمل والحياة، بـأن يجتمـع

الأصدقاء الثلاثة، الذي شبوا معا بشارع الزهور، بحـي شـبرا، وقضوا فترة الصبا والشباب والدراسة معا؟... يشتركون في الجد واللهو ومواجهة الحياة... قد لا يلتقون مرة أخـرى... احتمـال قائم... تسحبهم دوامة الحياة فينهمكـون فـي أمـاكنهم الجديـدة ومشاغلهم الجديدة، علاقاتهم الجديدة وأيامهم المقبلة بأناسها الجدد. فصل جديد من حياتهم يوشك على الابتداء. لكنه فصـل يسـتهل بالرحيل، رحيلهم جميعا.

(١٥٣)

أخيرا تمكن مجدي ورورو من إنجـاز مشـروع التخـرج بمساعد زاريه وتسليمه إلى الكلية في الموعد المحـدد. لا يتبقـى سوى انتظار النتيجة وبعدها يتم الإقلاع إلى دنيا الله الواسعة.

احتفل الأصدقاء الثلاثة بمناسبة انتهـاء الدارسـة وتسـليم المشروع احتفالهم التقليـدي. ذلـك الاحتفـال الـذي سـيقومون بممارسته للمرة الأخيرة. سهرة سينما الجندول الصيفية. لا يهـم ماذا تعرض من أفلام. الذي يهم هو الطقس وممارسته. الاستمتاع بالصحبة في الهواء الطلق. السميط والجبنة الرومي والكـازوزة. العودة آخر الليل متهادين مع نسمة الليل الصيفية المنعشـة، بعـد شرب العصير من محل عم حسنين. لا يتبقى سوى ثلاثـة أيـام يقضونها معا قبل رحيل زاريه في رحلة الهجرة إلى أمريكا. قال لهم زاريه وهو يودعهم:

- لا أستطيع أن أتصور أنه لم يتبق لي سوى ثلاثة أيام فقط في شبرا.

(١٥٤)

المكان، اللسان، على شاطئ النيل القاهرة، بجـوار ثلاجـة البيرة. الزمان، ليلة رحيل زاريه. مجدي ورورو وزاريه يجلسون على السور الحجري. يطلبون ثلاث زجاجات بيرة ستلا مثلجـة. تحضر الفتاة وتفتحها لهم. يرفعون الزجاجات ويقرعونها بصوت رنان... في صحة آخر ليلة لنا معا... في صحة المستقبل... فـي صحة زاريه... من على البعد يجيء صوت الست أم كلثوم مـن المذياع الترانزستور الصغير لبائعة البيرة وهي تشدو:

وغدا تأتلف الجنة أنهارا وظلا

وغدا ننسى فنأسى على ماضٍ تولّى

قال زاريه مناجيا نفسه:

- لا أستوعب الحدث بعد. أول مرة أسافر وأغادر مصـر. لا أدري إذا كنت سأحتمل الهجرة إلى الأبـد. ترعبنـي معانـاة الحنين. أشعر أنني كالسمكة. إذا خرجت من شبرا فسوف تهلك.

هب رورو صائحا لينهي تلك النغمة المفعمة بالحنين:

- شبرا إيه وخيبة إيه يا أخي. أنت ستعيش في أمريكا يـا مغفل.

سأله زاريه مفاجئًا إياه:

- هل تحب أن تعيش في أميركا يا فالح؟

أجابه رورو مناورا:

- أمريكا في آخر الدنيا... أنا في بيروت سيكون بيني وبين مصر ساعة واحدة بالطائرة.

تدخل مجدي في الحديث قائلاً:

- من الأفضل أن نفكر في المستقبل... في خلال أقل من شهر، سيكون كل واحد منا في بلد مختلف. لا تتكلموا عن الحنين قبل أن نبدأ. تكلموا عن الأمل في النجاح. أنا شخصيا أسوأ وضع فيكم. سأسافر إلى لندن بدون عمل، أوافق على أن أعمل أي عمل متواضع لحين التوفيق في العمل كمهندس. قد أحتاج لبعض الدراسة لمعادلة الشهادة، مع ذلك عندي أمل كبير في التوفيق.

علق زاريه متعجبا:

- وجهة نظرك عجيبة يا مجدي. من المعروف أن العمل كمهندس صعب جدا في أوربا بالنسبة للعرب. الفرص المعقولة المتاحة تنحصر فقط في الهجرة أو في العمل بالبلاد العربية. أنت تختار طريقًا خياليا.

أوضح له مجدي قائلاً:

- لابد أن نحلم. بدون الحلم لا طعم للحياة. أمنية قديمة عندي أحلم بتحقيقها... أن أعيش فترة من حياتي في أي بلد أوربي... أوربا هي الحضارة الحديثة الممتزجة بالتمدن والفنون والأصالة. بلاد استفادت من حضاراتنا القديمة وبنت عليها. بلاد

لها نكهة وتاريخ. أنا لا تناسبني الهجرة إطلاقًا. لـن أنجـح فـي حياتي إذا كان علي أن أهاجر. من المؤكد أنني سأفشـل. أنـا لا أخطط للعيش خارج مصر بقية حياتي. أريد أن أستقر في مصر.

سأله زاريه:

- وماذا عن البلاد العربية، العمل متاح وتستطيع أن تدخر للمستقبل بسهولة؟

- أريد أن أحيا في بلاد تتنسم الحرية وتـنعم بهـا، بـلاد ديمقراطية يحترم فيها الإنسان وحقوقه. قل لي بالله عليك، أي بلد عربي ينعم بالديمقراطية؟... أي بلد عربي يحترم حقوق الإنسان. بلادنا العربية محكومة إما بالعشائر أو بالعسكر، مليئـة بالفسـاد والطغيان. لا تأمن على نفسك فيها ولا تسـتطيع أن تعلـن عـن رأيك. إذا اختلفت عن النغمة السائدة فستدان إما بالخيانة العظمـى أو بالكفر. أنا أريد أن أستمتع بحياتي في بلد حـر ولا أريـد أن أكون جامعا للنقود في بلد متخلف سياسيا وحضاريا.

صاح رورو محتجا:

- ما هذا الكلام الكبير؟... يكفينا كلام جاد. جئنـا لنـودع زاريه ولنقضي وقتًا ظريفًا وليس لنتحدث في السياسة.

قال مجدي لزاريه:

- من الضروري أن ترسل لنـا خطابـا بـالعنوان الـذي سنراسلك عليه بمجرد وصولك. يجب أن يكون معنا عنوانك قبـل سفرنا.

- سأكتب لكم فور وصولي. إذا لم أستقر على سكن بسرعة فسأرسل لكم عنوان أحد أقاربي هناك لتراسلوني عليه.

طلبوا ثلاث زجاجات أخرى من البيـرة وهـم يتجـاذبون أطراف الحديث، حديثهم الأخير قبل الافتراق. نهضوا للانصراف قبل منتصف الليل بقليل حتى يستطيع زاريه أن يأخذ قسـطًا مـن الراحة، قبل موعد طائرته في الصباح.

(١٥٥)

في تمام الساعة السادسة صباحا، وصل زاريه إلى مطـار القاهرة الدولي مع مدام أنوش وأخته أناهيد، يصـاحبهم مجـدي ورورو والخالة فاطمة زوجة عم سيد البواب، والتي أصرت على وداع زاريه بالمطار.

كان الوداع دافئًا، يشوبه قدر من الحـزن والخـوف مـن المجهول. انقباض داخلي يشعر به الجميع، كل بشكل يختلف عن الآخر. مدام أنوش وأناهيد يفارقهم زاريه العزيز على قلوبهم، بل هو أثمن من يرتبطون به في هذه الدنيا، وهو رجلهم الآن، مجدي ورور يفارقان صديق عمرهما، ومن يدري، متى سيلتقون مـرة أخرى؟ بل هل سيكتب لهم أن يلتقوا مرة أخرى؟. سؤال إجابتـه مبهمة وثقيلة على النفس. الخالة فاطمة تعتبـر أن جميـع أبنـاء العمارة هم أبناؤها شخصيا، وها هو أحد الأبنـاء علـى وشـك الرحيل. يقولون هجرة... إلى بلاد غريبة... و... يا عالِم.

قالت مدام أنوش لزاريه:

- سأجهز نفسي من الآن للّحاق بك.

أجابها زاريه وهو يغالب دمعة أبت إلا أن تفر:

- سأرسل لكما لتلحقا بي بمجرد أن أرتب أمـوري. لـن أتأخر عنكما.

قال مدام أنوش والدموع تملأ عينيها:

- أول مرة تنام بعيدا عنا.

احتضنها زاريه وهو يربت عليها ثم احتضن أناهيد والخالة فاطمة. استدار رورو خجلاً وهو يبكي بصوت كالنحيب. سـحبه زاريه واحتضنه وهو يجهش بالبكاء. قال له بصوت خفيض فـي أذنه:

- ستوحشني يا ابن الكلب.

أنهى وداعه بمجدي ثم استدار بسرعة داخلاً إلـى سـاحة السفر. تقدم إلى مكتب شركة طيران TWA وسلم حقائبه. اسـتلم تذكرة الصعود إلى الطائرة ثم استدار ملوحا للجميع قبل أن يتوجه إلى شباك الجوازات. أنهى إجراءات المغادرة ودخل إلى السـوق الحرة.

بهرته وفرة بضائع السوق الحرة التي يراها للمرة الأولـى. عطور وساعات ونظارات وهدايا إلى جانب تشكيلة متنوعة مـن المشروبات الروحية والسجاير. لم يكن معتاد علـى رؤيـة هـذا الحجم من تنوع البضائع الأجنبية. عبر السوق الحر متئدا ليطلـع على المعروضات ثم توجه إلى الكافيتريا وطلب فنجان شاي. أخذ الفنجان وتوجه إلى إحدى الموائد المتنـاثرة كالمخَـدر. ارتشـف الشاي بحركة آلية دون أن يكترث لطعمه.

على جميع المسافرين على طائرة شركة TWA المتجهـة إلى نيويورك، التوجه إلى باب الخروج رقم ٤.

سمع نداء طائرته فنهض وتوجه مسرعا إلى باب الخروج. اتخذ مقعدا له في انتظار الإعلان عن التوجه للطائرة.

جلس بين المسافرين كالتائه. يشعر شعورا جديـدا عليـه. يشعر كمن يقف على الحدود. حدود تفصل بـين حيـاتين. حيـاة ماضية آمنة مطمئنة في شبرا. وحياة آتية مجهولة قلقة في أمريكا. ماضٍ ومستقبل. تاريخ ومشروع قـادم. تمامـا هـو الآن علـى الحدود. أُعلن عن التوجه إلى الطائرة فاصطف مع المسافرين أمام بوابة الخروج. راجع مسئول الجوازات الأوراق للمرة الأخيـرة. صعد إلى الأتوبيس الذي سيقل المسافرين إلـى الطـائرة. وقـف مشتت الذهن. توجه إلى سلم الطائرة وصعد بين المسافرين. نظر نظرة خاطفة خلفه إلى حيث مبنى المطار. استدار وابتلعه جـوف الطائرة.

(١٥٦)

ظهرت نتيجة البكالوريوس. نجح مجـدي ورورو بتقـدير جيد. فرحة كبرى عمت بيتي الست ماري خوري والست عائشـة لنجاح وحيديهما. كان رورو قد أعد نفسه للسفر إلى بيروت فـور ظهور النتيجة. تأهب للسفر وحجز تذكرة الطائرة بعـد ظهـور النتيجة بأسبوع. كان وداعا حميما بمنزل الست ماري خوري ليلة السفر. حضرت سيلفيا أخت الست ماري وأسرتها، كما حضـرت إيفيت وأنطوانيت، بقية شلة الكونكان، انضمت إلى حفل الـوداع الست عايدة رزق الله وآمال ابنتها ولحق بهم مجدي في النهايـة. كانت سهرة مرحة كعادة شلة الكونكان وإن شابها بعـض دمـوع الفراق من آن لآخر من الأمهات.

كان رورو متألقًا وهو مشتعل الخيـال بلبنـان وبيـروت والمغامرات التي تنتظره هناك. لن يحتاج إلى أمثال اللواء خيري ببيروت. البنات هناك مودرن وآخر حلاوة ودلال. كم سمع عـن جمال بيروت وجبل لبنان وأهل لبنان. رغم أصل عائلته اللبناني، إلا أنه لا يعد نفسه من أهل لبنان. لقد ولد وتربى في بيئة مختلفة. نشأ بمصر في حي شبرا. لو نشأ بلبنان لانتمى إلى أصل عائلته. طبعا هو يشعر بمنزلة خاصة للبنان بالنسبة لبقية بـلاد الله، لكـن

أقدامه وأقدام أبويه تقف على أرض مصر وفي حي شبرا، الـذي ولد فيه هو وأبوه وأمه.

كما حدث مع زاريه، رافقت الأسرة والأحبـاء ورو إلـى المطار. بعد الوداع والقبلات والتوصيات والدموع، دخـل رورو إلى صالة السفر وهو يسرع خطوه بنشاط، راحلا بفكره وخيالـه وآماله صوب بيروت.

(١٥٧)

بيروت، أميرة غجرية تغويك منذ اللحظة الأولى لملامستك ترابها. أميرة مرحبة بشوش تستقبلك بـود وترحـاب وابتسـامة ومراوغة، تعجز عن أن تلم بها جميعا. أميـرة تحتضـن البحـر وتتكئ على جبل لبنان. منذ اليوم الأول تحس أنهـا تعـدك بكـل شيء، وتتوجس بألا تحصل على أي شيء. أميـرة ليسـت هـي بالعصية وليست هي بالمستسلمة. مدينة سريعة خاطفـة. أهلهـا يعملون ويمرحون ويكسبون وينفقون ويقامرون وهم يسـتمتعون بذلك كله على حد سواء. مدينة يتمنى المرء بعد أن يجول العـالم كله أن يحط رحاله بها، ويستريح. يقـرأ جرائـدها علـى أحـد مقاهيها، يتناول غداءه على شاطئها ويستمتع بعشائه علـى قمـة جبلها. من لم يحيها فلن يستطيع أن يدركها. جنة لا تعلم ما يخبئه لها الدهر بعد أعوام قليلة. كما سيفعله بها أبناؤها بعـد سـنوات معدودة. مدنية أبناؤها بكل تلك الحيوية والمهارة والإقبـال علـى الحياة، هؤلاء الأبناء، سوف يشتركون جيمعا في اغتيالها واغتيال بعضهم البعض. جميعهم بلا استثناء. مسيحيون ومسلمون. سنيون وشيعة وكاثوليك وأرثوذكس. مثقفون وبسطاء. ماذا يريـدون؟... إلام يسعون؟... عم يدافعون؟... لِم يقتلون ويقتلـون... الجميـع شارك في الجريمة. أبناؤها ودياناتها. زوارها وضيوفها، لاجئوها

وجيرانها. انفجروا جميعا في صراع وهم يرفعون لافتات الملـل والطوائف والأديان ليبرروا القتل على الهوية.

(١٥٨)

السيدة ماري خوري

١٨ شارع الزهور. شبرا. القاهرة.

أصل السبت على الطيران العربية.

ريمان طنوس

(١٥٩)

أربكت برقية رورو الست ماري خوري أيما إرباك. لـم يمض على سفر رورو سوى أسبوعين. ماذا حدث؟. نادت علـى مجدي وأبلغته الخبر. انقبض مجدي وساروته الوسـاوس. لمـاذا يعود بهذه السرعة؟. هل اختلف مع المكتب الذي يعمـل بـه؟... لكنهم أقرباء؟... كان يمكن تسوية أي خـلاف بهـدوء... رورو طيب رغم اندفاعه وعصبيته. يمكن احتواؤه بسهولة... ليس مـن المعقول أن تكون الحاية في بيروت لم تَـرق لـه. رورو يحـب الفرفشة وبيروت مدينة جميلة كما نسمع. دارت الهـواجس فـي رءوس الجميع وفشلوا في تبرير عودة رورو المفاجئة بعـد تلـك المدة القصيرة.

توجهت الست ماري خوري وجيهان ومجدي إلى المطار في موعد وصول الطائرة وانتظروا خروج الركاب بقلق بالغ. لاح رورو وسط الزحام قادما وهو يتلفت باحثًا عن مستقبليه. صـاح مجدي مناديا حتى يلفت أنظاره.

- لم أستطع. لم أقدر على البقاء. أنا عيل.

قالها رورو وهو يحتضن مستقبليه.

علق مجدي وهو يهز رأسه مبتسما:

- مجنون رسمي.

تدفق حديث رورو هادرا متلاطما أثناء عودتهم بالتاكسـي وهو يشرح لهم كيف شعر بحنين جارف لهم ولمصـر ولشـبرا وشوارعها ومحلاتها وسينماتها وناسها. حكى لهم عـن بيـروت وجمالها وكيف اهتم به مستقبلوه في بيـروت. قـاموا برعايتـه والسهر على راحته ومصاحبته في برنـامج ترفيهـي لمشـاهدة بيروت ومعالمها والجبل ومحلات اللهو المختلفة. رغم اسـتمتاعه بكل هذا، إلا أنه كان يشعر بغصة في حلقه تـزداد مـع مـرور الوقت. أحس فجأة بانقباض رهيب طغى على اسـتمتاعه بالحيـاة والتجاوب مع كل ما حوله. ازداد هذا الشعور بالانقباض والحنين بسرعة قياسية. شعر بالغربة مع كل ما حوله. بدأ يشعر بمخاوف مجهولة وتشتت ذهني كامل. فقد قدرته علـى اسـتيعاب العمـل العمل. كان عليه أن يفهم نوع العمل المطلوب منه وطبيعتـه وأن يهضم تفاصيله. باختصار، فقد كفاءته ورغبته في العمـل. فقـد توازنه النفسي تماما فقرر العودة فورا. اعتـذر لأقاربـه الـذين

أعطوه فرصة العمل معهم وسط دهشتهم البالغة. حجـز تـذكرة الطائرة وأرسل برقيته لهم ثم أعد حقيبته وأخذ يتعجل الزمن حتى موعد الرحيل بضجر عظيم.

(١٦١)

عزيزي مجدي

لا أستطيع أن أصف لك كم أشتاق إليكم جميعا وأفتقدكم. كم أشتاق لشبرا. رغم مرور مدة قصيرة فإن شوقي لكـم ولمصـر يفوق الوصف. أريد أن أسأل عن أشياء كثيرة وأن أحكي لك عن تفاصيل حياتي هنا على قدر ما تسعفني الذاكرة. سأبدأ بأن أحكي لك عن أخباري.

أعتذر أولاً عن التأخر في الكتابة، فمع أني وصـلت منـذ أكثر من أسبوعين، إلا أنني مشغول جدا وعلى قدر من الارتباك. أحاول أن أتوافق مع الحياة الجديدة هنا، كمـا أننـي بـدأت فـي مساعي البحث عن عمل مناسب.

بمجرد وصولي إلى نيويـورك وخروجـي مـن الـدائرة الجمركية، وجدت أقاربي الأرمينيين في استقبالي. رجـل مسـن تجاوز الستين من عمره وزوجته، يعشان فـي مدينـة صـغيرة بالقرب من نيويورك. لم ينجبـا أطفـالاً ويعيشـان بمفردهمـا. استضافاني بمنزلهما لحين حصولي على عمل واستقراري فيه.

طبعا أعتبر نفسي محظوظًا هنا، ذلك لأنـه توجـد جاليـة أرمينية كبيرة بنيويورك، وقد تعرفت على عدد من الأسـر عـن طريق أقاربي الذين أقيم طرفهم، بالإضافة إلى أقارب آخرين لنـا

بولاية نيويورك. لذلك تجدني لا أشعر بالوحدة. مشكلتي أنني لا أجد الوقت الكافي. قابلت شخصا مصريا هنا بالمصادفة، كيمائي اسمه فؤاد أمين من شبرا... تصور!. المصري الوحيد الذي أقابله يكون من شبرا. أخبرني أنه لا يوجد الكثير من المصريين هنا، قدرهم بحوالي عشرة مصريين، تعرفت أيضا على الكثير من الأرمينيين وذهبنا إلى نيويورك بالسيارة. تجولنا في مانهاتن وشاهدنا عرضا لفرقة رقص أرمينية. تناولنا عشاءنا بمطعم أرميني"طبعا". عدنا مساء الأحد في وقت متأخر. كانت تكلفة الفرد ٢٠ دولارا.

مانهاتن هذه شيء عجيب لم أر له مثيلاً. شوارع طويلة وعرضية كالمستطيلات. الشوارع بالأرقام. يعني لا تجد شارعا يسمى شارع الزهور مثلاً أو شارع ابن الرشيد... لا... ولكن شارع ٤٢ أوالطريق الخامس. الشوارع ليست عريضة، ومع ذلك تنتصب فيها ناطحات السحاب على الجانبين. تشعر أنها ستنهار عليك وأنت تسير فيها. تكاد تصطدم بالسائرين في الشوارع من فرط سرعتهم. كأنهم جميعا يريدون اللحاق بالقطار أو الأتوبيس قبل موعد القيام. أهل مانهاتن يفعلون كل شيء. بسرعة رهيبة. يسيرون بسرعة ويتكلمون بسرعة ويأكلون بسرعة ويختلفون بسرعة. شعرت فيها بمشاعر متناقضة. مزيج من الدهشة والضيق، أو قل مثلاً الانبهار غير المريح. الشيء المزعج حقًّا،

أنه لا تمر لحظات إلا وتسمع سارينة إنـذار... وا... وا... وا... وا... وا، سيارة بوليس أو سيارة إسعاف، سيارة مطافئ أو نجدة. مصيبة يعني.

العطلة الأسبوعية القادمة سأذهب إلى حفلة راقصة. تعرفت على فتاة من نيويورك قابلتها في الكنيسة. سنذهب معا إلى الحفلة الراقصة. بنت جذابة وذكية. تحـب الاسـتماع إلـى الموسـيقى الكلاسيكية مثلنا وتهوي لعب التنس. تستطيع أن تتخيل كـم أنـا مشغول؟!

هل وصلك أخبار من رورو؟. أريـد أن أعـرف أخبـار مغامراته وفتوحاته البيروتية. أرجو أن ترسل لي عنوانه لأراسله. بدأت في البحث عن عمل. يوجد احتياج كبيـر هنـا للرسـامين الهندسيين، يوجد أيضا فرص عمل للمهندسين، ولكن بدرجة أقـل من الرسامين، نصحوني بأن أقبل العمل كرسـام هندسـي فـي البداية، بعدها يمكن أن يتم ترقيتي إلى وظيفة مهندس إذا تبين من العمل توفر الكفاءة. العمل هنا لا يهمه الإطلاع علـى شـهادتك. يأخذون بكلمتك. المهم أن تثبت كفاءتك وتؤدي العمل المطلـوب منك للوظيفة. الجهات الحكومية فقط هي التـي تشـترط تقـديم شهادات التخرج، كذلك أي جهة مرتبطة بالحكومة. خلاف ذلك... كفاءتك وإنجازك.

أخبرني عن موعد سفرك إلى لندن. مـا أخبـار الجميـع عندك؟ أرجو أن تطمئنني عن أخبار شبرا بالتفصيل.

أطيب تمنياتي أبعثها لك وللجميع وأرجـو أن تكتـب لـي بمجرد استلامك لخطابي.

زاريه ألطونيان – نيويورك.

(١٦٢)

عزيزي زاريه

أطيب تمنياتي أبعثها من القاهرة. أقلقتنا عليك. لم أتوقـع أن تتأخر في الكتابة إلى هذا الحد. كنت أريـد أن تكتـب علـى عنوانك الذي سأراسلك عليه من لندن، سأسافر بعد غـدٍ وسـوف أراسلك من لندن لأبلغك بعنواني هناك. تستطيع أن ترسل لي في البداية على عنوان جورج بلندن والذي أعطيته لك قبل سفرك.

تسألني هل وصلك أخبار من رورو؟

لا يا سيدي، لم تصلين أخبار من رورو، بـل وصـلني، رورو نفسه، بلحمه ودمه. تخيل المجنون. يقول أنـا عيـل. لـم يحتمل الغربة لأكثر من أسبوعين. يقول إن الحنين لمصر نغـص عليه عيشته هناك. نوستالجيا يـا سـيدي. أنـت تعـرف رورو وشطحاته. وحشته شبرا.

واضح أن الأحوال ماشية معـاك. رحـلات لنيويـورك وحفلات رقص. لم أتخيل أنك اكتسبت السرعة الأمريكيـة التـي تحكي عنها في هذا الوقت القصير وتعرفت علـى بنـت جذابـة وذكية.

أرجو أن توفق في الحصول على عمل سريعا. الجميع هنا بخير ويهدونك السلام. لن أطيل فـي خطـابي هـذا لانشـغالي

بالتحضير للسفر. كما أنه ليس لدي أخبار خـلاف عـودة رورو الدرامية والاستعدادات للسفر. سأكتب لـك مـن لنـدن بمجـرد استقراري. أطيب تمنياتي لك وإلى الخطاب القادم

مجدي

(١٦٣)

ذهب مجدي إلى شقة كريستينا عشية سـفره إلـى لنـدن، تصادف أن أمها إيرين سافرت مـع عبـاس الخربـوطلي إلـى الإسكندرية للمصيف فخلا لهما الجو. كانت كريسـتينا عصـبية بسبب سفر مجدي بمفرده. كانت تريد أن تصاحبه فـي السـفر. شرح لها مجدي الظروف الصعبة التي سيواجهها في البداية النقود التي استطاع أن تدبيرها محدودة ولا يعلـم متـى سـيوفق فـي الحصول على عمل. وعدها بسرعة ترتيب حضورها إليـه فـي لندن بمجرد استقراره في عمل مناسـب. ضـاجعها مضـاجعة الوداع. كانت أكثر سخونة وشبقًا من جميـع اللقـاءات السـابقة. عندما ارتدى ملابسه وهم بمغادرتها، تعلقت بـه متشـبثة وهـي عارية. أعادت فك أزراره وأزاحت ملابسه عنوة. سحبته بقوة إلى الفراش مرة أخرى. غادرها منهكًا بعد منتصف الليل وهو يترنح. وصل إلى بيته فوجد الست عائشة في انتظاره. أوصاها بموعـد إيقاظه في الصباح وارتمى في الفراش.

(١٦٤)

عزيزي مجدي

وصلني خطابك الذي كتبته من القاهرة قبل سـفرك إلـى لندن. ها أنا أكتب إليك على عنوان جورج بمجرد قراءته.

لا أستطيع أن أتسوءب خبر عودة رورو من بيروت بعـد أسبوعين من سفره. مجنون رسمي فعلاً، أضاع فرصـة كبيـرة. طول عمره أهوج ومندفع. سأكتب له بعد أن أفرغ مـن خطـابي لك.

وفقت في الحصول على عمل كرسـام هندسـي بمكتـب استشاري يقع في بلدة صغيرة بالقرب من مدينة نيويورك. قبلـت العمل كرسام في البداية لأن هذا هو المـدخل السـريع للعمـل، والاحتياج هنا كبير جدا للرسامين. أي رسام هندسي لا يهاجر إلى أمريكا يكون مخطئًا. المكان الذي أعمل به ممتاز. بالتدريج سوف أعتاد على طبيعة العمل هنا. بالأمس اكتشفت خطـأ فـي أحـد التصميمات وأنا أقوم برسم اللوحة. كانت نقطـة فـي صـالحي وأعتقد أنه سيتم تصعيدي للعمل كمهندس تصميم سـريعا. علـى فكرة، مستوانا أعلى من مستوى مهندسيهم في التصميم الهندسـي ولكن ما يميزهم عنا هو التخصصية الدقيقة جدا. الشـيء الهـام بالنسـبة لـي أن أصـبح P.E. (professional Engineer)،

ويتطلب الحصول على ذلك اللقب أربع سـنوات خبـرة عمليـة واجتياز امتحان من ثلاثة أجزاء.

إذا واجهتك صعاب في لندن، فكر جديا في الحضور إلـى أمريكا. فرص العمل كثيرة. إذا عزمت أمرك فسوف أرسل لـك بعض عناوين الشركات هنا. هذه إحدى الطـرق للـدخول إلـى الولايات المتحدة والبقاء فيها بدون هجرة، مادمت لا تريد أن تقوم بإجراءات الهجرة، تستطيع أن تتقدم إلى الشركات للحصول على وظيفة، إذا وفقت مع إحدى الشركات، فسوف تقوم هذه الشـركة بالكتابة إلى إدارة الهجرة لتبلغها بأنها في حاجة للموظف، نظـرا لأن الشركة لم تجد بديلاً محليا، وهذا أمر واقع نظرا لوجود نقص شديد في المهندسين والرسامين الهندسيين بـذلك تحصـل علـى تصريح عمل لمدة ستة أشهر. خلال تلك الفترة تقدم على تأشـيرة إقامة عمل دائمة.

بدأت في التأقلم مع الحياة هنا. إيجابيتاتها وسلبياتها.إحـدى المشاكل المسعصية هنا هي مشكلة السود. مشكلة كبيـرة فعـلاً. مظاهرات كثيرة تنادي بحقوق السود. اهتمام السياسـيين بقضـايا الزنوج، سعيا للحصول على أصواتهم الانتخابية، يزعج البـيض جدا، مجتمع غريب. رغم التقدم الذي وصـلت إليـه الولايـات المتحدة، إلا أنه توجد تفرقة بين الزنوج والبيض. السود يطـالبون بالمساواة، وتحدث الكثير من الجرائم بسبب هذه التفرقة.

إن حركة السود للاعتراف القـومي بهـم، دفعـت جميـع الجماعات العرقية الأخرى بأميركا إلى الإعلان عن نفسها. كـل جماعة عرقية الآن تقوم بعمل الاجتماعات وبناء الكنائس الخاصة بها، والمدارس أيضا. لقد أدهشني جدا أن الأرمينيين هنا يقومون ببناء كنيسة جديدة خاصة بهم ومركز تجمع، بالإضافة إلى مدارس الأحد. الجميع هنا يقولون أنا أرمني. حركة كبيرة في نمو مستمر.

يقولون إذا كان السود يفعلون ذلك، فلنفعله نحن أيضا.

أحتاج لشراء سيارة. السيارة هنا هامة جدا للحركة. أرجـو أن أتمكن قريبا من شراء سيارة. السير في الطرقات بعد التاسـعة مساء في غاية الخطورة، بسبب عصابات السود، لذلك لا أغـادر المنزل خلال الأسبوع وأقضي الوقت في القراءة.

أرجو أن تكتب لي سريعا لتطمنني على أخبارك في لنـدن. سأتركك الآن. تحياتي وأطيب تمنياتي بالتوفيق.

زاريه

(١٦٥)

مرت الأيام وتتابعت المراسـلات بـين مجـدي وزاريـه ورورو. أعلنهم رورو أنه لن يكتب رسائل طويلة. ستكون رسائله قصيرة لأنه لا يملك الصبر للكتابة من الأساس. يكفي أنه بسفرهم اضطروه لأن يكتب. لم يكن يفهم هذه الصداقة التي تحيا بالكتابـة فقط. الصداقة عند رورو معايشة وحركة وحياة كاملة. مغـامرات وذهاب إلى اللواء خيري أو إلى سينما الجندول وسـينما دولاـي. نصف رسائله المقتضبة كانت مناشدة لصديقيه بصرف النظر عن مسألة السفر هذه والعودة إلى مصر.

دخل فصل الخريف بجوه المنعش في مصر، وبرودته فـي كل من لندن ونيويورك. اقترب الشتاء ومجدي يسعى في البحـث عن عمل بلندن. ترقى زاريه إلى وظيفة مهندس بعد أن نال تقدير روسائه وإعجابهم. زاد دخله وبدأ يعد العدة لأن تلحق به أسـرته في أميركا. كان قد استأجر ستوديو صغيرا في البداية. مع تحسن أحواله، انتقل إلى شقة أكبر استعدادا لقدوم مدام أنوش وأناهيد.

اتفق الأصدقاء الثلاثة، قبل بداية العـام الجديـد، علـى أن يحتفلوا بالعام الجديد معا على البعد. كل في مكانـه البعيـد عـن الآخر. الساعة الثانية عشرة من آخر ليلة في العـام، سيشـربون نخب صداقتهم. في نفس اللحظة. اختاروا أن يكون ذلك في تمـام

الثانية عشرة بتوقيت جرينتش. التوقيت العالمي. ستكون القـاهرة قد سبقت في التوقيت، أما زاريه في نيويورك، فسيكون في بدايـة المساء. لا يهم. سيعتبرون أنفسـهم معـا، وسيشـربون نخـب صداقتهم، في نفس اللحظة. اختاروا أيضـا، ليتوحـدوا معـا، أن يستمعوا إلى نفس الموسيقى. اقترح زاريه بمزاجـه المتميـز، أن يستمعوا إلى الحركة الرابعة الكورالية من السـيمفونية التاسـعة لبيتهوفن. أن يسمعوا الكورال وهو ينشد قصيدة شيللر، أغنية إلى الفرح""Ode to Joy، على ألحان بيتهوفن الخالدة. لـم يعجـب الاقتراح رورو، قرر أن يستمع هو إلى أغنيـة يختارهـا علـى مزاجه.

(١٦٦)

عزيزي زاريه

أطيب تمنياتي أبعثها إليك من لندن. أزف إليك خبر توفيقي في الحصول على عمل أخيرا. عمل متواضع، لكن لابد من قبوله، فقد وصلت إلى شفا الإفلاس. شيء أفضل من لا شـيء. سلسـلة مطاعم Pizza Land، التي يعمل بها جورج، احتاجت لعمال في فرعها بشارع الصحافة"Fleet Street" بلندن. العمل هو غسـيل الأطباق بالمطبخ. أفاد جورج بأنه من الممكن أن تتم ترقيتي إلـى مساعد طباخ فيما بعد، عندما يحتاجون ويتوسمون في الاسـتعداد لذلك. لم يكن عندي ترف الرفض، أريد أن أستقل بسكن خـاص، نظرا لأني أقيم مع جورج منذ حضوري من القـاهرة، الوضـع محرج جدا لأن صديقته جين تقيم معه. الشقة مكونة مـن غرفـة واحدة وصالة، وأنا أنام في الصالة. كان لابد أن أقبـل أي عمـل سأنتقل إلى ستوديو خاص بي. استمر في مراسلتي على عنـوان جورج حتى أرسل لك عنواني الخاص. ما أخبـارك؟. أرجـو أن تكون على تفوقك المعهود في العمل هل رتبـت لحضـور مامـا وأناهيد؟. أرجو أن تطمئنني على أخبارك وأن تكتـب لـي عـن أخبارك وأن تكتب لي عن أخبار الحب الجديد.

أذكرك باحتفالنا ليلة رأس السنة. اشتريت شريط السيمفونية التاسعة وسأستعير كاست جورج. سأحتاف بالمناسبة في الاستوديو الجديد الذي سأستأجره. لو احتاج الأمر فسأقترض من جورج في البداية.

سأتركك الآن. إلى لقائنا المرتقب على البعـد... و... كـل سنة وأنت طيب.

مجدي

(١٦٧)

O Freunde nicht diese Toene
Sondern lasst uns angenehmere anstimmen
und freuden Vollere!
Freunde, schooner Goetterfunken,
Tochter aus Elysium ;
Wir betreten feuertrunken,
Himmlische dein Heiligtum.
Diene Zauber binden wieder,
was die Mode streng geteilt ;
Alle Menschen warden Brueder ;
Wo dein sanfter fluegel weit.

أيها الأصدقاء

لا تغنوا هذه الأغنيات، لكن فلنُغن معا أغاني البهجة

الأغاني المليئة بالفرح.

أيها الفرح

الشرارة البهيجة للقداسة

يا ابنة الإليزيه

ندخل ونحن سكارى باللهيب

إلى حرمك المقدس

إن قوتك السحرية سوف تُجمع مرةً أخرى

ما فرقته التقاليد بقسوة

كل الناس ستصبح أخوة

تحت ظل جناحيك الحانيين.

على صوت غناء الكورال، وأنغـام بيتهـوفن المهيبـة، وكلمات شيللر التي تدعو إلى الفرح والبهجـة والإخـاء، رفـع الأصدقاء الثلاثة كئوسهم عاليا، ثم شربوا نخب صداقتهم. زاريـه في نيويورك ومجدي في لندن ورورو في شبرا. في الحقيقة، لـم يكن رورو يستمع إلى السيمفونية التاسعة لبيتهوفن. كان يسـتمع إلى أغنيته الخاصة.

Once upon a time there was a tavern
where we used to raise a glass or two
Remember how we laughed away the hours
Think of all the great things we would do
Those were the days my friend
We'd sing and dance forever and a day
We'd fight and never loose
For we were young and sure to have our way.

هل تتذكر تلك الحانة

التي اعتدنا أن نلتقي فيها معا

هل تذكر كم ضحكنا معا لساعات طوال

ونحن نفكر في كل الأشياء الرائعة التي سوف نفعلها.

لقد كانت تلك هي الأيام الجميلة يا صديقي

التي كنا نعتقد أنها أبدا لن تنتهي

كنا نعتقد أننا سنغني وسنرقص معا إلى الأبد، بل وربما أكثر

كنا نعتقد أننا سنحيا الحياة التي نختارها

كنا نعتقد أننا سنفوز في جميع حروبنا

لأننا كنا صغارا وكلنا ثقة أننا سنفعل ما نريد.

(١٦٨)

عنواني، *

شارع شبرا،

حيفا، لبنان.

ولتتذكر

أن تكتب لي في الفرح وفي الأحزان

في شارع شبرا... كانت أيام

ومضت أيام...

تتوالى في طيات الأعوام

وأكيد سوف تَعود الأيام

***

لُولا بنتُ اليونان

باولو من روما، ساقي الحان

من أرمينيا، ألتونيان

صاحب أزهار البستان

---

* قصيدة "شبرا"

من ديوان " حديث الكائنات " للكاتب

عوني، من أرض الشام
الجدةُ قالت لي
في كل مكان من أرجاء الدنيا
يوجد شارع شبرا
في كل مكانٍ من أرجاءِ الوطن العربي
يوجد شارع شبرا
لا أدري ما سبب الفرحةْ
ورددتُ عليها مذهولاً
شبرا!... دنيا!
واصلتُ اللّعِب مع الأقران
لولا، يرغو، جابي، عوني
أيام تمضي... أيام
أحببت صديقي سامي من أرض الشام
لم أعرف ساعتها من سوريا، يافا أو لبنان.
وتزاملنا طيلة أعوام دراستنا
منذ اليوم الأول حيثُ الخوفُ من المجهول
وحتى الآن،
كنا نبكي غربةَ ذاك العالمِ
فتلاقينا،
وتشاكينا،

وتواعدنا أن نتلاقى في اليوم التالي
أيام تمضي... أيام
ونَشُب خِلال سنين العرم نُطاولُ فيها الأحلام
ينمو فينا الزمن بطيئًا، قلقًا، يتحرق شوقًا للآتي...
والنشوةِ... والألوان.
فنرى القصر الأبيض فوق الربوةِ يرنـو لميـاه البحـر الساجي
في خُيلاء
وعروس البحر... عروس البحر تَشِف خلالَ الماء
أضواء البدر تُلألئها
وسكون الليل يهدهدها
ويرطبها بالأنداء
ننجب صبيانا وبناتٍ
ينمو الأبناء،
يوقظنا الحاضر كي نمضي ونُواصلَ صنع الأيام

***

حان الوقتُ
للوعي بمعنى الغربةِ والترحالْ
حطت قافلة العمر بِأرض القهر الملعونةْ

لا قصر أبيض، لا عرس، لا أبناء
والحلم يؤجلُ فيما بعد
لا ترحلْ... فالغربةُ مثلُ السوطْ
تجلد فينا كل الأشياء
هل ترحلُ حقًا؟...
...
إن كان رحيلُك محتوما...
لا تنس
أن تكتب لي...
في فرحك أو في أحزانِك
ولتتذكر

عنواني شارع شبرا،
حيفا،
لبنان.

تمت

نعيم صبري
القاهرة – ٢١ مايو ٢٠٠٠